

393

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة

تـألـيـف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين

ترجـمـة: أ. موسى بيدج

مـراجـعـة: أ. سمير أرشدي

فبراير 2013



الفنانة: د. فوزية حسين

لوحة من معرض القرين التشكيلي الثامن عشر

الجواد

زيت

140 x 140 سم



أنطولوجيا
القصّة الإيرانية الحديثة

تـأليـف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
تـرجـمـة: أ. موسى بيدج
مـراجـعـة: أ. سمير أرشدي

إبداعات عالمية

المشرف العام

مستشار التحرير

هيئة التحرير

مدير التحرير

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
بالمراسلة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٧٠
ردمك: ٦-٣٨٦-٠-٩٩٩٠٦

• أنطولوجيا
القصّة الإيرانية الحديثة

العنوان الأصلي:

آنتولوژی داستان نوین إیران

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م
إبداعات عالمية - العدد 393

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

المقدمة
بانوراما الأدب القصصي الإيراني الحديث

حكايا الأدب القصصي الإيراني الحديث طويلة وقد لا تسعها هذه الصفحات ففي سنة ١٩٢١ صدرت مجموعة قصصية للأديب محمد علي جمال زاده بعنوان «كان يا ماكان» تميزت بمنهج منطقي دقيق ورؤية نقدية وأسلوب بديع وحبكة جديدة. كانت هذه المجموعة أهم موروث تركه جمال زاده للأجيال اللاحقة، حيث أسست البنية التحتية للقصة الإيرانية القصيرة ورسمت لها خارطة الطريق الذي انتهجته.

كان الكاتب جمال زاده قد نشر قصص هذه المجموعة مسبقا في صحيفة «كاوه» الصادرة في برلين، وأصدر الطبعة الأولى لمجموعته من مطبعة كاوياني في برلين. بناء الشخصيات، وصياغة المشاهد، والعقد، والرؤية النقدية للظواهر المحيطة، فضلا عن اللغة والأسلوب النثري في هذه المجموعة، كلها عناصر اجترحها جمال زاده في مجموعته هذه بتقنيات جديدة، الأمر الذي ضاعف من قيمة العمل وأثّر تأثيرا حاسما على حركة الكتابة القصصية في إيران.

بعد ذلك أماط جمال زاده اللثام عن جهوده الأدبية المتتالية فأنتج الكثير من الأعمال القصصية، بيد أن أيا

منها لم يبلغ مستوى التأثير الذي تركته مجموعته البكر.
ومن بين مجاميعه القصصية الأخرى يمكن الإشارة إلى «دار المجانين» ١٩٤٢، و«سيرة العم حسين علي» ١٩٤٢، و«من قماش واحد» ١٩٤٤، و«قلتشن ديوان» ١٩٤٦، و«صحراء المحشر» ١٩٤٧، و«سبيل رسالة الماء» ١٩٤٧، و«معصومة الشيرازية» ١٩٥٤، و«العمل الرائع» ١٩٥٨، و... إلخ.

بالإضافة إلى الأدب القصصي، اهتم جمال زاده بالعمل البحثي والترجمة وله نتاجاته الغزيرة في هذين البابين منها: «الكنز الرائع» حول اقتصادات العهد القاجاري في إيران، «حرب التركمان» و«طباعنا نحن الإيرانيين» ومن ترجماته: «ويلهلم تل» لشيلر، و«البخيل» لموليير.

كما وضع «قاموس المفردات العامية» الذي جمع فيه المصطلحات الإيرانية المستخدمة في اللهجة العامية والمحكية من قبل الناس. كان جمال زاده مولعا بالأدب الشعبي الإيراني، وقد استخدم في أعماله القصصية نثرا مشبعا بالكلمات والاستعارات والإشارات والكنايات والمصطلحات العامية الدارجة.

السبيل الذي اختطه جمال زاده بلغ به صادق هدايت الذروة. كان هدايت ابن عصره، استلهم تصوراته الاجتماعية والسياسية والفكرية منه، وانعكست جميع هذه البصمات والانطباعات في أعماله القصصية انعكاسا ملحوظا.

لقد صور صادق هدايت في بعض قصصه شطرا من طموحات جيله بشكل رمزي. رسمت روايته «البومة العمياء» (١٩٣٩) بريشة سيريالية غير مألوفة ظروف الطبقة المخملية في عصر رضا شاه بهلوي. وفي «الموؤودة» (١٩٣٠)، و«قطرات دم ثلاث» (١٩٣٢) عرض واقعه المعاصر بأسلوب مباشر ورمزي، وفي «التضاليل» و«علوية خانم» (١٩٣٣)، أعلن امتعاضه من المؤسسات البالية الموروثة عن الأجيال السابقة. وقد استطاع في خضم هذه الأعمال تقديم تحليل عميق للشخصيات المنكوبة البائسة المسحوقة في المجتمع.

تأثر هدايت كأغلب أبناء جيله بالأفكار الوطنية والقومية التي سادت أعوام الثورة الدستورية وحكومة رضا شاه. وتبلورت هذه الأفكار بطابع حاد جزمي في مسرحيتيه «بروين ابنة ساسان» ١٩٣٠، و«مازيار» ١٩٣٣. لقد أطلق هدايت إبداعات رائعة في عالم الكتابة القصصية، ويمكن اعتباره من الكتّاب الأوائل الذين أبدوا انشدادا مميزا للاعتبارات الوطنية والقومية الإيرانية وكان لهذه الاعتبارات إسقاطات جلية بشكل من الأشكال في آثاره.

كما ركز اهتمامه على الأدب الشعبي الإيراني في سياق مقارنة مع النزعة إلى القديم، فأنجز أعمالا من قبيل «بلاد الأخاديع» عام ١٩٤٧، و«وغ وغ ساهاب» عام ١٩٣٢، بمساعدة نظرائه من الأدباء. النقطة اللافتة هي نثره ولغته القصصية

الضارية بجذورها في الأدب الشعبي فصاغ هدايت هذه اللغة النثرية وأنضجها بحيث هيمنت بعد ذلك على كثير من الكتّاب الذين تقبلوا بصماته وتأثروا به.

انطوى التراث القصصي لصادق هدايت على ملامح من التحرر والعفوية والإخلاص والعاطفة والعقل والروح الثورية المطالبة بالتغيير، والأهم من كل هذا أنه اكتنف في داخله جماليات خاصة. جرّب معظم صنوف الكتابة فكتب أدب الرحلات «أصفهان نصف العالم» والمسرحيات، ونشر في الصحف ومنها مجلة «الموسيقى» و«الكلام» وغيرها.. واجتذبه الأدب البحثي فأنتج عدة دراسات وكتب، ولم ينس النقد الأدبي، فعمد إلى تشذيب بعض التصورات الخاطئة التي سادت عصره. وإلى جانب كل هذا خاض في حقل الترجمة أيضا فنقل قبل كل شيء أعمالا من اللغة الفهلوية إلى الفارسية (زند وهومن يسن، ملف اردشير بابكان، تقرير ينهي الظنون) ثم ترجم بعض أعمال فرانتس كافكا (المسخ، جماعة المحكومين، ومجموعة «الجدار» لعدة كتاب).

أبدى هدايت قدراته الكتابية في أشكال قصصية عدة. وكان ذا مهارة وبراعة مميزة في القصة القصيرة. كما كتب قصصا طويلة، ومن قصصه رواياته الخالدة «البومة العمياء» و«حاجي آغا». تأثر في «حاجي آغا» بالتيار اليساري السائد

آنذاك، فسلّط حراب نقده بأسلوب بديع على الرأسمالية البازارية في إيران. وعرض قصصه من زوايا عديدة فكتب تارة من زاوية الراوي، وأحيانا من زاوية المتكلم المفرد، وجرب انسيابية الذهن أيضا. جنح في جانب من قصصه إلى الموضوعية التامة والواقعية الاجتماعية، ومال في أحيان أخرى إلى النزعة الذهنية والرمزية، واستفاد تارة من المادية، وتفوق في كل هذه الأشكال على كتّاب عصره [وحتى الكتاب اللاحقين] فكان من الطبيعي أن تلقي المعايير الكتابية عند هدايت ظلالها على الأجيال التالية، بل ودفعت بعض القاصين إلى تقليده.

مع نشوب الحرب العالمية الثانية وبدء التحولات الكبرى في أنحاء مختلفة من العالم ومنها إيران التي شهدت آنذاك سقوط حكم الشاه رضا بهلوي، انطلقت موجة شاملة من التنوير السياسي والتحرر الاجتماعي والأصوات المعارضة التي اتسمت بالنضج أحيانا وباللانضج في أحيان أخرى، كما انبثقت في إيران وقتئذ الأحزاب السياسية على اختلاف مناهجها وأهدافها. وقد هيمن الحلفاء آنذاك على السياسة الخارجية الإيرانية، فتكاثفت القوى المعارضة في المجتمع حول الأحزاب السياسية التي توزعت على ثلاثة تيارات رئيسية: التيار اليساري، والتيار اليميني والتيار الوطني المعتدل. أحزاب التيار اليساري كانت منحازة في الغالب إلى

السياسة السوفييتية، بينما جنحت الأحزاب اليمينية إلى السياسة البريطانية، وادعى التيار الوطني الحياد.

وابتعد المجتمع رويدا رويدا عن المنحى الاستبدادي على الرغم من أنه كان يضمر في داخله بذور الاستبداد، ووجدت القيم الفكرية والفنية مساحات أوسع للظهور والتفاعل، وأتيحت للأدب القصصي ميادين أوفر عددا وأوسع مساحة، وذلك بضغط من الظواهر السياسية والاجتماعية وما تفتق عنها من تنظيرات ورؤى. وظهرت إلى النور مجلات أدبية تعتمد القيم الحديثة في الأدب، فأطلقت مجلة «سُخَن» إبداعات وإنجازات فكرية وثقافية غير مسبوقة مكرسة أهمية الأدب القصصي والاتجاهات الحديثة في الأدب.

وشهد فنّ الكتابة القصصية في إيران خلال تلك الفترة تياراتٍ ومناحي متنوعة، فتواصلت كتابة الروايات المسلسلة في المجلات، وكانت المضامين الرئيسة اجتماعية وتاريخية قبل كل شيء، وقد تتشكل أحيانا بأساليب تنم عن درجة شديدة من الفجاجة وعدم التمرس. وتداولت الساحة الأدبية أسماء كُتّاب جدد افتقر معظمهم إلى الموهبة الحقيقية والإبداع الرصين على الرغم من الكم الكبير الذي أنتجوه من القصص القصيرة والروايات والمقطوعات الأدبية التي سادها المناخ العاطفي والرومانسي معظم الأحيان، إضافة

إلى استلهام سطحي للأحداث الاجتماعية وتشكيل فضاءات ذهنية غير ملموسة وغير موثقة.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن هذه الموجة قابلتها موجة لقاصين آخرين كرسوا فنهم ليكون مرآة تعكس واقع وتحديات الإنسان في عصرهم. لقد صوّر هؤلاء مجتمعهم بأسلوب فريد وأفكار ناضجة واستطاعوا بأفكارهم وأذواقهم الوصول إلى نمط خاص من الرؤى النقدية والتفكير الاجتماعي الفاعل. والحقيقة أن أعمالهم كانت صرخة معارضة في وجه الاستغلال والإجحاف الذي عانى منه مجتمعهم.

حينما نشر صادق جوبك أولى مجاميعه الشعرية «لعبة العرائس» سنة ١٩٤٥ بشّر في الواقع بظهور كاتب ذي موهبة أصيلة. ولد جوبك في مدينة بوشهر وعمل موظفا في شركة النفط الوطنية. تدور أحداث طائفة مهمة من قصصه في الجنوب الإيراني، ومثال ذلك «تنكسير» ١٩٦٣، التي توسّع فيها باهتماماته الاجتماعية. وفي مجموعته القصصية الثانية «قرد مات صاحبه» ١٩٤٩، اقترب هذا القاص من الأسلوب الناتوريالي (الطبيعي) أكثر فأكثر من دون أن يتخلى نهائيا عن الأسلوب الواقعي.

صدرت له بعد ذلك مجموعتاه القصصيتان «اليوم الأول في القبر» ١٩٦٥، و«المصباح الأخير» ١٩٦٥، ورواية «سنك صبور» (صخرة الهموم) ١٩٦٦، التي كتبها بطريقة الانسياب

الذهني، وصوّر فيها بيئة تكتظ بشتى صنوف القبح والاستهتار مسجلا ضدها موقفا جد غاضب.

زاوج جوبك في غالبية نتاجاته بين تصوراته الذهنية وملاحظاته الخارجية بمهارة فائقة مقدما بذلك مشاهد حيّة وخالدة في فن الكتابة القصصية. وقد احتلت الشرائح الفقيرة مكانة مميزة في أعماله فعرض ظروفها العصيبة وحقوقها المغموطة. تأثر جوبك في نثره بصادق هدايت لاسيما في استخدام المفردات والتعابير العامية الدارجة والإكثار منها، إلا أنه حتى في استخدامه هذا أبدع في أسلوبه السردي المميز ولغته الخاصة التي وظفها في تصوير المشاهد والأحداث بكل براعة. وبالاضافة إلى هدايت، يمكن رصد بصمات هيمنغواي، وفولكنر وهنري جيمز في منجزه القصصي. كان جوبك كاتبا يشاهد ويرصد بدقة ويتفهم موضوعاته بشكل مرهف ويعالجها بعقله وعواطفه على السواء محاولا تقييمها وفحصها أولا لينقلها بعد ذلك على الورق.

وفضلا عن قصصه، كتب جوبك مسرحيتين عرض في كلتيهما قراءاته للنظام الاجتماعي - السياسي السائد في عصره. في «الكرة المطاطية» صوّر أجواء الإرهاب والقمع التي ميّزت عصر الشاه رضا بهلوي، وفي «الخطوط السبعة» عالج الظروف المعيشية لإحدى شرائح المجتمع المحرومة،

كما نقل إلى الفارسية بنجاح ملحوظ أعمالا أجنبية منها «الطفل الخشبي - بينوكيو» لكارلو كلودي، و«أليس في أرض العجائب»، وقد ترجم رودولف غلبكيه، وبيتر أوفري بعض كتاباته إلى الألمانية والإنجليزية بالترتيب.

أما جلال آل أحمد، فقد انطلق في مشواره القصصي بنشره قصة قصيرة في مجلة «سخن» عنوانها «الزيارة». وصدرت مجموعته القصصية الأولى «الزيارات المتبادلة» سنة ١٩٤٥م، أعقبتها «عن الهم الذي نعاني» سنة ١٩٤٧م، و«سه تار» سنة ١٩٤٨م، و«امرأة إضافية» عام ١٩٥٢م.

جرّب آل أحمد منعطفات حادة في حياته، فقد كانت جذوره دينية باعتباره وليد وربيب عائلة ملتزمة دينيا، إذ كان والده رجل دين معروفا. ولم يمنعه ذلك من الانخراط إبان شبابه في صفوف الحزب الشيوعي الإيراني (توده) الذي انشق عنه بعد ذلك لينضم إلى جماعة الاشتراكيين المستقلين (التيار الثالث) بزعامة خليل ملكي. ثم أبدى انشدادا إلى النزعة الوطنية التي حفزت الشعب للانتفاض من أجل تأميم النفط، ولم يلتزم الصمت حيال تصاعد المنحى الاستبدادي للشاه محمد رضا بهلوي، بل شدد على أهمية معارضة الواقع الراهن آنذاك بكل السبل المتاحة.

ووجّه آل أحمد حراب نقده اللاذع إلى الثقافة الغربية المستوردة التي فتحت لها على مصراعيها كل بوابات البلاد،

وأصدر في هذا الباب كتابه المشهور «نزعة التغريب» عام ١٩٦٢م. وفي أواخر عمره غير الطويل عاد إلى بعض جذوره الثقافية مبديا ميولا إلى شيء من التقاليد العقلانية والموروث الإيراني، ويمكن ملاحظة هذه «العودة إلى الذات» في غالبية نتاجاته المتأخرة.

إضافة إلى قصصه القصيرة، وضع آل أحمد روايات «سيرة الخلايا» ١٩٥٤م، و«مدير المدرسة» ١٩٥٨م، و«نون والقلم» ١٩٦١م، و«لعنة الأرض» ١٩٦٧م، و«شاهد قبر» ١٩٦٧م، مصورا في كل واحدة منها ملمحا من ملامح التيارات السياسية والاجتماعية في عصره بأسلوب رمزي أو بمنحى واقعي.

بذل آل أحمد جهدا غزيرا في عالم الكتابة، وكان من أبرز مَن عملوا لتأسيس اتحاد الكُتّاب الإيرانيين، ونشط كذلك في ميادين فكرية وثقافية أخرى، فدوّن ملاحظات ورحلات مونوغرافية لبعض المناطق المحرومة التي زارها صدرت تحت عناوين «أورازان»، و«سكان الأكواخ في بلوك الزهراء» و«جزيرة خارك، درة الخليج اليتيمة». ودوّن كذلك ذكرياته خلال زياراته لروسيا ومكة المكرمة وفلسطين المحتلة (إسرائيل) فكانت أعمال «قشة في الميقات»، و«رحلة روسيا» و«السفر إلى ولاية عزرائيل». وكان له أيضا باع طويل في النقد الأدبي لم يُبقِ فيه على كبير أو صغير. وقد صدرت أعماله النقدية

في كتب «تقييم متسرع» و«ملف السنوات الثلاث» و«بئر وحفيرتان» و«ثلاث مقالات أخرى».

وفي مجال النقد الاجتماعي والسياسي والتاريخي كتب «نزعة التغريب» و«المستنيرون، خدمات وخيانات»، وجرّب قلمه في الترجمة أيضا فنقل إلى الفارسية «المقامر» لدوستوفسكي، و«الغريب» و«سوء فهم» لألبيركامو، و«العودة من الاتحاد السوفييتي» لأندريه جيد، و«الكركدن» لأوجين يونسكو. وامتدت نشاطاته لتشمل الحيز الصحافي أيضا فكان لفترة ما مديرا لمجلة «العلم والحياة»، وأصدر بعد ذلك عددين من مجلة «كيهان الشهرية».

كان لآل أحمد أسلوبه الخاص في الكتابة، ويمكن ملاحظة آثار هدايت في نتاجاته، إلا أنه كوّن لنفسه تدريجيا نثرا خاصا تميّز بالإيجاز والمرونة والصراحة. كما يمكن اعتبار آل أحمد عصارة التيارات التنويرية الإيرانية في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات حيث سجل حضورا فاعلا في العديد من هذه التيارات.

في خمسينيات القرن المنصرم، بعد تأميم النفط في إيران وتضعضع أركان السياسة الاستعمارية، وأفول نجم الهيمنة البريطانية وفتوحاتها العالمية، واستشراء نفوذ السياسة الأمريكية في المنطقة وعلى الرغم من كل ما خيّم بعد ذلك على المجتمع من أجواء القمع والإرهاب، إلا أن

المثقفين والقاصين لم يكفوا عن العمل والعطاء فأصدروا مجلات، منها «صدف» و«الفن والفكر» بما يتلاءم وأذواقهم وتوجهاتهم. وعبر هذه الصحف والمجلات انطلقت حركة جديدة ترنو إلى بلوغ قمم غير مسبوقة في عالم القصة، فكان أن ظهر في الساحة الأدبية كتاب جدد بنتاجات لافتة.

في سنة ١٩٥٥م صدرت للأديب تقي مدرسي روايته المعروفة «يكليا وتوحدها» الحائزة على جائزة «أفضل قصة» والتي حاول فيها كاتبها استلهام التقاليد السيريالية لتصوير الحب والعزلة الإنسانيين داخل مناخ أسطوري. لم تتمتع روايته هذه بمتانة تذكر من حيث لغتها والنثر المستخدم فيها، بيد أنها تركت تأثيرات جد عميقة في القصة الإيرانية إبان عقد الخمسينيات. ووضع مدرسي بعد ذلك رواية «شريف جان شريف جان» ١٩٦٥م التي عالج فيها تطورات مجتمعه من منظار طفل صغير. ولم تحقق هذه الرواية نجاحا لكاتبها. وجاءت رواية «الغائبون» ١٩٨٩م مجرد خلجات شخصية للمؤلف وهو يطل على تحولات بلاده بعد أعوام طوال قضاها في أميركا وزاول خلالها مهنة الطب. وتابع في «آداب الزيارة» ١٩٨٩م منهجه هذا من دون أن يضيف جديدا إلى عطائه اللغوي والنثري السابق.

جمال ميرصادقي قاص آخر بدأ الكتابة في هذا العقد، وأبدى منذ ذلك الحين ميولا راسخة إلى القصة القصيرة

فحقق في هذا المضمار قدرا ملحوظا من التوفيق، وكانت لغته صريحة وجزلة ومزحومة بإشارات دقيقة وتعابير عامية تعيد إلى الذهن الأسلوب المستخدم في قصص هدايت. سلّط ميرصادقي الضوء على جميع شرائح المجتمع وفصائله معالجا قضاياه بخياله وإبداعه، وعني بانحسار الثقافة التقليدية وتصاعد وتيرة الثقافة العصرية الجديدة في المجتمع المديني بطهران، فجعل هذه الظاهرة الشاملة محورا لطائفة من قصصه، وكان يمزج أحيانا بين العقل والعاطفة مزجا يفرز أعمالا قصصية على جانب ملحوظ من الإبداع.

استلهم ميرصادقي في رواياته تجاربه الشخصية بنحو غزير وكانت هذه الأعمال ذات طابع اجتماعي وسياسي غلب فيها على المضمون. وظهر موفقا في بناء شخصيات روايته «الغربان والبشر» التي يكابد بطلها شبهة انتمائه سابقا إلى أجهزة السافاك الأمنية.

وفي مجال التنظير القصصي، صدر له كتاب في مجلدين «القصة، القصة القصيرة، الرواية، والأدب القصصي». ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن ميرصادقي من القاصين المبدعين في إيران، إذ صبّ جلّ اهتماماته وجهده في حيز القصة، حتى إن بعض أعماله ترجمت إلى لغات عالمية.

ولد غلام حسين ساعدي في آذربيجان والتحق بعد دراسته الابتدائية والإعدادية بكلية الطب في جامعة طهران فتخرج

طبيبا نفسيا وزاول هذه المهنة في المناطق الجنوبية بالعاصمة، وأنتج أعمالا قصصية إلى جانب أعماله المسرحية، فصدرت له مجموعته القصصية «سهرة فاخرة» عام ١٩٦٠م استعرض فيها نمط الحياة الخاوية والرتيبة التي تعيشها طبقة الموظفين المتوسطة. وصدرت له أيضا «مآتم البيَل، مجموعة قصص مترابطة» سنة ١٩٦٥م، ومجموعته القصصية «دنديل» سنة ١٩٦٦م، و«هواجس غامضة» عام ١٩٦٧م، و«الخوف والقشعريرة» عام ١٩٦٨م، و«اللحد والمهد» سنة ١٩٧٧م. وألّف رواية بعنوان «المدفع» تطرق فيها إلى أيام الثورة الدستورية في إقليم آذربيجان، كما نشر «غريب في المدينة» عام ١٩٩٠م.

أبدع ساعدي في قصصه عوالم زاخرة بالأوهام والمخاوف والفزع، والمشاعر والأخيلة المختلطة والاستعارات والرموز، مستعينا على كل ذلك بالأسلوبين الواقعي والسوريالي المطعّم بالواقعية السحرية وبسرد نثري متقن ومتجانس يضرب بجذوره عميقا في تراكيب اللغة العامية واستخداماتها، فأنجز بذلك أعمالا كان لها نصيبها الوافر من الجد والتأثير والقيمة التغييرية. يمور في نتاجاته مناخ القمع والإرهاب وتتجسد فيها فضاءات مهولة ومفزعة يشوبها الترقب والانتظار صاغها الكاتب بأكثر القوالب تحررا، وكانت هذه الظاهرة انعكاسا للمناخ الاجتماعي . السياسي الذي ساد العصر البهلوي.

قاص آخر نافس هذه الأسماء هو بهرام صادقي الذي بدأ نشر قصصه القصيرة في مجلة «سُخن»، وكان طبيبا يمكن أن نلمح بصمات مهنته في نتاجاته الأدبية. انطلق في نشر قصصه منذ عام ١٩٥٦ وكان دوره في معظمها دور الراصد المحايد غير المكترث والذي يكتفي بتسجيل ملاحظات متعالية على الانفعال تتعلق بأحوال شخصياته وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم وتجليات واقعهم النفسي. تحيز صادقي في فنه القصصي إلى تشيخوف، لكنه كان يعتقد أنه تأثر بدوستوفسكي. عالمه القصصي عالم سيال خالٍ من الأفعال والانفعالات، ومتطابق مع الواقع إلى درجة كبيرة. اختار شخوص قصصه من بين الموظفين والمثقفين، وامتازت لغته النثرية بالبساطة والوضوح والجدة. كان قليل الكتابة، ويمكن القول عن أعماله إنها مركزة. صدرت له قصة طويلة باسم «الملكوت» (بتأثير من «البوم العمياء» لهدايت) ومجموعة قصصية باسم «الخندق وزمزميات فارغة». يشوب أسلوبه النثري لون من السخرية المُرة، وقد ابتعد في قصة «الملكوت» عن الواقعية ليطبعها بصبغة سوريالية. أضف إلى ذلك من خصائص قصصه الاستحالات التدريجية التي تمر بها الشخصيات على خلفيات هادئة خالية من الانفعالات العنيفة. وقد كانت هذه القصص مرآة تعكس أكبر مساحة ممكنة من واقع الطبقة المتوسطة في زمانه.

كانت الستينيات عقد تطورات سياسية واجتماعية واضحة ومؤثرة في إيران، وقد شهدت خلالها ظواهر جديدة في مضمار الكتابة القصصية أيضا، فازدادت أعداد المجلات والمطبوعات الأدبية، التي أولت اهتماما خاصا بفن القصة، ونقلت أعمال كثير من الكتاب الغربيين إلى الفارسية ونشرتها. وعالجت مجلات «سخن» (كلام) و«جهان نو» (العالم الجديد) و«بيام نوين» (الرسالة الحديثة) قضايا القصة باهتمام مميز وتعرّفت الأروقة الأدبية على قاصين جدد. وشجعت مجلة «فردوسي» مناقشة الظواهر والقضايا المعيشة في المجتمع فنشرت قصص ومشاريع الكتاب الواعدين. واتسمت هذه المجلة بأساليبها الترويجية الأدبية التي كان لها تأثيرها في تطوير فن القصة والكتابة الأدبية بصورة عامة، هذا من دون أن ننسى المسحة التجارية الشعبية التي شابتها.

تألقت القصة الإيرانية في الستينيات ببريق أكبر ونزل قاصون جدد إلى ساحتها، وهنا، ينبغي عدم تجاهل التأثير الذي تركه آل أحمد في الأدب القصصي خلال هذا العقد، فقد بادر أشخاص جدد إلى خوض غمار الكتابة القصصية على خلفية تراث من سبقوهم من الكتاب مثل جمال زاده، وهدايت، وعلوي، وآل أحمد، وجوبك وغيرهم. وكانت الطرق في تلك الفترة قد اتضحت معالمها إلى حد كبير وتم السير

فيها بخطى واثقة، كما تبينت المعايير والمبادئ والأصول المتبعة في الكتابة القصصية التي كانت بحاجة إلى وجوه وأقلام جديدة.

كان عقد الستينيات وبحق من أغنى عقود الكتابة القصصية في إيران. اشتهر في غضون تلك الفترة علي محمد أفغاني بإصداره رواية «زوج السيدة آهو» (١٩٦١م) التي أفصحت عن جوانب مهمة من العلاقات العائلية والأحوال العاطفية المترتبة عليها. وعلى الرغم مما اعترى الرواية من نواقص في النثر واللغة وبناء الشخصيات والحبكة القصصية إلا أنها أحرزت لقب «أفضل قصة» في تلك السنة وكرست اسم كاتبها في عالم القصة. ولعل من أبرز خصائص الكتابة القصصية للأفغاني نثرها الحكواتي الحافل بالمواعظ والحكم وبروز الراوي بمناسبة ومن دون مناسبة أثناء السرد واستخدام الكنايات والتعابير العامية.

كما نشر المعلم السابق في مدارس أصفهان هوشنك كلشيري رواية «شازده احتجاب» التي كتبها بأسلوب الانسيابية الذهنية مستلهما تاريخ الفترة القاجارية وإسقاطه على الزمن الذي عاصره. وقد كانت روايته هذه أشبه بقصيدة بليغة المعاني في رثاء العوائل الأرستقراطية التقليدية في إيران.

في سنة ١٩٧١ نشر كلشيري رواية «كريستين وكيد» التي صور فيها حب رجل إيراني لامرأة بريطانية. وصدرت له عام ١٩٧٥م مجموعته القصصية «مُصلاي الصغير» التي تضمنت عدة قصص بعنوان «المعصوم». وتابع بعد ذلك قصص «المعصومين» هذه فاستخدم في المعصوم الخامس (١٩٧٩م) نثرا قديما، مشددا على الجوانب الفنية والشكلية للقصة أكثر من المضمون. وفي المجلد الأول من روايته «الحمل الضائع» (١٩٧٧م) وظّف الأسطورة والرمز ليصور واقع الاغتراب الذاتي الذي يعيشه المستنيرون.

تميز كلشيري بذهنية وسرد قصصي معقد وصعب. وتمتاز قصصه بجمالية الشكل ومتانة البناء. حاول في «مكان الجبة» و«حديث الغول وصياد الأسماك» اكتشاف أنماط وأساليب نثرية جديدة لقصصه. وقد وجد أخيرا ما يصبو إليه من نثر جديد ومشذب خصوصا في آخر أعماله «المرايا ذات الأبواب». وضع كلشيري قصته الطويلة هذه من زوايا عدة أشخاص وبأسلوب القصص المتداخلة وكان موفقا في تطويع القوالب والمفاهيم وربطها مع بعضها البعض، وتعد هذه القصة رثاء آخر لهزيمة القوى اليسارية في إيران. نشر كلشيري قصصا قصيرة أخرى في المجلات أو على شكل مجاميع قصصية مستقلة، كما كتب سيناريو بعنوان «اثنا عشر وجها» (١٩٨٨م).

تأثر محمود دولت آبادي بالبيئة القروية التي انعكست تفاصيلها انعكاسا جليا في منجزه القصصي. كان عنوان قصته الأولى «الرجل» وقد صور فيها تحديات رجل قروي يعيش في مناخ مديني. ثم أصدر «طبقات الصحراء» (١٩٦٨) واشتهر بقصته الطويلة «آوسنه بابا سبحان» (١٩٦٨م) خصوصا حينما أخرج مسعود كيميائي فيلم «التراب» من وحيها، حيث لفت الفيلم الأنظار إلى القصة وكاتبها المبدع.

بلغت الواقعية الاجتماعية لدولت آبادي ذروتها في رواية «مكان سلوج الخالي» (١٩٧٩) واكتسبت أبعادا جديدة في رواية مرشحة لنيل جائزة نوبل للآداب وهي «كليدر» ذات المجلدات العشرة عبر مشاهد شاعرية واجتماعية رومانسية. امتازت «كليدر» بنثر متماسك جمع بين اللغة الأدبية واللهجة العامية لأهالي مدينة سبزوار في إقليم خراسان. روايته الأخرى «الزمان الماضي للمسنين» (١٩٩١)، كتبها بطريقة الانسيابية الذهنية، وعالج فيها أيضا قضايا القرية وسكانها.

كان لدولت آبادي دوره الكبير من خلال أعماله القصصية في تنمية نوع من الكتابة القصصية تختص بإيران ونواحيها المحلية. وقد جرب قلمه في الكتابة المسرحية أيضا فصدرت له مسرحيتا «الضيق» و«ققنوس». وكانت له أيضا أعمال في النقد الأدبي والسيرة الذاتية ومنها «المكانة العامة للفنون

والآداب المعاصرة» (١٩٧٤) و«الفنان بين الاضطرار والاختيار» (١٩٧٨)، و«نحن أيضا أناس» (١٩٨٩). وله كذلك «لقاء البلوش» ضمن أدب الرحلات كان حصيلة سفره إلى إقليم بلوشستان جنوب شرق إيران.

أحمد محمود كاتب من جنوب إيران نشر مجاميعه القصصية الأولى التي لم تحقق له شيئا من الشهرة، لكن بروايته العصية على النسيان «الجيران» (١٩٧٤م) كرس محمود مكانته كقاص متمكن من أدواته وفنه. وجنح في «الجيران» إلى الواقعية الاجتماعية، مستعرضا مشاهد من الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة في إيران من منظار صبي يافع (تتبلور شخصيته على امتداد الأحداث). وتميز بسرد نثري زاخر بالحركة والجاذبية كان له بالغ الأثر في التكوين الفني لروايته «الجيران». روايته الضخمة التالية «قصة مدينة» (١٩٧٩) تعد من حيث المضمون تتمة لرواية «الجيران»، وقد صور في روايته الجديدة كفاح البطل ونفيه وحيرته خلال مشواره الصعب في المناطق المحرومة جنوب إيران. وكانت له في ثنايا الرواية انتقالاته إلى التاريخ الإيراني المعاصر بواسطة أسلوب الانسياب الذهني حيث أعاد تشكيل الأحداث الساخنة التي أعقبت انقلاب عام ١٩٥٣م وإعدام الضباط الشيوعيين بطريقة قصصية.

«الأرض المحروقة» (١٩٨٢) روايته التالية التي تناولت تداعيات الحرب التي شنها النظام العراقي البائد على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وخلق من خلالها نموذجا من خواطر لها حيويتها وروحها المتوثبة. في مجموعته القصصية «اللقاء» (١٩٩٠م) عاد محمود لزيارة أهالي الجنوب الإيراني فتناول معاناتهم وحياتهم الغارقة في المحن. واستعان بزوايا نظر متعددة وأسبغ على قصصه مظاهر جديدة فبلغ مرتبة جد ممتازة في الكتابة. ومن آخر رواياته «مدار الصفر» التي صدرت في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٩٣م. امتازت قصص أحمد محمود بقصر العبارات وتموضعها المناسب واستخدام مفردات وكنايات والتفاتات شعبية مُصاغة بطريقة شائقة، وبنثرها الموجز الرصين.

القاص نادر إبراهيمي اتسمت كتاباته بالتنوع، واختار مضامين خيرة قصصه من إقليم «تركمن صحراء» شمال إيران حيث صور تقاليد وعادات التركمان بحذافيرها، على أن مضامين قصصه لم تتوقف عند هذا الحد انما اتسعت لتشمل الحياة المدنية أيضا. ومن أعماله يمكن الإشارة إلى «بيت الليل» (١٩٦٢)، و«الأماكن العامة» (١٩٦٦)، «المدينة التي أحببتها مرة أخرى» (١٩٧٠)، و«أسطورة المطر» (١٩٦٧). وصدرت له أعمال غير هذه آخرها روايته الضخمة في عدة أجزاء «ناربلا دخان» (١٩٩٣). وفي «ابن المشاغل» صور شخصية

رجل يعمل في مهن متعددة طلبا للرزق ولقمة العيش. وأعاد الكرة في «أبوالمشاغل». وإضافة إلى كتاباته القصصية عمل نادر إبراهيمي في الإخراج فكان له مسلسل تلفزيوني بعنوان «هامي وكامي» يتصل بقضية تربية الناشئة. ووضع عدة مسرحيات وسيناريوهات ومقالات في النقد الأدبي، بالإضافة إلى كتاب حول الحوار القصصي للأطفال.

السيدة سيمين دانشور استاذة الفن وعلم الجمال في الجامعات الإيرانية وزوجة الأديب الراحل جلال آل أحمد دخلت عالم القصة بإصدارها «النار المُطفأة» (١٩٤٨) التي ينبغي أن تعد من محاولاتها الأولى في مضمار الكتابة القصصية. إلا أن مجموعتها القصصية «مدينة كالجنة» (١٩٦١) بشرت بكاتبة سافر قلمها من طور التجربة إلى مرحلة النضج، وازداد هذا القلم نضجا في رواية «سووشون» (بوح النواح) عام (١٩٦٩) التي أضافت للأدب القصصي الإيراني عملا لا يبارح الذاكرة. صورت دانشور في هذه الرواية حياة عائلة شيرازية بكل ما لها من عادات وتقاليد وثقافة في ذروة الحرب العالمية الثانية. وصدرت لها في العام ١٩٧٩م مجموعة قصصية بعنوان «على من أُلقي التحية؟» عالجت فيها واقع المرأة الإيرانية كما سبق أن فعلت في «مدينة كالجنة». وقد عرضت في مجموعتها هذه ملامح المرأة الإيرانية وهي تقف قبال تحولات المجتمع. يعد الأسلوب النثري للسيدة دانشور

ناضجا وملاصقا للغة الدارجة عند الناس العاديين. روايتها الأخيرة «جزيرة الضياع» (١٩٩٣) ضبطت فيها طريقتها الكتابية وبلغت في ذلك شأوا مميزا. في هذه الرواية التي دخلتها الكاتبة نفسها باسمها وهويتها الحقيقية نطالع صورا للحياة الاجتماعية - السياسية عند أنماط وشرائح معينة من المجتمع في زمن ما قبل الثورة (لا سيما الشريحة الجامعية) وما عانته من فقر ثقافي وفكري.

قدمت دانشور في «جزيرة الضياع» مناخات حياتية حالكة وضاغطة، وصورت مراحل نضج الطبقة المتوسطة ومن ثم تراجعها وأفولها معتبرة كل ذلك جزيرة الضياع. ونقلت إلى الفارسية قصصا لقاصين من شتى بلدان العالم منها «الجندي الشوكولاتي» لبرنارد شو، و«الأعداء» و«حديقة الكرز» لتشيخوف، و«أنينك أيها الوطن» لآلن پيتون، و«وصمة العار» لناتانيل هاثورن، و«الكوميديا الإنسانية» لوليام ساروريان، و«مع الشمس» و«شهر عسل مشمس» لكتّاب وقاصين من مختلف أصقاع الأرض. وأصدرت بالاشتراك مع زوجها جلال آل أحمد «الأربعون ببغاء». وصدر لها كذلك في اختصاصها الأكاديمي (أي الفن) كتابا «دليل المشغولات الإيرانية» و«روائع السجاد الإيراني».

ولج إسماعيل فصيح دنيا الكتابة القصصية في عائلة آريان التي تكررت بعد ذلك في معظم قصصه وفيما يرتبط

بالأحداث المعاصرة. في سنة ١٩٦٥م أصدر رواية «النبيذ الخام» التي عكس فيها ضربا من القلق والاضطراب البوليسي. وكانت «توبة الأهل» (١٩٧٠) عمله القصصي الثاني مهد به لرواية «القلب الأعمى» (١٩٧٣) التي ناقش فيها ماهية القدرة الاقتصادية وتنامي طبقة التجار على أرضية التحولات الاجتماعية. من كتاباته الأخرى «لقاء في الهند» (١٩٧٤)، و«العقد وقصص أخرى» (١٩٧٨). اشتهر فصيح بروايته «ثريا في الإغماء» التي صور فيها واقع الإيرانيين المغتربين في الخارج من منظار عائلة آريان أيضا. وتطرق في روايته «شتاء ٨٤» إلى قضايا الحرب العراقية الإيرانية. من رواياته الأخرى «القصة الخالدة»، و«النسر وطيور البوم» (١٩٩٠)، و«آلام سياوش» (١٩٨٦) التي أبدى فيها خيالا ثرا متألقا. ومن أعماله الأخرى «رموز السهل المضطرب» و«مختارات قصصية» التي صدرت في العام ١٩٩٠. في «رموز السهل المضطرب» تطرق إلى تجاذبات المجتمع الإيراني خلف الخطوط الأمامية للحرب المفروضة.

وهنا لابد من الإشارة إلى كاتب تخصص في أدب الأطفال والأحداث، إلا أن حياته وكتاباته تركت بصماتها الواضحة على طائفة من القاصين الإيرانيين. إنه صمد بهرنكي المنتمي إلى إقليم آذربايجان الإيراني والذي زاول التعليم في قرى تلك النواحي. كان لكتاباته القصصية

منحاها التربوي، أي أنه وضع معظم قصصه لطلابه حتى يفتح أعينهم وآذانهم على مجريات الأحداث التي تحيط بهم. شُغف بهرنكي بالفلكلور والأدب المحلي الآذريايجاني واقتبس منه أغلب مضامين قصصه. وامتاز بنثر مبسط بعيد عن التكلف والتعقيد ممكن الفهم من قبل أغلبية الأطفال والأحداث. كتب بهرنكي قصة «السمكة الصغيرة السوداء» بأسلوب رمزي قصد منه تصوير الصمود الشجاع بوجه القوة والغطرسة والجور. وفي مجموعته القصصيه «تلخون» أيضا استلهم الأدب الشعبي العامي، وانحاز عموما إلى الواقعية الاجتماعية. وبالإضافة إلى الكتابة القصصية اهتم أيضا بالنقد الأدبي، فألف كتب «تنقيبات في القضايا التربوية بإيران» و«أساطير آذربيجان» في مجلدين، كما ترجم مجموعة قصصية لعزيز نسين بعنوان «نحن الحمير».
مات بهرنكي سنة ١٩٦٨م غرقا في نهر أرس شمال إيران.

ولا نذيع سرا إذا قلنا إن هناك العديد من كتاب القصة الذين ساهموا في اكتمال بانوراما الأدب القصصي الإيراني، لا يسنح المجال للتطرق إليهم وإلى أعمالهم في هذا الموجز، وعلى هذا الأساس نكتفي بالقول إن القصة الإيرانية كانت ومازالت تواكب أحداث المجتمع وهي العين الناظرة والعقل البصير، والتاريخ الحقيقي لآمال وآلام مجتمعنا، ونكتفي هنا بتعريب نماذج منها.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أعرب عن فائق تقديري واعتزازي للسيدات والسادة الأدباء الأفاضل الذين كان لهم الفضل في إنجاز هذا العمل والمساهمة في تعريبه وإبرازه بالمظهر اللائق وهم: حيدر نجف، جمال كاظم، د.أمل إبراهيم، ماجدة علي ذو الفقار، محمد الأمين، محمد جواد علي، قاسم المحمودي، علي رضا خواجه بور وياسر زنكنه. والشكر موصول للأمانة العامة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت لحرصها على التواصل الأدبي والفكري مع الحضارات العالمية والإنسانية.

المترجم

د. بهرام صادقي

Bahram Sadeqi

ولـد هـذا القـاص عـام ١٩٣٦ فـي مدينة نجـف آبـاد التابعة لمحافظـة أصفهان وأكمل دراسـته الثانويـة فيها. حط رحاله في طهـران ليـدرس فـي كليـة الطب ويتخـرج طبيبا. كتـب صادقي أشـهر قصصـه بين سـني العشـرين والثلاثـين من العمـر وتلكأ بعدهـا فـي الكتابة إلى أن اعتزلها. لم ينشـر هذا القاص سـوى كتابـين ومع هذا اعتبره النقاد أكبـر كاتب قصة قصيرة وصاحب أسلوب قصصي مميز في إيران.

تتميز قصص هذا الكاتب بالطابع النفساني وتعالج مواضيع تخص الحالات الروحية للإنسان المعاصر المنفي إلى جسد المدن الصاخبـة. توفي صادقي في العـام ١٩٨٢ وهو لم يتجاوز الثامنة والأربعـين من العمر. عنوان كتابيـه هما الملكوت(رواية) و«المواقع والزمزميات العطشى».

المصور

شيء غير مرئي يشبه اليد، لا أراه إلا أني أحس به وأدركه، يدفعني ذات اليمين وذات الشمال.

انظــر إليّ، ارفع رأســك قليلا، ارخ حاجبيك، ابتســم، وجّه نظراتك إلى عدســة الكاميرا. ســأعدّ إلى الرقــم ثلاثة، انتبه، لاتتحرك كي لا تشوه الصورة، جاهز؛ واحد، اثنين، ثلاثة...

بعد ليلتين، كان يرتقي ســلالم الأستوديو كي يتسلم صورته. ممســكا بيده الوصل الذي تســلمه من المصــور. تذكر كيف أن المصور سأله قبل ليلتين:

- اسم جنابك؟

فذكر له اسمه.

- القياس الطبيعي٤ في٦، وهل تلزمك صورة بقياس بطاقات المعايدة؟

فأجابه:

- واحدة... كنموذج.

- إذن غدا مساء ستكون جاهزة... الساعة الثامنة.

وقبــل أن يفتح الباب نظر إلى ســاعته، كانت تشــير إلى أن الوقت تجاوز الثامنة، تمتم في نفسه:

- الآن ستكون جاهزة حتما.

مساعد المصور الذي كان جالســا خلف طاولة المكتب، وقف مرحبا به. وبعد أن رد على ســلامه جلس على أحد الكراســي ونظر إلى العامل الذي لا يعرفه، ثم قال:

- يبدوا أنه غير موجود؟
- كلا، كلا.. كان هنا قبل قليل.
- هذا الوصل...

أخرج الوصل من جيبه ووضعه على الطاولة، نظر مساعد المصور إلى الوصل وهزّ رأسه باحترام قائلا: بالضبط يا سيدي، إن موعدك الليلة... ولكن عليك أن تنتظر قليلا، سيعود قريبا.

أراد أن يجيبه «وراءنا عمل ومشاغل الحياة» غير أنه اكتفى بالقول «عمل ومشاغل الحياة» ثم استرخى على الكرسي. كان العامل يدرك أنه ترك عمله وحياته ليأتي ويستلم الصورة وقد انزعج حينما رأى أن المصور غير موجود. ليس في يده حيلة وليس أمامه سوى أن يشغل نفسه بتصفح الألبوم الملقى أمامه... ثم سأل المساعد:

- ألا يأتي؟
- لماذا، سوف يأتي؟ الساعة...

بعد ذلك التفت لمشاهدة الصور المعلقة على الحائط.

بعد مرور ربع الساعة، وصل المصور والذي بدأ بالحديث ولمّا يصل:

- أهلا وسهلا، مرحبا بك يا سيدي.

ثم وجه كلامه إلى معاونه:

- هل وصل السيد منذ وقت بعيد؟ ثم قال له ستستلم صورك حالا.

نهض المصور من كرسيه وتوجّه نحو الطاولة واضعا يديه على

حافتها. أخرج المصور الصور من ورشته.

- هذه الصور أليست كذلك؟ نعم هي بذاتها.

مدّ يده وأخذ الصور. لاحظها قليلا وقال:

- ليست هي. لقد أخطأت.

- كيف؟ ماذا تفضلت؟!

- لقد أخطأت، فأنا من دون شارب، وصاحب هذه الصور بشارب... كما أنني لا أضع قبعة على رأسي.

تناول المصور الصور بسرعة، نظر إليها بتمعن ثم نظر إلى الرجل وقال:

- عجيب... ولكنه يشبهك تماما.

- يشبه؟! يشبه؟! ماذا بمقدوري أن أقول؟! إنه أمر لا يمكنني أن أفهمه.

انتابت المصور الحيرة برهة من الوقت، وكان معاونه قد ترك المكان منذ مدة، (فلم يكن يدري ما عليه أن يعمله، فوجد أن من الأفضل له الخروج). دخل المصور الورشة ثم أخرج حزمة من الصور. نثرها على الطاولة وخلال بحثه كان يتمتم:

- ليست هذه.

إنها صورة بنت.

- وهذه كذلك. ليست هي.

فهي تعود لامرأة.

وهذه أيضا. لأنها تعود لطفل.

- هذه؟

نظر إلى الصورة. ثم نظر اليه:

- هذه تشبهك جدا. إلا أنه ليس لديه شارب...

اقترب منه ثم قال:

- دعني أر... ليس لديه قبعة...

ثم أضاف: «يشبهك جدا» ماذا يعني ذلك؟ كيف لي أن أعرف أن هـــذه الصورة تعود لي؟ فإني لا أرى وجهي ولا أذكر كيف هو. ألا تملكـون ترتيبا ونظاما كي لا تختلــط الصور مع بعضها؟ ألا تضعون أرقاما عليها؟

- نعم... نحـــن نضع أرقاما لها، ولدينـــا نظام وترتيب ولكن ما الذي بوســعنا عمله مع المبتدئين. فمعاوني سبّب لي كل هذه الإشــكالات، فقد خلط الصور مـــع بعضها. فمثلا لاحظ، توجد ثلاث مجاميع من الصور تحمل رقم وصلك. يالحظي السيئ؛ في نهايـــة عمري يكون نصيبي مثل هذا المعاون، كأنه قادم من خلف الجبال... لا يتعلم ولا يستوعب الأمور بيسر.

- ولكن ما مصيري؟ وإلى متى عليّ البقاء هنا أيها المصور؟

بحث المصور مجددا في مجاميع الصور المتناثرة أمامه.

- وهـــذه أيضـــا ليســـت صورك. هـــي صورة لأحـــد الأبنية التاريخية.

- آه... إنها هي بعينها.

وبعد أن التقط الصورة منه قال:

- كيف تقول إنها هي؟ لا يوجد شيء فيها يشبهني. هل كانت سترتي بهذا الشكل؟

وبعد أن نفد صبره جلس المصور ثم قال:

- لـــم يعد الأمر يتعلق بنا، قد تكون هذه ملابســك هي التي جئت بها إلينا قبل يومين، واليوم ارتديت غيرها.

- مستحيل.

نهض المصور من جديد. وبعد أن رفع كتفيه قال:

- لم يعد لدينا صور أخرى غيرها، فهي إحدى هذه الصور...

- أمـــا الزبون فـــكان يواصل الضغط على أســـنانه. وبعد أن هدأ قليلا. قال: إنها ليســـت صورتي. عددها ٦ وحجمها ٤ في ٦ ومعها صورة بحجم بطاقة معايدة. لقد تســـلمت ثمنها وعليك أن تسلمها لي.

أما المصور فقد وضع أمامه ثلاث مجاميع من الصور.

- إنها لك يا ســـيدي، هدية لك، ولا داعي للغضب. والله أنا نفسي لم أعد أفهم ما يجري. فالأشكال الثلاثة تعود لك، الأولى بالشـــارب والقبعة والثانية بالشارب بلا قبعة والثالثة بلا شارب ولا قبعة. فانتخب منها ما تحب.

- ما أحب؟ وما علاقة الحب؟ أيها السيد المحترم؛ أيها المصور إما إنك قد فقدت عقلك أو أنك تسخر مني ألا تعمل من أجل أن تعيش، ألم يكن لديك زبائن؟ ألا تريد أن يكون لك شغل وحياة؟ قل لي بربك؛ في أي مكان من هذا العالم عندما يذهب المرء لتسلم صوره، يضعون أمامه ثلاثة أنواع من الصور، ويســـخرون منه بالقـــول؛ إنها جميعها تعـــود له وعليه أن يختار ما يحب؟ قبل يومين التقطت لي صورة، هل كنت أعمى؟ لم يكن لي شارب ولا قبعة ولم تكن سترتي بهذا الشكل.

طفح الكيل بالمصور، بدأ يفرك يديه وحاول أن يضبط أعصابه وأجاب بهدوء وتأن:

- هذا صحيح تماما. كلام منطقي أتفق معك تماما. أقسم لك بأن كل ذلك سببه المعاون المخرف الأحمق الذي خلط الأرقام، وإلا كنت قد سلمتك الصور من دون أي تأخير ومن دون الحاجة إلى كل هذا الجدال ولكنني في الوقت ذاته متعجب من أمر هذه الصور الثلاث التي تشبهك تماما. كأنها أنت نفسك. ولم أعد أعرف هل تعود لك، أم إلى شخص آخر يشبهك... ولا أدري أين صورتك الأصلية.. أين تكون... ولكن كيف لك ألا تميّز ملامحك؟

- وهل تميّزها أنت حتى أميّزها أنا؟

- لم لا أميّز؟! بمقدورك أن تعرض علي أي صورة لي لأي زمان كان، سأقول لك فورا إن كانت تعود لي، أم لا... أنا مستغرب..

- أنت مستغرب؟ وهل من الضروري أن يميّز الناس جميعا صورهم؟ أنت مصور وهذا عملك. أي دجاجة يمكنها أن تميّز بيضها؟ هكذا يخدعون الناس... يشغلونهم لعدة أيام ويعطلونهم عن أعمالهم وشؤون حياتهم، بعدها يجيبون عليهم بمثل هذه الإجابات.

كاد المصور أن يجهش بالبكاء. أخرج مرآة من جيبه وقدمها له قائلا:

- هذا العمل ليس صعبا. انظر، انظر هل تشبه الصور، أم لا؟

أمسك المرآة ونظر فيها، وهو ممسك بالمرآة جلس على الكرسي وبدأ يتمتم بمرارة.

فجأة أعاد المرآة إلى المصور ثم أمسك رأسه بيديه ضاغطا عليه.

سأل المصور بهدوء:

- أرأيت؟

نهض وتقدم من الطاولـــة، تناول الصور بيديه ونظر إليها ثم أعطاها للمصور.

قال المصور:

إن جلست قليلا فسيأتي أصحاب الصور جميعهم. ولن يكون الأمر سيئا إن تعرفت على من يحمل ملامحك ذاتها.

ذهب نحو الباب قائلا:

- كل هـــذا احتيال، أي صورة هذه! الصور لاتعود لي ولا أحد يدري ما الـــذي حل بصوري الحقيقية. من المحتمل ألا يكون قد التقـــط لي صورة أصلا. ويالبؤســـكم على مثل هذه الصور التي تلتقطونها. وبعد أن أصبح خارج الأستوديو كان المصور يدور في الغرفة كالمجانين.

يا إلهي، ســـيدفعني ذلك إلى الجنون، كيف لم يعرف نفســـه؟ وكيف أن الصور كانت جميعها تشـــبهه؟ كنت على وشك أن أرمي بنفسي من النافذة إلى الأسفل.

دخل معاونه.

- هـــل أخذ الرجل صوره؟ لقد شـــاهدته يدخل الأســـتوديو المجاور.

إسماعيل فصيح
Esmaeel Fasih

ولد القاص والروائي والمترجم إسماعيل فصيح في العام ١٩٣٤ في العاصمة طهران. أكمل دراسته الجامعية وتوظف في قسم التعليم بالشركة الوطنية للنفط. أحيل على التقاعد بعد حوالي عقدين من العمل في جنوب البلاد. كتب رواياته التي تدور أحداثها في أزقة طهران العاصمة التي عاش طفولته فيها وقد تأثر أيضا بأجواء الجنوب الإيراني الذي كان يعمل ويعيش فيه. مع اشتعال فتيل الحرب العراقية - الإيرانية عاد إلى طهران وسكن فيها إلى أن وافاه الأجل في ٢٠٠٩.

أصدر هذا الكاتب الذي يعتبر من الأسماء المقروءة في المجتمع الإيراني روايات ومجاميع قصصية ترجم بعضها إلى اللغات العالمية ومنها العربية. من أعماله «الخمر الذي لم يختمر»، و«قصة جاويد»، و«ثريا في الإغماء»، و«آلام سياوش»، و«شتاء ٨٣».

إعانة

اعترض طريقها الحارس الصغير الذي كان يقف عندالباب: إلى أين تريدين الذهاب أيتها الحاجّة؟

قالت المرأة: «أريد أن ألتقي الحاج سنجري». كانت ذات لهجة خفيفة أصفهانية أو ربما لهجة أهالي مدينة قمشة (ضواحي اصفهان).

«هل حددت موعدا من قبل لهذا اللقاء؟».

نعم، لقد اتصلت هاتفيا أمس واليوم أيضا، وحدد لي الأخ السكرتير الموعد في تمام العاشرة صباحا.

كانت المرأة شابة في الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر وكانت ترتدي تحت العباءة السوداء خمارا يحجب شعر رأسها بشكل تام، ولكن من تحت عباءتها كان يظهر أنفها الجميل وعيناها البنيتان الهادئتان وسط وجهها الأبيض الممتلئ.

من دون أن يلقي عليها نظرة ثانية، قال لها الحارس الشاب: تفضلي أختي المحترمة، بعد أن تصعدي ذاك الدرج خذي الجانب الأيسر.

قطعت المرأة الشابة الباحة الكبيرة نسبيا بخطى قصيرة وبهدوء وتأن، كانت تنتعل حذاء مهترئا وترتدي جوارب سوداء. مكثت عند بداية السلم وألقت نظرة إلى الأعلى ثم تنهدت.

نظرت إلى الناس المراجعين القلائل الذين كانوا يتنقلون إلى هذا الجانب وذاك.

همهمت في نفسها: «يا الله» وصعدت السلالم، كان قلبها يخفق بشدة، إذ إن الأمر الذي جاءت من أجله والعمل الذي كانت تريد أن تعمله يتطلبان الشجاعة. سارت نحو المكتب بهدوء وفتحت الباب.

كانت الغرفة المخصصة لمسؤول مكتب الحاج في منتهى البساطة وشبه فارغة، إلا من طاولة وهاتف وكرسي أو كرسيين، وصورة صغيرة للإمام الخميني نصبت على الجدار إلى جوار أربعة أو خمسة بوسترات للشهداء والمعاقين، وهي بوسترات يمكن مشاهدتها على كل جدران البناية، ولكنها تبدو هنا كأنها جزء أساسي من البناء.

شاب نحيف بلحية خفيفة ومسرحة كان جالسا خلف الطاولة، رفع رأسه وألقى نظرة على المرأة التي دخلت للتو قائلا:

- نعم أختي، ما قضيتك؟

قالت المرأة: أنا زوجة السيد عباس حسيني، لقد اتصلت هاتفيا وحصلت على موعد للقاء الحاج.

- ما الموضوع الذي تريدين متابعته وفقك الله وأيدك؟

- لي موضوع يتعلق بزوجي المرحوم.

- السيدة حسيني، أرجو أن تطرحي عليّ الموضوع، صحيح أن السيد وافق على موعد اللقاء ولكن ليس لديه الكثير من الوقت، وصحته ليست على ما يرام، لذا ربما استطعت أن أساعدك في الموضوع الذي جئت من أجله، وبذلك لا نأخذ أوقات الحاج.

- إن لم يكن في الأمر ازعاج فأرجوك أن تسمح بعرض قضيتي على السيد مباشرة وسيجزيك الله خير الجزاء، فالموضوع مهم

لي ولأطفالي، جزاك الله خيرا.

رتبت عباءتها وفي الوقت نفسه أظهرت جسدها الصغير لكن الممتلئ وقد ارتدت ثوبا طويلا وجوربا أسود لتظهر أنها لا تحمل أسلحة وغير متحايلة، إلا أن مسؤول المكتب لم يلق نظرة عليها، نهض من مكانه وفتح بابا، ثم دخل إلى الغرفة المجاورة وعاد إلى المرأة الشابة بعد لحظات قائلا لها:

– تفضلي يا أختاه، لقد وافق الحاج على لقائك وفقك الله، لا تتأخري كثيرا رجاء.

– بكل سرور، بارك الله فيك يا أخي.

نزعت نعليها ودخلت الغرفة. كانت غرفة كبيرة تتوسطها سجادة تبريزية كبيرة لا تبدو ثمينة، عند الحائط يتكئ الحاج على وسادة قديمة باهتة الألوان، وكانت خلفه وسادتان وإلى جواره جهاز هاتف أخضر وعدد من الكتب. ألقت المرأة التحية الحارة وجلست على الأرض قريبا من الباب ومقابل الجدار.

جميع أهالي الحي يعرفون الحاج سنجري، من سكان الشوارع الجنوبية لساحة قزوين إلى ساحة الجمارك وأهالي شارع مولوي وشارع نواب صفوي، ويعرفون أنه صار مؤخرا مسؤولا مؤقتا لمكتب «إعانات ومساعدات الحرب المفروضة» لجنوب طهران، وهو من رجال الدين القدماء والمعروفين في المنطقة. يقع منزله البسيط والمتواضع على بعد مسافة من المكتب، أي في زقاق الحاج عبد المحمود، وقد وافق على قبول هذه الوظيفة برجاء ونيابة عن أحد رجال الدين ممن لديهم مسؤوليات عديدة حاليا والذي ذهب الآن إلى مكة المكرمة.

والحاج سنجري في الخمسين من عمره، ذو وجه أبيض ونظيف ولحية بيضاء قصيرة، له إيقاع بطيء يدل على الوقار، ومنذ سنوات وهو يقدم لأهالي الحي خدمات اجتماعية مثل قراءة عقد الزواج وقراءة المراثي والتعازي الحسينية ومجالس التأبين وما شابه ذلك من أعمال يلبيها استجابة لدعوة أهالي الحي.. وأيضا كان الحاج سنجري يلبي طلبات الناس إن سنحت الفرصة له.

على الرغم من ميله الشديد إلى العزلة والوحدة، إلا أنه يتمتع بشخصية قوية. حياته أقرب إلى حياة الدراويش، ويحب المزاح والبساطة من جهة،كان يعتبر طيبا ورحيما وأمينا. كان رجلا هادئا يواصل قطع المسافات مشيا على الأقدام. كان مثابرا على المطالعة ومثل أغلب عشاق المطالعة في إيران يحب العرفان والتصوف ومن المعجبين بقصائد الشاعر الشهير حافظ الشيرازي، وكان ينظم الغزل بين حين وآخر في العشق وصفاء المحبوب ويقرأه على الآخرين، كما أنه اختار عمل وحياة علماء الدين من باب الحفاظ على مسيرة والده في تحصيل العلوم الدينية، إذ كان والده من كبار الشخصيات الدينية ومن أصحاب العلماء المعروفين للثورة الدستورية. ولأن سنجري كان من العنصر التبريزي التركي فكان أبيض وأحمر اللون ونشيطا ومن المحبين للملذات المشروعة في الحياة.

ان الإشراف على مكتب التعبئة (*) في المحلة التابع للجنة إسناد الدفاع المقدس هو إحدى وظائف الحاج هاشم سنجري.

(*) التعبئة: قوات ميليشيا شعبية كان لها الدور الكبير في الدفاع عن المدن الإيرانية إبان الحرب التي شنها نظام صدام حسين ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية في العام ١٩٨٠.

وهي مسؤولية كبيرة ومرهقة، إذ كان الحاج يستقبل المراجعين وكان يشتغل في مكتب التعبئة وتسلم الإعانات حوالي مائة وخمسين موظفا يتقاضون الرواتب، والعديد منهم يحمل شهادة البكالوريوس في الإدارة والمحاسبة. لم يكن الحاج سنجري بارعا في مجال الاقتصاد والأمور المالية، مع ذلك كان عليه أن يصادق على كشوفات الحسابات المالية بشكل يومي، وأن يوقع على جميع الوثائق المالية، وهي إما تحفظ في خزانة حديدية في المكتب أو ترسل إلى البنك. لم ترق هذه الأعمال الأخيرة كثيرا لسنجري وكان يدعو الله أن يعود صديقه رجل الدين الذي سافر إلى الحج بسرعة وأن يعود هو إلى عالمه بين الكتب والحياة الصوفية التي ألفها وأعتاد عليها وأحيانا قراءة التعزية والتأبين أو مراسم عقد الزواج.

رفع رأسه من الكتاب، بعد ثوان من تحية المرأة التي وفدت إلى الغرفة للتو، ألقى عليها نظرة سريعة، رد على تحيتها وقال لها: ما الغرض من مراجعتك، أختي المحترمة؟

سعلت المرأة وسلمت واستجمعت قواها وقالت متأوهة: ما جئت من أجله ليس قضية واحدة، أو قضيتين سيدي، ولكن عليّ ألا آخذ الكثير من وقتكم، وأنتم مشغولون بأمور مهمة عديدة وليس من الإنصاف أن أضيف عليكم ما يتعبكم.

قال الحاج سنجري: تفضلي واطرحي قضيتك، أخبرني السيد أكبري أن الأمر يتعلق بزوجك المرحوم.

- نعم سيدي، في الحقيقة أنا زوجة المتوفى السيد عباس حسيني الذي فارق الحياة قبل ثلاثة أشهر، وقد قام أخوه السيد

ماشاء الله حسيني بالتبرع بإرث زوجي السيد عباس والبالغ مائة وخمسة عشر ألف تومان للتعبئة والإعانات، وهو يقول إنما فعل ذلك تنفيذا لوصية زوجي السيد عباس، والحقيقة هي أن زوجي المرحوم لم يترك وصية كهذه أبدا، ولا يمكن أن يترك مثل هذه الوصية مع وجود زوجة شابة مستحقة للمساعدة بسبب وضعها المالي الصعب مع وجود طفلين يتيمين.

- أين كان يقيم زوجك يا أختي وما كانت مهنته؟

- زوجي المرحوم كان بائعا متجولا، وغالبا ما كان يعرض بضاعته إلى جوار محل الحاج يد الله لبيع الخضراوات، وكان يبيع السجائر والعلكة والقرطاسيات وأشياء من هذا القبيل، كان رجلا متدينا، مواظبا على أداء الصلاة. كان جوهرة. بعد وفاته أخبرنا أخوه السيد ماشاء الله أنه أوصى بأن تعطى أمواله كلها للمسجد وتعبئة المستضعفين، وليتوفاه الله برحمته الواسعة كان يجب أن يساعد مجاهدي الجبهة وكان يحترم المقدسات، ولكن ماذا بالنسبة لزوجته وطفليها، هل يرضى الله أن يذهب إرثه لغيرهم وهم في أشد الحاجة إليه، هل من المعقول أن يعيش ابناه بلا ملابس وبلا طعام ويذهبان إلى المدرسة وهما في حالة يرثى لها؟ هل عليّ أن أستجدي، وأن أراجع رجال دين محترمين وأزعجهم لأطلب المساعدة؟ لا أعرف إن كان ما فعله زوجي صحيحا وإن كان يوافق الشرع؟! أنا لا ألوم أخاه على التبرع بالأموال لمكتبكم، ولا أرغب في أن آخذ من وقتكم الثمين، ولكن أقول إن في الدنيا مثلما في الآخرة حسابا للأمور.

قال الحاج سنجري: مهلا يا أختي المحترمة، ثم رجّع عمامته قليلا إلى الوراء فظهر بعض شعر رأسه الرمادي الكثيف وقال لها: احكي لي الحكاية من جديد. هل تريدين أن تقولي إن حماك قد تبرع للتعبئة بمائة وخمسة عشر ألف تومان وترككم أنت وطفلين في المدرسة من دون مرتب يومي؟

فجأة أجهشت المرأة بالبكاء، ورتبت عباءتها ومسحت بطرفها دموعها. لم يطق الحاج سنجري منظر امرأة متحجبة بعباءة سوداء وهي تهتز إثر البكاء في مكتبه. رفع سماعة الهاتف وضغط على أحد الأزرار. بعد ثوان حضر مسؤول مكتبه فقال له: رجاء يا سيد أكبري أحضر ملف زوج هذه السيدة وإعانة حماها. راجعوا الملفات جيدا، وحاولوا أن تحضروا لي كل وثيقة لها علاقة بالأمر. يهمني أن أعرف التفاصيل، متى تم التبرع وكيف تم ومن وافق على الاستلام؟

قال السيد أكبري: نعم، يا سيدي الحاج. ثم طرح على المرأة الشابة أسئلة بخصوص الاسم الأول واسم العائلة وتاريخ الإعانة ومبلغها ثم خرج لمتابعة الملف وخلفيته.

قال الحاج سنجري للمرأة: عذرا يا أختي، أين تسكنين الآن؟ وما هي مهنتك؟

قالت المرأة: مازلنا نعيش مستأجرين في غرفة صغيرة، وقد تأخرنا خمسة أشهر عن دفع الإيجار، وإن أحد أطفالي ترك الدراسة وابنتي الصغيرة عمرها ستة أعوام وهي مصابة منذ فترة بالأنفلونزا وقد أخذت من جارتي السيدة صديقة عدة حبات أسبرين وحبة لوجع البلعوم.

صارت تنظر باطمئنان إلى عيني الحاج سنجري مباشرة.
سألها الحاج سنجري: كم عمر ابنك وماذا يعمل؟
- سبعة أعوام، وأنا عمري ثلاثة وثلاثين عاما.
رجعت ونظرت إلى الحاج ورتبت عباءتها من جديد وأضافت: ذات يوم رأيت ابني جالسا في بداية الزقاق ويستجدي من المارة، أردت أن أضربه. صحيح أن الظروف في هذه الأيام صعبة وأن أبناء الناس يستشهدون ويصابون بالإعاقة، ولكن ما ذنب طفليّ الصغيرين؟ أقسم لك ياسيدي أن عائلتي من العوائل المحترمة في مدينة نجف آباد(*)
، وإن سوء الحظ هو الذي جرنا للعيش في هذه المدينة.
وحينما كان الحاج سنجري مطأطأ برأسه ومنشغلا بالتسبيح، انقبض قلبه. نظر إلى المرأة الشابة بطرف عينه وقال: نعم أعلم يا ابنتي العزيزة، فحافظ الشيرازي يقول: لم نأت إلى هذا الباب طلبا للجاه والمقام، إنما بسبب سوء الحادثة التجأنا إلى هنا.لا تقلقي بمشيئة الله سوف تتحسن الأمور.
رفعت المرأة رأسها وقالت بتأوه: أنت إنسان طيب وطاهر ونزيه، أنت إنسان ذو مشاعر، و تتفهم ظروفي فيك الخير والبركة، تمنيت أن أكون مكسورة الساقين ولم آت لأشغلك عن مطالعتك واستراحتك».
قال الحاج سنجري: لا تغتمي يابنتي، فسوف نضع حدا لقضيتك، وتكون الأمور على أحسن ما يرام.
دخل السيد أكبري الغرفة حاملا ملفا سميكا وجلس إلى جوار الحاج سنجري. وصار يتحدث معه بصوت منخفض.

(*) مدينة نجف آباد، من المدن الصغيرة التي تقع في محافظة أصفهان.

وبعد أن ورّق عدة صفحات، أكد أن السيد ماشاء الله حسيني الذي يعمل عاملا في مخبز يقع في بداية زقاق ميرزائي وهو أخو المرحوم عباس حسيني قد جاء إلى مكتب التعبئة قبل ستة شهور وتبرع بإرث أخيه المتوفى السيد عباس حسيني لمكتب تعبئة المحلة طبقا لوصية المرحوم، بمبلغ مقداره مائة وخمسة عشر ألف ومائتان وخمس وسبعون تومانا وقد تم تسلم المبلغ عبر حوالة مصرفية تم تأييد صحتها. لم تكن تسمع المرأة كل حديثهما، ولكنها فهمت محاور الحديث إجمالا، اطمأنت قليلا من دون أن تنخفض سرعة دقات قلبها، وأثناء حوار الرجلين رفعت رأسها قليلا وألقت نظرة على أرجاء الغرفة. في انتهاء الغرفة كان هناك باب يفتح على غرفة نوم تضم سريرا ربما كان مخصصا لأوقات استراحة السيد سنجري. جلست المرأة الشابة مشوشة البال.

قبل أن يعود السيد أكبري إلى مكتبه، سأله السيد سنجري بصوت منخفض: هل هناك مبالغ نقدية بمقدار كاف في الخزانة؟ وأجاب أكبري بإيماءة مفهومة بالإيجاب.

قالت المرأة: اعذرني سيدي فلم أجلب بطاقة الأحوال المدنية معي، في الحقيقة قدمتها لإدارة النفوس لتغيير الصورة ولم يعيدوها إليّ بعد.

قال الحاج سنجري: لا أهمية لذلك، أعانك الله.

تنفست المرأة الصعداء وقالت: جزاكم الله خيرا آلاف المرات. أنت رجل صالح تتفهم ظروف النساء، ليس جميع الرجال يدركون قضايا النساء، خصوصا قضايا النساء الشابات الأرامل

الوحيـــدات. فلا رجل يعيلهن، فليشـــملهن الله ســـبحانه وتعالى بلطفه ورحمته.

ومسحت عينيها بمنديل صغير. على الرغم من ارتدائها ثوبا أســـود اللون ذا أكمام طويلة فقد تراءت يدها البيضاء المكتنزة. نظر الحاج ســـنجري إلى الســـاعة الجدارية وكانت تشـــير إلى الحادية عشـــرة إلا الربع، قال لها: لا تغتمي يابنتي، سوف تزول جميع المشـــاكل، أنا أعرف حماك الســـيد ماشـــاء الله، إنه رجل مؤمن ومطيع لله، وقد قام بهذا العمل بدافع الإيمان والإخلاص، ووفاء لروح أخيه المرحوم والتزاما بوصيته، ولكن أنت أولى بهذه الأمـــوال يبدو أنه لا توجد وصية خطية ولا ينبغي أن يحتفظ بها هنـــا. فقد قالت الحكمة إن المصبـــاح الذي يحتاجه البيت يحرم التبرع به للجامع، لقد أمرت بتسديد المبلغ لك وعندما تتسلمينه أعطي وصلا.

قالت المرأة: أرجو من الله أن يوفقك دائما. أنت رجل شـــهم، ليتني كنت أســـتطيع أن أقبل يدكـــم، أن أقبل قدمكم. لا أعرف كيف أعبر عن شكري لكم على كل هذا اللطف، أرجو أن يتفضل الله عليكم بالخير. قد أزعجتكم في أوقات استراحتكم.

في ذلك المســـاء، وبين صلاتي المغرب والعشـــاء، عندما كان الحاج ســـنجري منشـــغلا بقـــراءة الأدعية في زاويـــة من زوايا المســـجد، فجأة رأى ماشاء الله عامل المخبز فناداه. تقدم ماشاء الله خان بجسمه النحيف وقامته المحدودبة نحو الحاج سنجري ثم أمسك بيد الحاج سنجري وقبلها ووضعها على جبينه من باب الاحترام، ثم جلس القرفصاء مقابل الحاج سنجري.

قال الحاج سـنجري: اليوم جاءت زوجـة أخيك المرحوم إلى المكتب من أجل قضية مؤلمة.

قال ماشاء الله مستغربا: ماذا؟!

قال الحاج سنجري: على الرغم من التزامك الديني واحترامك لروح أخيك المرحوم، ما كان عليك أن تترك زوجته وأطفالها من دون تخصيص مبلغ لإمرار المعيشة.

قال ماشـاء الله: ولكن يا سـيدي الفاضل لقد أوصاني أخي وبحضور عدد من الناس... ولكن...

قال الحاج سـنجري رافعا يده: فليتغمد الله سبحانه وتعالى جميـع الموتـى برحمته الواسـعة. ولكن كما تقـول الحكمة «إن المصبـاح الذي يحتاجه البيـت، يحرم التبرع بـه للجامع». لقد أمـرت بإعطاء مبلغ الإرث لأرملته المسـكينة كي تسـيّر أمورها وأمور أطفالها، وبهذا نأمل أن نكسب رضا الله.

شحب وجه ماشاء الله أكثر فأكثر، وكأن شخصا ما قد رفسه على رأسـه من الخلف، قال: هل قلت إن زوجته هي التي جاءت إلى مكتبك، هل قلت إن زوجته...؟

نعـم ولا أريد أن تتحدث في هـذا الخصوص أصلا، فالأمر قد انتهى.

أراد ماشـاء الله أن يكشـف الحقيقة ويصـرخ بأعلى صوته ويخبر السيد أن أخاه لم يكن قد تزوج قط، لكن الحاج سنجري رفع يده ليواصل التسـبيح. في هذه الأثناء ارتفع صوت المؤذن: قد قامت الصلاة.

حسن فرهنكي
Hasan Farhangi

ولد القاص والروائي حسن فرهنكي عام ١٩٧٠ في مدينة تبريز (شمال غرب إيران) ونشر باكورة أعماله الروائية وهو في التاسعة عشرة من عمره. انتقل في ١٩٩٣ إلى العاصمة طهران وبعد مدة وجيزة أثمرت جهوده في تأسيس بيت القصة الإيراني. من رواياته المطبوعة «النساء يضحكن مثل بعض» و«ليلى ذريعة الاضطرار» و«الكاتب لا يموت يمثل» و«مذكرات حب متسول» وقد حصلت بعض رواياته وقصصه على جوائز تقديرية. قصة «الجمال العزيزة» هي من أعماله غير المنشورة.

الجِمال العزيزة

أتكلم عن نفسي أولا

اسـمي حسين. لا أعلم من الذي أراد أن يكون اسمي حسينا. سـألت عن ذلك عـدّة مرّات من أعيش معهـم ولم أحصل على جواب مُقنع. على أية حال فاسـمي حسين. لم أر أمي حتى الآن وقد بلغت العشـرين. قصة أمـي كالتالي: في يوم من الأيام ترى أمي رجلا على جَمل يمر من محلتنا فتسأل الرجل عن ثمن ذلك الجمل، سـمع أبي بالخبر فطلقها، حدث هذا ولم أبلغ من العمر إلا شهرا واحدا.

فتنازلت أمـي عني لأبي وذهبت تبحث عـن مصيرها، ولأن أبـي لم يسـتطع الاعتناء بـي أعطاني لخالة له لـم تكن تنجب أطفـالا وهكذا أصبحت ابنا لهم. من ذلك الوقت وأنا كلما رأيت جَملا تذكرت أمي. من حسـن الحظ أنه مـن النادر هذه الأيام أن نجـد جِمالا في الشـوارع والأزقة لذا فأنـا لا أذكر أمي إلا قليلا. كل عام في شـهر محرم يأتي أحد المواكب الحسينية في أيام عاشـوراء بعدة جمال فأذهب لمشاهدتها. انتحب باكيا إلى أن يأتينـي أحدهم ويربت على كتفـي قائلا كفى يا أخي أجرك علـى الله. فأبتعد عن المكان بذريعة مـا كي لا يقع بصري على الجِمال وإلا فلا أستطيع أن أتمالك نفسي عن البكاء. في إحدى المرّات عندما كنت أبكي وقع نظري على أحد الجِمال وكان يبكي هو الآخر أيضا، فاعتلى صوت نشـيجي أكثـر فأكثر. كنا ننظر أحدنا إلى الآخر ونبكي والناس في لطم ونياح. فضاع صوتي بين

أصوات النياح المرتفعة من ذلك الجمع الغفير ولم ينتبهوا إليّ إلا عندما يتوقف الموكب الحسينيّ عند أحد الأبواب ليشرب الناس العصائر المقدّمة أداءً للنـذور. عندها اتجاهل اخذ العصير من الطبق وأواصل بكائي فكان الناس يلتفتون إليّ وينظرون. في يوم من هذه الأيام قال لي أحدهم كفى بكاء يا أخي وقال الآخر تقبل الله منك كل هذه المواساة والدموع المنهمرة.

الآن سأتكلم عنك.

كنا قد عدنا فورا من العرض إلى المنام. كان الجنود جميعهم قد ألقوا بأنفسـهم على الأسرّة من شـدة الارهاق والتعب وإذا بالمأمور يدخل. فقفز الشـباب من على أسرّتهم واجتمعوا حوله وقرأ المأمور أسماءهم واحدا تلو الآخر. كلهم كانت لديهم رسائل إلا أنا. عندها شـعرت أني المرهق الوحيد بينهم. إذ إنهم بعد أن أتموا قراءة الرسائل شرعوا في تلميع أحذيتهم وقياس الأحزمة بمحازمهم وترتيب الأسرّة وما شابه ذلك.

أخذت حقيبتي وودعت شريكي. قال لي: إلى أين؟

قلت: سأهرب.

ظن إنـي أمازحه. هويت عليه أقبله، قال: هل جننت؟ أجبته: سـتصدق بعد حين. كان قد وضع رسالته على السرير فقال لي وهـو يرمقها: يا حمار! على الأقل كان من المفروض أن تجد لك صديقة حتى الآن كي تراسلك.

لـم يقل شـيئا بعدها وشـرع ثانية في قراءة الرسـالة. كان المعسـكر محاطا بأبراج المراقبة من كل مكان. تسـلقت بصعوبة الحائط الشـرقي وقفزت إلى الجانب الآخر. كان من الممكن أن

يطلــق الحارس عليّ النار لو انتبه لأمــري لكن لم يحصل ذلك. ركبتي نزفت من الخدوش إثر انسحابها على الحائط. الموت هو الأمر الوحيد الذي لم أكن أفكر فيه في تلك اللحظة. كنت أفكر بك فحسب. لو كان في المعسكر ثمة جِمال لهان الأمر عليَّ. كنت أذهــب إليها وأبكي بقربها. لا أعلم لماذا كلما أرى جمالا أشــعر وكأني بقربك. لكن الجنود كانوا يقولون: إنهم لن يجلبوا الجِمال إلى المعســكر حتى في أيام عاشوراء. عندما كنت في المدينة لم أكن اكترث بالجمال ولكني في المعسكر وعندما كنت أرى المأمور يأتي بالرسائل وينادي الشباب واحدا واحدا كنت أتذكر الجمال كثيرا. لذلك ذهبت في يوم من الأيام إلى غرفة القيادة وســألت العقيد: ألا يوجد هنا جِمال يا سيدي؟

فنظر السيد العقيد اليّ بتمعن ثم أجابني باستهزاء ماذا تريد مــن الجمال أيها الجندي؟ قلت له: هكــذا، أردت أن أعرف إذا ما كانت لديكم جمال في المعســكر، أم لا. أمرني السيد العقيد بالانصــراف فعرفت أن لا وجود للجِمال في المعســكر والا كان الجنود السابقون رأوها، أو سمعوا بأصوات أجراسها على الأقل ولــو لمرة واحدة. بعد هذا لم يكن باســتطاعتي أن أتحمل أجواء المعسكر، لذلك هربت.

لقد تكلمت عن نفسي ثانية، والآن سأتكلم عنك:

كنــت قد عثرت علــى عنوان بيتها بعد جهــد جهيد. لم يكن أمرا ســهلا. في دفتر نفــوس أبي كنت قد عثرت على الاســم العائلي لأمي. وعندما كان يتحدث عن ذكرياته كان يقول إن أحد أخوالي يعمل شــرطيا. كان الأمر كمن يبحث عن إبرة في مخزن

القش. لكنني اســتطعت أن أعثر علــى عنوان خالي وقد مضت عدة أســابيع حتى عرفت بيته، ثم أقمت علاقة صداقة مع أحد أولاده وكان ساذجا، فعرفت منه مكان سكن عمته.

كنت أخــاف أن يكون زوجهــا في البيــت. فاعتمرت قبعتي ونكستها على رأسي كي لا ترى عيني. دققت الجرس فإذا بصوت امرأة تسأل: من الطارق؟

قال الجندي: انزلي لحظة من فضلك.

ونزلت المرأة بسرعة، تبدو أنها لم تتجاوز الأربعين من عمرها. لها عينان جميلتان واســعتان والجنــدي كان يريد أن يعرف من خلال ملامحها نسبته بها.

قالت المرأة: تفضل؟

قال الجندي: اسمي حسين وأنا ابنك.

انهارت المــرأة. لم يكن الجندي واثقا من أنــه ابنها وقبل أن يفكر قال إنه ابنها، فانهارت المرأة. دخل الجندي إلى الباحة وقد جلست المرأة هناك على المدرج. قال الجندي هل سيمانع زوجك؟

قالت المرأة: لا

المرأة:...

الجندي: هل أزعجتك؟

المرأة: لا

الجندي: سأذهب إن شئت.

المرأة: لا، لايزال الوقت مبكرا.

المرأة: عديم المروءة لقد سود عيشتي.

الجندي: من؟

المرأة: أبوك المعتوه.

الجندي: لم آت إلى هنا كي أتكلم عنه.

المرأة: لم أتيت إذن؟

الجندي: اشتقت اليك.

تصبب جبينه عرقا. فجفف جبينه بطرف كمّه وأطرق برأسه يحدق ببلاط الباحة. رفعت المرأة رأسها ونظرت إلى عيني الجندي وكان من الصعب رؤيتهما من خلف النظارة. قالت المرأة: لقد آذاني كثيرا لا سامحه الله.

لم يقل الجندي شيئا. قالت المرأة: ليتك مت أنت أيضا ولم تأتيني بعد عشرين سنة وتدمي قلبي. قال الجندي بتلعثم: اعتبريني ميتا. سأذهب.

المرأة: لا يمكن بعد الآن.

قالت بحنان: لم لا ترفع قبعتك؟

قال الجندي: أبدو قبيحا من دون شعر.

قالت المرأة ضاحكة: كنت قبيحا منذ البداية، فأنت تشبه ذلك الحمار عديم المروءة. ارفع قبعتك.

الجندي: لا

المرأة: لجوج، مثل ذلك المعتوه.

الجندي: لا شأن لي به ولا شأن لك به أيضا. لقد أتيت لكي أراك فحسب.

المرأة: عديم الرجولة ذاك، لقد خف عقله فعشق فتاة قروية أسوأ منه. الكريه الحقير.

الجندي: لا شأن لي بهذه الأمور.

المــــرأة: أضاع شــــبابي ثم أجبرنــــي على الــــزواج برجل لديه طفلان. لا أتذمر، إنه أفضل من أبيك عديم الكفاءة.

قال الجندي: لقد هربت من أجل أن أراك.

المــــرأة: كانوا قد أغروه بالكلام بأنها أفضل مني. بماذا كانت تفضلني؟ ولم تكن فائقة الجمال أيضا!

قال الجندي: سيؤذونني إن عدت.

قالت المرأة: كانت الفتاة قد جيء بها من القرية توا وكان يقول إنها أفضــــل مني بكثير! بماذا؟ لم تكــــن ذات جمال ولا ثروة، لا شيء، لا شيء.

الجندي: سوف يعاقبونني بشهر إضافي.

قالت المــــرأة: الحقير الأحمق كان يجــــب أن يفكر بالأمر من قبل.

نهضت من على الأرض وأخذت تمشي في الباحة، قالت: كنت كباقة الورد. كنت في السابعة عشرة من عمري فقط وهو الحقير أيضا لم يكن عمره قد تجاوز العشرين، لقد حطم حياتي.

قــــال الجندي: وربما لم أعد أخاف أن أعرّض نفســــي لمكروه بالسلاح. فالسلاح في المعسكر كثير كبعر الأرام وعندي أنا واحد أيضا.

قالت المرأة: كان أخي قد شــــهر الســــلاح بوجهه واقتاده إلى المخفر. يســــتحق هذا. فأصر بعدها على أن علاقتنا قد انتهت. إلى الجحيم. حيث أبوك الأصلع.

قال الجندي: يجب أن أعود.

اتجه نحــــو الباب، قالت المرأة من خلفه: ارفع قبعتك للحظة،

قال الجندي: لا أريد.

قالت المرأة: كأبيك عديم الأصل وعنيد.

قال الجندي: أنا ذاهب.

انطلــق وكأن المرأة عرفت حينها فقط أنه ذاهب فنادته، عاد الجندي ووقف إلى جانب المرأة، حيث إنه شــعر بحرارة جسمها، تلاقــت أيديهما. رفعت المرأة يدها لترفــع القبعة من على رأس الجنــدي، نأى الجندي برأســه وقال: أنا ذاهــب. وانطلق ثانية ونادته المرأة من جديد. وهنت خطوات الجندي وعاد نحو المرأة. رفع قبعته قليلا كي تتمكــن المرأة من رؤية عينيه. انبهرت المرأة وهجمت نحو الجندي قائلة: بالله عليك ارفع قبعتك.

ثم تراجعت شــيئا فشــيئا وأخذت تطيل النظــر إلى عينيه. قالت: جل الله الخالق. ذاك العديم الشرف بعينه.

لــم يكن الجندي قد رفع قبعته بالكامل. كانت المرأة قد بدأت بالتوسل إليه شيئا فشيئا. قال الجندي: أبدو قبيحا جدا.

قالت المرأة: أرجوك، إنك تشبهه تماما.

أدنى الجندي قبعته على رأســه أكثر وانطلق ليذهب فارتفع صوت المرأة خلفه: هل لا يزال أبوك يحتفظ بسنّه الذهبي؟

الجندي كان قد اطرق برأســه إلــى الأرض وابتعد عن المكان بسرعة.

سأتكلم عن نفسي أيضا.

الآن قد نســيت كل شــيء. حتى إنني أتذكر اسمي بصعوبة. كأننــي دائما في المعســكر وقائد الفيلق يأمرنــي أن أنتظم في الوقوف، والمشي والجلوس. ومن أجل إرضاء نفسي أعتمر القبعة

حتـــى عندما يكون الجو حارا. وأنكّســـها حتى الأذنين. أصبحت جنديا هاربـــا. أينما تقع عيناي على شـــرطي أتذكرك. لم أعد أهتم برؤية الجمال لقد بات الشـــرطي يذكرني بك. المدينة، هذه الأيام مليئة بالشرطة كما تعلمين ولا حاجة لي أن أنتظر من سنة إلى ســـنة كي أرى الجمال وأقف إلى جوارهـــا وأبكي. فعند كل مفترق طرق هناك شـــرطي، أو شـــرطيان. بمجرد أن أراهم من بعيد أتذكرك ولكن لا أعلم لماذا لا أشـــعر بالبكاء. لا بد أنه وقع لي أمر ما. لقد اشـــتقت إلى جمالـــي العزيزة لكنني لا أعلم هل سأبكي عند رؤيتها أم لا!

إيرج بزشك زاد
Iraj pezeshk Zad

روائـــي، باحـــث وكاتـب ســـاخر، ولد عــام ١٩٢٧ بمدينـــة طهران، سافر إلى فرنسا بعد تخرجه في المدرسة الثانوية ودرس الحقوق فـــي جامعاتها. اشـــتغل بعـــد عودته إلى إيـــران قاضيا في المحاكم وبعد خمس سنوات من العمل، التحق بوزارة الخارجية الإيرانية ليشـــغل منصـــب مديـــر عـــام للعلاقـــات الخارجيـــة. أحيـــل إلـــى التقاعد بعد انتصار الثورة الإســـلامية. ســـافر إلى باريس ليقيم فيهـــا متفرغـــا للكتابة. اشـــتهرت روايته «الخال العزيـــز نابليون» الســـاخرة وتفيد بعض الإحصاءات بأن مبيعاتها تجاوزت المليون نسخة، وقد ترجمت إلى الإنجليزية.

صـــدر لهـــذا الروائـــي الـــذي يعـــد مـــن الأســـماء اللامعـــة فـــي مجال الأدب الســـاخر، أكثر من خمســـة عشر كتابا ما بين الرواية والمســـرحية والبحـــوث التاريخيـــة والاجتماعيـــة. بعـــض عناوين آثاره هي:

- ماشاء الله خان في بلاط هارون الرشيد
- أدب المرء أفضل من ثروته
- الخال العزيز نابليون
- عائلة الحظ السعيد
- تذكرة العم الكبير و..

عار الفقر

كان أبو الفتح خان أحد أقربائنا قد ابتاع بيتا بخمسة وثمانين ألف تومان، وبديهي أن بيتا بهذا السعر لم يعد اليوم بيتا يستحق الحديث عنه، مع ذلك فقد أصر بعض أقارب وأصدقاء أبي الفتح خان على أن يقيم لهم وليمة بمناسبة شراء المنزل الجديد دون أن يأبهوا بكلامه واعتراضه.

لم يقم أبو الفتح وليمة بمعناها الحقيقي ولكنه دعا نحو خمسة عشر فردا من الأقارب والأصدقاء لتناول الشاي والحلوى في البيت، وكما تظنون فقد كنت أحد المدعوين، ولأن الضيافة كانت بمناسبة شراء البيت فقد كان أغلب الحديث يدور حول البيت وكان ابو الفتح خان وزوجته شمس الملوك يطوفان بالضيوف واحدا واحدا في الغرف ويوضحان لهم ويكرران نفس العبارات:

- لقد اضطررنا لشراء هذا المنزل، والا فإن بيتا من ست أو سبع غرف لا يكاد يكفينا، ذهبنا لنشتري بيتا بمائة وأربعين ألف تومان، لكن وللأسف الشديد تم بيعه قبل يوم من تصميمنا على شرائه.

في ذات الوقت الذي كان يتحدث فيه كل من صاحب البيت وزوجته وأخت زوجته عن ثروتهم وعن مقامهم الذي لا يتناسب مع شراء بيت بخمسة وثمانين ألف تومان، فجأة دخلت بنت أبي الفتح خان مستعجلة وهمست في أذن أمها.

بهدوء نقلت شمس الملوك ما سمعته من ابنتها لزوجها وأختها فاصفرت وجوههم وبعد دقيقة، أو دقيقتين خرجوا ثلاثتهم،

فشـــعرت أن شـــيئا مهما قد حدث، ولأن ابن ابي الفتح خان كان جالســـا بجواري وتربطني به علاقة طيبة فقد استفســـرت منه عما حدث، اقترب مني وقال: لا أشعر بالكلفة تجاهك ولا أراعي المجاملات، لقد قال أبي وأمي للجميع إنهما ابتاعا البيت بخمسة وثمانـــين ألف تومـــان في حين أنهما اشـــترياه بأرخص من هذا السعر، لكن عمة والدتي كانت حاضرة لدى كاتب العدل مصادفة وقد عرفت السعر الحقيقي وسوف تفضحهما بكل تأكيد، والآن علـــم الجميع أنها في رأس الزقاق وســـوف تصـــل إلى هنا بعد لحظات، وهذا هو سبب استياء والدي ووالدتي.

أليس من الممكن أن يرجوها أن...

أنـــت لا تعرف أخـــلاق العمة، إنها لا تعيـــر أدنى أهمية لهذا الكلام، وهي أن عرفت أننا أخفينا السعر الحقيقي للبيت فسوف تعلن عن ذلك من وراء المذياع...

في هذه الأثناء فُتح الباب ودخلت عجوز عمرها نحو ســـبعين ســـنة ونيف، نشيطة وتترك انطباعا بالذكاء، وبلا أسنان، وكانت تضع خمارا أبيض على رأســـها، وبعد أن ألقت السلام والتحيات الحارة على الجميع وتقبيل أكثر الحضور جلســـت وبدأت بالأكل وبمـــلء فم عاتبـــت على عدم توجيـــه دعوة لها ممـــا اضطرها للحضور من تلقاء نفســـها، وقد بهت واصفر وجه شمس الملوك كلون جدران البيت.

قالت العمة العجوز:

كان عليكم أن تدعوني قبل أي شخص آخر لأنني كنت حاضرة لدى كاتب العدل عندما وقعتم العقد...

قبل أن تكمل عبارتها قاطعتها شمس الملوك وأختها، قالتا معا: لماذا لا تتفضلي بتناول الحلويات؟

باختصار، كانت شمس الملوك وكذلك أختها تشعران بالقلق وقد وجهتا كل اهتمامهما للعمة العجوز الثرثارة التي كانت تلوي عنق كل حديث ليتحول إلى حديث حول سعر البيت. حتى إنها قالت دون مناسبة بفم مملوء بالأكل:

- إن بيتا بهذا السعر...

ارتبكت أخت شمس الملوك إلى حد أنها لم تجد الفرصة لمقاطعتها فراحت تصفق وتصيح بفرح:

ألف مبروك إن شاء الله، ألف مبروك.

فسألت العمة بتعجب: علام التهليل؟ تبادلت شمس الملوك وأختها النظرات للحظة ثم قالت شمس الملوك:

ألم تعلمي ياعمتنا العزيزة أنه عن قريب سيكون حفل خطوبة بنت أخ أبي الفتح؟!

انصرفت العمة عن طرح قضية ثمن البيت مؤقتا ولكن اهتمام المضيفين لم يعد منصبا إلى الضيوف وإنما إلى العمة وخوفهم من أن تتفوه بالسعر الحقيقي للبيت الجديد، خصوصا أنها تعود لهذا الموضوع بين عبارة وأخرى، بعد لحظات خطرت فكرة في رأس شمس الملوك فهمست في أذن أختها التي قالت للعمة:

- بالمناسبة يا عمتي أعتقد أنك لم تشاهدي حمام بيتنا...

- يا لحسن حظكم أنه يحتوي على حمام أيضا؟ وهل تدفأ أرضيته كذلك؟

- نعم ياعمتي، إنه دافئ الآن أيضا واذا أحببت أن تستحمي فلا مانع من ذلك.

وبعد ربع ساعة من الإصرار أقنعوا العمة بالذهاب إلى الحمام والاستحمام. حينما خرجت من الغرفة تنفس المضيفون الصعداء، وعادت أجواء الضيافة إلى حالتها الطبيعية، وغرقت هي بالتفكير.

إن هذا المرض لا يقتصر على أبو الفتح خان وعائلته، فمرض الهراء والتفاخر الفارغ ينبعان من مكان آخر، فهو مرتبط بعار الفقر الذي لا مثيل له في كل مكان في العالم بالمقارنة بما هو عليه هنا. إن الناس يعتبرون الفقر عارا بحيث إنهم مستعدون لتحمل ألف نوع من الشقاء من أجل التستر على فقرهم لئلا يطلع عليه أحد، أما الذين يملكون الثروة والمال، فإنهم يتباهون ويتفاخرون بهما إلى حد يبدون فيه كأنهم اكتشفوا البنسلين.

لقد حدث عدة مرات أن كنت مع صديق وفرّغت محتويات جيبي أمام شخص ثالث كي أبين أنه خاو من النقود، فيحمر وجه صديقي خجلا بدلا مني ويلومني بشدة على ما يراه فضيحة، كما للمرة الألف أرى شخصا يشتري سلعة ما ويجمع جميع أفراد عائلته موصيا إياهم بأن يذكروا ثمنا مضاعفا للسلعة أثناء حديثهم مع الآخرين.

لقد توسطت قبل أيام لصبي تعرض للضرب من قبل والده. لأنه قال وبحضور الآخرين إنه تناول طعاما لم يكن سوى مهلبية. لي صديق آخر وخوفا من ابنه الثرثار علّم ابنه ولم يتجاوز عمره ثلاث سنوات أسماء غير صحيحة لأنواع المأكولات، فأطلق على

أكلات الفقراء ووجباتهم المتواضعة مثل التشـريبة وحساء اللحم أسماء اجنبية أو أطعمة فاخرة، فإن سأله أحد ماذا تناولت اليوم يجيب فورا: الدجاج المشوي.

وقد تعرض هذا الصبي المسـكين هو الآخر للضرب من قبل والـده إذ إنه قال ذات مـرة أثناء حديث مـع الآخرين إنه قطَع الخبز داخل صحن حساء الدجاج المشوي.

قطع صـوت العمة العجـوز المنبعث من مكان بعيد سلسـلة أفكاري، كانت تطلب شـخصا من النسـاء يساعدها في تدليك ظهرها بالليفة، خرجت أخت شمس الملوك بعد لحظات مسرعة نحو العمة العجوز، بعد نصف ساعة من استئناف أبي الفتح خان وزوجته التباهي والتفاخر بالبيت الجديد، خرجت العمة العجوز من الحمام وقد احمر وجهها بسـبب الماء الساخن وصار شبيها بالشـمندر، فأقنعوها رغما عنها بضرورة عودتها إلى بيتها، فقفز أبـو الفتح من مكانه ليهيئ لها سـيارة أجرة، أما شـمس الملوك وأختهـا فلم تتركا موضوعـا تافها إلا وتطرقتا إليه كي لا تعطيا العمـة العجوز فرصة للحديث إذ أن ذلك سـيعني التطرق لثمن البيت، تحدثا لهـا عن الأخبار القديمة فـي الصحف وحوادث تصادم السيارات والانتحار وما شابه من مواضيع لم تكن هناك أي مناسـبة للتطرق إليها، حينما حضرت سـيارة الأجرة ودّعوا العمة بالتحية والصلوات، تنفس المضيفون الصعداء، ومسـح أبو الفتح خان قطرات العرق من جبينه، لكن فجأة ومن خارج البيت نادت العمة العجوز شمس الملوك من الباحة، فتحت شمس الملوك النافذة. صرخـت العمة بصـوت عـال، عزيـزتي شـمس الملوك

لا تبحثوا عن حجر الغســل الذي كان في الحمام فقد سقط في البئر، ادعوا من يخرجه، واشتروا نافذة مشبكة سلكية وضعوها على هذه الحفرة.

- نعم يا عمتي سوف أنفذ ذلك غدا وفي أول فرصة.

- نعم يا عزيزتي، أن نافذة مشبكة سلكية لا تكلف سوى ثلاثة أو أربعــة آلاف تومــان، اعتبروا هذا المبلغ مضافا إلى الســبعة وخمسين ألف تومان، أي المبلغ الذي دفعتموه لشراء البيت.

غلام حسين ساعدي
Gholam Hossein saedi

ولـد هذا الكاتب المسـرحي والقصصي الكبيـر في العام ١٩٣٥ بمدينـة تبريـز وهـي مركز محافظـة آذربيجان الشـرقية. تخرّج بدرجـة الدكتوراه في علم النفس واشـتغل فـي مجال تخصصه حتـى خروجـه من إيران إلى باريس بعد الثورة الإسـلامية. كتب في شـتى فـروع الكتابـة الأدبية مثـل الرواية والقصـة القصيرة والمسـرحية والسـيناريو والترجمة ويعد من الأسماء اللامعة في مجال الأدب القصصي. توفي ساعدي في باريس العام ١٩٨٥ وهو لم يزل في الخمسين من عمره لكنه خلّف لقرائه خزينا ضخما مـن الأعمال الأدبية يفوق عدده الخمسـين كتابـا. من أهم آثاره كتـاب «أصحـاب العزاء في بَيَل» الذي تحول إلى فيلم سـينمائي وحصـل على جوائـز عالمية. ومـن أعماله الأخرى: سـهرة رائعة، المهد واللحد، الخوف والارتجاف، رهبة بلا شـكل ولا لون، المقتل، الكرة، غريب في المدينة وغيرها...

المتسولة

لم يمر شهر، وأنا، ولمرات ثلاث، بين ذهاب وعودة من وإلى مدينـــة قم. وكأنني في المـــرة الأخيرة كان قد خطر على بالي أن الأحوال ستســـوء لا محالة وتتدهور. إلا إنني استقللت في منتصف الليل سيارة متهالكة لأقف قبيل شروق الشمس عند عتبة باب ســـيد أســـدالله. وما إن طرقت الباب حتى فتحت الســـيدة عزيـــزة وحينما شـــاهدتني فوجئت وتكبـــرت عليّ. وعندمـــا كانت تتنحى مـــن مقابل الباب، نظـــرت باضطراب وقالت: «أولم تكوني قد ذهبت يا جدة؟».

لم أكترث بكلامها. سلمت ودخلت وعبرت البهو لأقف في وسط الباحة؛ فإذا بأطفالها الذين كانوا لتوهم قد استيقظوا من نومهم وتحـــلقوا حـــول حـــوض النافـــورة ليغسلوا أيديهم ووجوههـــم، يقفون وينظـــرون إليّ. جلســـت بجانب الحائط ووضعت صرّتي إلى جانبي، فمكثت هناك. وســـألت السيدة عزيـــزة من جديـــد: «حـــقـــا! أيتـــها الجدة! أولـــم تكوني قد ذهبت؟»

أجبتها: «نعم، كنت قد سافرت يا بنيتي ولكنني عدت ثانية».

فقالت السيدة عزيزة: «ما دمت أنك كنت عازمة على الذهاب والعودة، فلمَ ذهبت أســـاســـا؟ ما كان لـــك أن تذهبي. كنت بقيت هنا وأرحتنا».

أجبتهـــا ضاحكة: «ها أنا ذا قـــد عدت، ليرتاح بالك! ولكن يا بنيتي لم أعد هذه المرة دونما سبب. عدت لأمر واجب».

دنـــا الأطفال مني، والتفّوا حولي، في حين جلســت السـيدة عزيزة إلى جوار حديقة الدار وهي مكفهرة، وسألت: «وما عملك الآخر؟»

أجبتها: «عدت لأشــتري لنفسي شبرا من الأرض لأثوي اليه، فقد حلمت بأنني على وشك الرحيل من هذه الدنيا».

انتقلت الســيدة عزيزة من مكانها، ثم سألت: «بماذا تشترين هذه الأرض؟ وكيف تشترين؟ وقد كنت خاوية اليدين منذ حين».

أجبتها: «سأشتريها بشكلٍ ما»، وأشرت إلى صرتي.

غضبت الســيدة عزيزة، واستفســرت: «ما دام عندك نقود! إذن لماذا تأتين دوما إلى هنا وتبتزّين سيد المسكين؟ ذاك المسكين الــذي يركض ليل نهار ويكدّ ولا يســتطيع أن يســد رمق أولاده. وأنت لا تتركينه وشــأنه تذهبــين وترجعين وفي كل مرة تأخذين منه شيئا». ثم حملقت في عيني وهي تتوقع مني ردا، ورغم أنني كنــت منهارة للغاية، لكنني لم أرد عليها. ارتقت عزيزة الســلالم وهي تدمدم وأطفالها من خلفها يتبعونها بسرعة، وكأنهم يخشون أن أصيبهــم بأذى، أو مكروه. أما أنا فلا أدري كيف تســلل إليّ النعاس وأخذني النوم وأنا مشدودة إلى جنب الحائط! فرأيت في المنام: أن ســيد عاد من الدكان، ووقف مع عزيزة تحت الشجرة ويتكلمان بشــأني. فإذا بعزيزة تزمجــر وتتوعد، إن لم يطردني سيد فسيعلم أيّ بلاء سينزل بي.

انتفضت مســتيقظة من نومي، ورأيت بالفعل أن سيد قد عاد وهــو يحدّث زوجته في بهو المنزل وبصوت عال، قائلا لها: «بالله عليــك قولي لي ماذا أفعــل معها وكيف؟ فهي كمــا يقال كباب

المســـجد لا يمكن قلعه كما لا يمكن حرقه، دليني وبيّني لي كيف أتصرف معها؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟»

قالت السـيدة عزيزة: «لا أعرف ماذا تفعــل بها، فرغم أنها أبلغــت الجميــع القاصي منهــم والداني وبشــكل فاضح بأنها معدومة الحال وعلى البساط ولا تملك حتى مليما واحدا، جاءت اليوم لتعلن أنها بصدد شــراء أرض، لابد وأنها ســوف لن تقنع بالشــراء في مقبرة وادي الســـلام وغيرها! وربما ستشتري لها قبــرا في تربة الفرج. وما دامت تمتلك كل هذه النقود، فلماذا لا تتــركك وحالك؟ لماذا لا تذهب لتعيش مع أولئك الآخرين؟ لديها كل هؤلاء الأولاد والبنات، ولكنها تمســك بتلابيبك، لأنك الأكثر غباء ومسكنة. فأولادها سيد عبدالله وسيد مرتضى وسيد جواد وســيد علي وبناتها صفية وحوريــة وأمينة آغا ولديها كل أولئك الأصهار الأغنياء، ولماذا هي متمسكة بك وحدك؟»

تمهل ســيد قليلا وقال: «إنني عجــزت، فافعلي ما ترين وما يحلــو لك، ولكــن لا تقومي بعمل يغضب اللـــه، أيا كان فهي في نهاية المطاف أمي».

خرجا معا من البهو، فأغمضــت عينيّ وتظاهرت بالنوم. ثم ارتقى سيد السلالم ثم نزل بكل هدوء وخرج من البيت. أخرجت أنا كســرة خبز من صرتي وتناولتهــا وتمددت هناك ونمت، لقد هزتني الســيارة المتهالكة ليلة أمس بحيث أفقدتني القدرة على الوقوف علــى أقدامي. وحينما اســتيقظت وفتحت عيني كانت الدنيا قد اظلمت ولكن مصباح الغرفة كان مضيئا. ســعلت عدة مرات، ثم ذهبت إلى جانب الحوض، وحركت بعنف مياهه الراكدة،

ولكن لم يخرج أحد، فصعدت السلالم، فشاهدت السيدة عزيزة وأولادها جالسين حول سفرة الطعام وهم يتناولون العشاء، ولم يحضر سيد حتى ذلك الحين، فانتظرت في الممر، وما إن انتهوا من تناول العشاء، حتى أطللت عليهم برأسي وأقحمته داخلا، وناديت: «سيدة عزيزة! سيدة عزيزة!»

انتفضت ماهرخ ابنة سيد أسدالله الكبرى من مكانها، وصرخت. ونهض الجميع، ورفعت السيدة عزيزة فتيلة السراج، وقالت: «ماذا تفعلين يا عفريتة؟ أتريدين أن ترعبي الأطفال؟».

عدت إلى الوراء، وقلت: كنت أريد أن أتأكد: هل عاد سيد؟

فقالت السيدة عزيزة: «أعمياء أنت؟ أليس لديك عيون؟ ألا ترين أنه لم يعد؟ إنه لن يأتي الليلة أساسا!»

سألتها: «أين ذهب؟»

حركت يدها ورجلها وقالت: «من أين لي أن أعرف إلى أية جهنم قد ذهب؟»

فقلت لها: «طيب، إذن! أين أنام؟»

قالت: «فوق رأسي! من أين أعرف أين تنامين. عليك ألا تزاحمي أولادي، في أي مكان تريدين نامي».

تمددت في الممر نفسه، ونمت. وفي الصباح استيقظت، وكنت على يقين من أن عزيزة لا تطيق رؤيتي. ولذلك، فما كدت أن أنهي صلاتي حتى خرجت من المنزل متجهة إلى الحرم. وبدأت بزيارة ضريح السيدة فاطمة المعصومة أولا ثم جلست القرفصاء عند المدخل الكبير للحرم، وغطيت وجهي، ومددت يدي إلى زوار السيدة المعصومة! وحينما افترشت الشمس باحة الحرم،

هممـــت بالنهوض، وجمعت نقـــودي، وعقدتها في طرف صرتي وسرت. وقبيل الظهيرة عدت إلى بيت سيد أسدالله وحملت معي عرائس السّـــكّر والحلوى للأطفال. وعندما طرقت الباب جاءت ماهرخ وفتحت الباب قليلا وما أن رأت وجهي حتى أغلقت الباب ثانية ودخلت. عاودت الطرق، وإذا بســـيدة غريبة لا أعرفها قد خرجت إليّ، وقالت: «منذ ثلاثة أشـــهر ذهب سيد أسد الله من هذا البيت».

قلت: أين ذهب؟ كان البارحة هنا.

قالت المرأة: لا أعلم أين ذهب، من أين أعلم؟

أغلقت البـــاب وذهبت. كنت أعلم أنها تكذب، فجلســـت إلى جانـــب الباب حتى العصر ربما يظهر ســـيد أســـدالله. وحينما أيقنت أنه لا فائدة من ذلك نهضت ومشـــيت. وفجأة خطر على بالي أن أذهب لدكان سيد ربما أجده. ولكن أينما ذهبت لم أجد من يعرف سيد أسدالله المرآتي. وقد دلني البعض إلى محل لبيع المرايا يقع إلى جوار محلات قطع الحجر يملكه شـــخص اســـمه ســـيد أســـدالله وهو رجل يرتدي عمامة وعباءة وكان جالسا في دكانه، ولم يكن هو فسيد اسدالله كما أعلم يرتدي عمامة فقط. فعدت أدراجي وتســـكعت في الطريـــق، حينما حل وقت الصلاة ذهبت للحرم وجمعت الصدقات وعاودت الرجوع للسوق. اقترب الغروب وأنا أبحث عن ســـيد وأطرق كل الأبواب وكأنني في أيام طفولته حينما كان يتيه وأبحث عنه. وقلت مع نفسي من الأفضل أن أعـــود إلى بـــاب داره، ولكن داهمني خـــوف! كنت أخاف من عزيزة! كنت أخاف من أولادها! أخاف من الجميع حتى من حرم

السيدة المعصومة لا سامحني الله على ما أقول! وفجأة داهمتني الخيالات وفكرت في أن أعــود في نفس ذلك اليوم وذهبت إلى محطة الســيارات وهناك رأيت ســيد أسدالله وهو يعبر الشارع صوب الرصيف الآخر. ناديته، فتوقف. هرعت إليه وأخذت بيده وتــوددت إليه ودعوت له، فوجئ ولــم يتمكن من الحديث. مرت لحظات ولم ينبس ببنت شــفة، انعقد لســانه وهو ينظر إليّ في ذهول.

قلت له: يا حبيب ماما، لا تخف! لن آتي إلى منزلك! أنا أعلم بأن الســيدة عزيزة لا ترغب في رؤيتي. لكني قد اشتقت اليك. كنت أريد أن أراك وأرجع.

قال ســيد: «يا أمي أنت أيضا لم تحفظــي ماء وجهي بالمرة! لقد رأيتك عصر اليوم في الحرم تتسولين! فرجعت أدراجي في لحظتها، ولــم أقو على التحدث معك حتى لــو بكلمة، فما هذا الذي تفعلين وأنت في هذا العمر؟!»

لم أنبس ببنت شــفة. عاد ســيد وســأل ثانية: «هل اشتريت لنفسك قبرا؟»

قلــت: «لا تحمل همي! لــم تبق حتى الآن جثــة دونما دفن، سيورونها الثرى على نحوٍ ما».

خنقتنــي العبرة فأجهشــت بالبكاء وتملك البكاء من ســيد أســدالله أيضا، لكنــه لم يطلق العنان لدموعه، وســألني: «لماذا تبكين؟»

فقلــت له: «أبكي لغربة ســيدي الإمام الثامن عليه الســلام المدفون غريبا في خراسان».

فتش سـيد جيوبه، فعثر على مبلغ زهيد فناولني تلك النقود وقـال: «أماه، لا فائـدة من بقائك هنا. الأفضـل أن تعودي إلى سيد عبدالله، فإني عاجز عن أن أوفر لك حياتك، كما لا يمكنك التسـول! في النهاية سـيرونك ويعرفونك. وحينمـا يعلمون أن زوجة الحاج سـيد رضي تتسول، سوف ترتعد عظام والدي وهو في قبره! وسوف تريقين ماء وجه العائلة والأقارب كلهم. ارجعي عند سـيد عبدالله، وزوجته ليست سـليطة اللسان مثل عزيزة، فهي رحيمة ومنصفة».

وحينما وصلنا لموقف السـيارات، توجه سيد لأحد السائقين وقـال له: «أبتـاه! احمل هذه العجوز وأنزلها في ميدان شـوش بطهران، أثابك الله!»

قفل سـيد راجعـا دون أن يودعني، ولم أنـاده، فقد أبى أن يعرفوا أنني أمه.

لقد كانت أسـرة سـيد عبدالله قلقة من أجلي، وكان سـيد عبداللـه قد خرج مع زوجته رخشـنده، وأطفاله كانوا منهمكين في اللعب داخل المنزل، وكانت أخت زوجته، وهي سـمينة للغاية، تجلس وسـط الدار ومنشـغلة بالحياكة. وما إن سمعت صوتي وعرفت أنني جئت حتى انفرجت أسـاريرها وهكذا الأطفال قد فرحوا بعودتي. ولم يكن من المقرر أن يعود سيد عبدالله وزوجته رخشندة بسرعة. وقد كان الخبز والطعام متوفرين للغاية، وكان الأطفـال يلعبون فـي باحة المنزل وهم في فرح وسـرور يركض بعضهـم وراء بعض. يبعثرون كل شـيء ويتمازحون معي. وكانوا يحاولـون أن يتعرفوا على ما أحمل فـي صرّتي. الكل كان يريد

أن يعرف ماذا يوجد في الصرّة. وكانت أخت رخشنده جالسة في الإيوان وقد تمالكها الضحك وهي تجمع شعرها المجعد وراء أذنها، وقد تناغمت مع الأطفال وهي تردد معهم: «ماذا لديك في الصرّة يا جدّتنا؟ إن كان فيها طعام فأعطينا نأكله».

فقلت: «بالله! ليس فيها طعام، وماذا يفعل الطعام في صرّتي؟»

حينما هممت بالخروج أراد الأطفال أن يخرجوا معي ولكني تحايلت عليهم وخرجت للشارع وحدي. وقد كان المكان الذي كنت أجلس فيه دوما مفترق طرق ويشبه الميدان الصغير وقد كان مظلما وعميقا، وقليلا ما كان يمر منه المارّة، بركة التسوّل فيه قليلة، وقد كنت أفعل ذلك من أجل الثواب. وعندما عدت للمنزل، قالت لي أخت رخشندة: «أيتها الجدة أين ذهبت؟ أذهبت لزوجك؟».

تحلق الأولاد حولي، وكل واحد منهم يدلي بسؤاله، وأنا قد تملكني الضحك. ولم أقدر أن أجيبهم. وكنت أنفجر في الضحك، بل الكل كانوا يضحكون وكان البيت كله يهتز من الضحك. كانت أخت رخشندة تحبني كثيرا. وكانت تريد أن تسرّني بأية طريقة، وأن تفعل لي شيئا. فطلبت منها أن تحيك لي مخلاة فبدأت بحياكتها لي وعندما أتمتها، قالت لي: «حياكة المخلاة تُفائِل بالخير وسيصل خبر مفرح».

وهكذا حدث، ففي اليوم الثاني وقبل أن تطلع الشمس جاء سيد عبدالله وزوجته رخشنده اللذان كانا قد عادا من القرية. وحينما شاهدتني رخشندة فوجئت وعبست. وكان سيد عبدالله قد سمن، وازداد حمرة وبياضا وقد نمت لحيته. ونظر إليّ بجزع

ولم يكترث بي. وآنذاك قلت مع نفسي: «والآن، حيث لم يكترث بي أحد، فلأذهب، فلا طائل من بقائي. فكل من يراني ينزعج. ولا مجال للحديث والضحك مع الأطفال، كما خيم الصمت على أخت رخشندة. سرح سيد عبدالله في أفكاره وتفرسني ثم قال: «لماذا يا أماه تارة هنا وتارة هناك؟»

فقلت له: «أريد أن أرحل».

شعر بالفرح وقال: «طالما تريدين الذهاب، قومي الآن واذهبي للقرية بنفس السيارة التي جئنا بها».

وقد هيأ لي الأولاد الخبز والجبن، وحملت أنا الصرّة والمخلاة التي حاكتها لي أخت رخشندة ومسكت بالخشبة التي وهبني إياها سيد عبدالله عوضا عن العصا، ثم قلت: «لا أمانع وأنا جاهزة للذهاب».

فقبّلت الأطفال وقبّلوني وخرجت. كانت السيارة واقفة أمام الباب، فركبتها. خرج الأطفال وتحلقوا حول السيارة، ولم تأت خارجا لا رخشندة ولا أختها. وقد أعطاني سيد عبدالله تومانين خشية أن أغير رأيي وأرجع اليه. وتناهى إلى مسامعي من داخل المنزل صوت بكاء أخت رخشندة. كما سمعت صوت ابنة رخشندة الكبرى وهي تقول: «إنها خائفة، خائفة من أن يحدث مكروه في هذا الليل». وعند الظهيرة وصلت القرية، وحالما نزلت من السيارة أخذوني إلى طامور له باب صغير ومربع الأضلاع. وكانت قدماي ويداي يعتصرهما الألم. وفي المساء قدموا لي الخبز والحساء، تناولت العشاء، ونهضت لأقيم الصلاة، ففتحت باب الطامور ووقفت عند عتبته التي تطل على واد عميق يعتليه

القمر وقد أضاء جوانبه فجعلها بيضاء كلون الحليب، وقد تناهى إلى مسامعي عواء ذئب عج من مكان ناء، كما أصغيت إلى صوت انبعث من خلف الدار، وكان يردد: «ها هو سـيأتي الآن ليأكلك، إن الذئاب تحب العجائز».

وكان يتراءى لـي وكأنني أرى أنيابه، كما كان فوق سطح المنزل ما يشبه الدجاج ينقر بمنقاره ويكاكي كالدجاجة، تمنيت أن تكون كل هذه الهواجس أوهاما وخيالات. وتملكني الخوف فدلفت للداخل. وفي اليوم التالي رغبت عن الخروج ومشاهدة الوادي بقمره المضيء، وقضيت اليوم كله داخل الطامور. كنت ضيّقة الصدر وأفكّر فيما حدث ولماذا حدث، فأجهشت بالبكاء وانفجرت باكية على غربة الإمام الغريب وعلى شهادة سقاء كربلاء الشاب. وقد تذكرت صفية واشتقت إليها، لكنني كنت أخشى زوجها، ورغم أنه لا يعرف مكاني، لكنني مع ذلك كنت أخاف منه، وقد اجتاحتني الأوهام والخيالات.

كل ما في القرية كان حسنا، بيد أني ما كنت أستطيع أن أجمع الصدقات. وكنت أذهب في أوقات العصر صوب ميدانها الصغير، وأظل جالسة هناك حتى المساء. وما كنت أتدخل في أمور الآخرين، كما لم يتدخل أحد في شؤوني. وكنت قد أضعت حذائي في الطريق، وتمنيت أن يأتي أحد ويهبني حذاء لوجه الله. كنت أخشى أن أطلب ذلك من أحد، فقد كنت أخاف أن يصل لمسامع سيد، فيتأذى وينزعج. لم تكن حالي جيدة، كنت أوسخ ملابسي بلا سبب ولا أعرف لماذا؟ ولماذا أصبحت هكذا؟ فليس هناك من يهتم بأمري.

وذات يوم، جـــاء للقرية درويش هـرم، وكانت لديه لوحة كبيرة للإمام الحسين وقد باعها لي، وفي تلك الليلة والليلة التالية لها جلســـت إلى جوار هذه اللوحة وكنت أنشـــد التعازي الحسينية. وكنت ســـعيدة وكنت أعلم أن التسول بعرض هذه اللوحات ثوابه أكثر.

وذات ليلة حينما انقبض فيها قلبي، كنت جالسة وكانت الظنون تأخـــذ بي، وإذا بصوت يناديني، صـــوت من بعيد، فتحت الباب، وأصغيـــت إليه، فقـــد كان يعلو من مكان بعيـــد، وكأنهم ينادونني من خلف الجبال. لم يكن الصـــوت غريبا عليّ، ولكنني لم أتبين صوت من هو. زال خوفي بأســـره ونهضت وحملت معي اللوحات وصرّتي وأغراضي ومشيت. كانت الطرق ضيقة وطويلة ممتدة. وكانـــت الصحراء مضيئة. وكلما أوغلت في المســـير أحسســـت بنعومة الطريق، وهي تنحدر تارة وترتفع تارة أخرى، ولكنها غير متعبة بالنســـبة لي. وكل هذا كان من بركة قلبي المضيء والمفعم بالإيمان ومن بركة اهتمام السادة بي. خرجت من القرية وجلست على قاعة الطريق لأســـتريح إلى جوار أرض شخص واذا برجل يظهـــر أمامي ومعه ثلاثة جمال، فبدأت في ذلك المكان بإنشـــاد التعازي الحسينية، فهاب الرجل في البداية مشهدي هذا، ولكنه رقّ قلبه لحالي فيما بعد، وأركبني أحد الجمال، وركب هو الجمل الآخر، أما الجمل الثالث فقد كان يسير خلفنا بهدوء. وقد ضاق صدري، تذكرت ليلة غرباء كربلاء في الشام وبكيت بهدوء.

قلت للســـيد جواد: سأذهب لأعمل، وسأوفّر طعامي، فإشباع بطن واحد ليس بمعضل، ســـأعمل، وإن كنت حتى الآن أتسول!

فلم يكن ذاك التسول من أجل جمع النقود بل من أجل الثواب. فأنا أحب رائحة خبز التسول، أحب ثوابه، ويجب ألّا يضايقكم هذا التصرف، فكل إنسان يحاسب على أفعاله وهو وحده المسؤول عنها. ولم يسمح لي السيد جواد بدخول منزله، وقال: اذهبي وافعلي ما يحلو لك من أعمال مشينة. ثم تركني وأوصد الباب في وجهي. وكنت أعرف أن صفية خلف الباب، وقد عرفت أن السيد جواد لم يسمح لي بدخول البيت، وبدأت تلطم وجهها وهي في حزن دفين وتعج بالبكاء والعويل. وقد دخل السيد جواد الغرفة وحرك مهد الطفل وكأنه لم يحدث شيء. كما كنت أعلم أن السيد جواد سيذهب للسوق بعد ساعة، فذهبت للزقاق المقابل لبيته، وانتظرت هناك ساعة. ثم عدت ثانية وطرقت الباب، وفجأة فتح السيد جواد الباب، وقال مستنكرا: خيرا!

فقلت: لا شيء!

وسحبت أذيالي وقفلت عائدة، والسيد جواد يواكبني بنظراته إلى أن خرجت من الزقاق. وأخرجت اللوحات من صرّتي، وبدأت بإنشاد أشعار في مدح الإمام علي عليه السلام مولى المتقين. وتبدت لي سيدة نحيفة وهي تقترب مني وترمقني بنظراتها، ثم مدت يدها وناولتني صدقتها، وقالت: «أيتها السيدة العجوز من أين تأتين وإلى أين تذهبين؟».

قلت: «جئت من الصحارى وأبحث عن عمل».

فقالت: «أتقوين على العمل وأنت في هذا العمر؟».

أجبتها: «سأضع الجبال جبلا فوق جبل بعون الله».

فقالت: «أوتستطيعين غسل الملابس؟».

أجبت: «سيساعدني إمام الغرباء».

فقالت: «لو كان كذلك فاتبعيني».

ذهبت إثرها، مشـينا ومشـينا حتى وصلنا منـزلا كبيرا يقع فـي زقاق خال من المارة، وله مجاز كبير. دخلنا وكان البيت فناء فسـيحا يتوسـطه حوض ماء كبير يسـع لكمية كبيرة من المياه، وقد جلسـت على حافته عدة نسـاء قد تزين بجميع المساحيق ويتـلألأن جمالا وكأنهن أقمار في الحسـن. وكـنَّ يلكن وكأنهن يتناولـن طعاما ما دونما وقفـة. وما أن وقعت أعينهن عليَّ حتى انفجرن بالضحك وشـرعن يتهامسـن مع بعضهن. ثم قلن إنّي لا أسـتطيع غسـل الملابس، ومن الأفضل أن أجلس خلف بوابة الدار، وجلسـت خلف الباب ومعي اللوحات وصرّتي. وقالت لي تلك السـيدة النحيفة: كل من يطرق الباب ويريد ربابة فعليَّ أن أفسـح له الطريق وأدعه يدخل. ومكثت هناك لعدة ساعات ولم يطرق أحد الباب. وكنت جالسة ومنشغلة بترديد الأدعية وأناجي ربي. وقد كان المكان منزويا، ولكنني ما كنت أخشى الظلام أبدا. وفجـأة تعالى ضجيج أصوات من داخل المنزل، ولا أعلم من ذاك الـذي عج بالعويل، وقد أوصتني تلك السـيدة بـألّا أتدخل في الأمور، وأن أكون في حالي، وهكذا كنت، فلا شـأن لي بشـيء، وفجأة، طرق الباب، فقلت: «من الطارق؟».

قال: «أريد ربابة».

فتحت الباب، فإذا برجل نحيف للغاية يترنح في مشيته فولج الدار ودخل الفناء مباشرة. وتعالت الضحكات من الفناء، ثم خيم الصمـت ثانية. ورويدا رويدا غلبنـي النعاس، وغطت في نوم

عميــق، فحلمت أنني ذهبت ثانية إلى منزل صفية وأطرق بابها، فإذا بالســيد جواد يفتح الباب، ويقول متهكما: «حسنا؟!». فأرد عليه: «لا شيء!». ثم يقفز للخارج فجأة وأنا أفر منه وهو يتبعني بالسوط. وأنا أحلم بهذا الكابوس، فإذا بالباب يطرق، فأقفز من نومي وأنتفض في ذعر، وأردد مع نفســي: يا ترى من الطارق إن لم يكن السيد جواد؟ وقلت: «من الطارق؟»

قال السيد جواد: «افتحي الباب».

قلت: «من تريد؟»

قال: «أريد ربابة».

قلت: «ليست موجودة».

قال: «أقول لك افتحي الباب يا سليطة».

وبدأ يطرق الباب بشدّة. وجاءت آنذاك تلك السيدة النحيفة، وقالت: «ماذا يحدث؟».

فقلت: «فديتك بروحي، أستحلفك بالله ألّا تفتحي الباب».

قالت: «لماذا؟».

فقلت: «إن فتحتي الباب، فسيضربني ضربا مبرحا، وسيعتقد أنني جئت إلى هنا لأتسول».

قالــت: «من ذاك الذي يمكنه أن يتجرأ على القيام بمثل هذه الفعلة؟».

قلت: «السيد جواد صهري».

قالت: «انهضي، واختبئي في الظلام».

نهضت وذهبت لأختبــئ بالظلام، وفتحت الســيدة النحيفة الباب، فســمعت وقع أقدامه وهو يلج الفناء مزمجرا مع نفسه.

وارتفعت أصوات الفرح من داخل الفناء، ثم حل الهدوء كما هو معهود. فعدت أنا وفتحت باب المنزل، وقد كان الجو في الخارج صافيا ومضيئا، وحملت اللوحات وصرّتي، وقلت: «أنت شاهد يا قمر بني هاشم على ما أعانيه من تصرفات هؤلاء»، وذهبت خارجة من الدار.

في تلك الليلة لم أجمع الصدقات، وكان معي من الطعام ما يسد رمقي، وقد وقفت منتظرة وفي يدي عصاي وحملت اللوحات وصرّتي تحت عباءتي. ثم جاءت سيارة سوداء، فتوقفت وركبتها، وخرجت بنا من المدينة. وترجلت عند بداية زقاق ضيق ومظلم، وكان يلوح من نهاية الزقاق بصيص ضوء. لقد ارتحت من شر كل شيء، وحان الوقت لأهتم بنفسي. وحينما بلغت نهاية الزقاق كان الباب مفتوحا، فدخلت. كان بستانا كبيرا ويكتظ بأشجار قديمة هرمة، تلتف أغصانها حول بعضها، وخرير المياه يسمع من كل مكان في البستان، وكان قد تدلى قنديل قديم مضاء من على شجرة صفصاف. فجلست تحت القنديل، ومكثت هناك في انتظار. ثم جاءت قمر وماهباره وفاطمة، وبدأنا نحن الأربعة في بداية اللقاء بالبكاء، ثم جلسنا معا نفضفض لبعضنا. كانت قمر قد بقيت مدحدحة وسمينة، وقد أصبحت بطنها مترهلة. أما فاطمة فقد ذبلت ولم يبق منها شيء، ولكنها لم تزل تضحك في البدء وتنتهي بالبكاء والعويل. وقد كانت ماهباره جائعة، وكانت تمضغ أصابعها وتجاعيد وجهها في هالة اهتزاز، ولم تكن تعرف ما بها، ولكنني كنت أعرف أنها جائعة، ففتحت صرّتي وفرشتها ومددتها أمامها وعليها قطع الخبز، ولم تزل هي تحتفظ بصرتها

وتحافظ عليها. وشـــرعت ماهباره بتناول الخبز، وبدا لي كأنها نســـيت الأكل فقد كانت تمضغ الطعام وتبلعه بشـــكل غريب. ثم جلســـنا معا وبدأنا بالحديث معا. وقد عاتبنني على عدم زيارتي لهن، وكنت أقسم بأنني لم أكن هنا ولكنهن لم يصدقن كلامي. ثم تحدثنا معا عن التســـول. وقد حاولت أن أحرك فاطمة لتتحدث لنا عن صرّتها لكنها امتنعت عن الحديث عنها. وبعد ذلك ذهبنا معـــا إلى جوار الحـــوض. وحدثتهن عن كل شـــيء، قلت لهن إن الدنيا بخير، وإن أحوالي لا بأس بها، ومنشغلة بجمع الصدقات وأتجول دائما عارضة لوحـــات الأئمة. فقالت فاطمة: «ما دمت تعرضـــين اللوحات هذه، فلتقرئي لنا نعي القاســـم، فقد ضاقت قلوبنا». كنـــا نحن الأربع نجلس تحت الأشـــجار، وقرأت مراثي العزاء للأئمة عليهم السلام: وقد تمالك الضحك من فاطمة في بداية الأمر، لكنها انخرطت فـــي البكاء في نهاية المطاف. وكلنا نحن الأربع كنا نبكي معا، ومن أعماق البســـتان أيضا هناك من كان يبكي معنا.

وعندما انتهيت من دعاء علقمة، تذكرت بيتي وحياتي، وكنت قـــد جمعت كل ما لـــدي وتركته أمانة في منزل الســـيدة أمينة. وقد ذهبت إلى منزلها عصرا وطرقت الباب، ففتحت لي الباب، ففوجئت بـــي وكأنني قد رجعت لتوي مـــن المقبرة، فقد صعقت بمشـــاهدتي وأنا أمام الباب. ولكنني لم أنبس ببنت شـــفة. وقد جـــاء أحفادها ولم تأت ابنتها إذ لم تكن هناك، ولم أســـألها عن مكانها، إذ انني أعلم أنها تكون قد ذهبت إلى الحمام كعادتها.

قالت أمينة: «أين كنت يا أيتها السيدة؟»

قلت: «تحت ظلكم وتحت أكنافكم».

قالت أمينة: «غريب! ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

قلت: «جئت كي أطمئن على أمتعتي».

أشارت السيدة أمينة إلى قبو منزلها، وقالت: «لقد جاء سيد مرتضى والسيد جواد والسيدة حورية لأخذها عدّة مرّات، ولكنني لم أسمح لهم بأن يلمسوها، وقلت لهم جميعا إنك لازلت حية ترزقين، واذا ما، لا سمح الله، ووريت الثرى فلا مانع لديّ وتعالوا آنذاك وخذوا إرثكم».

ومن داخل القبو تعج بالمكان رائحة المخلّلات، والسدر والطحالب، فقد جمعوا في زاوية من زوايا القبو المرطوبة البسط والسجّاد، وقد وضعوا أنابيب المدافئ والسماورات على بعضها البعض، وقد انتشر فوقها جميعاً شيء أصفر يشبه القرنبيط، وقد عكرت جو القبو رائحة غريبة وحينما تتنفس في هذا الجو تحس بالزكام. وقد نضدوا ثلاث طبليات جنبا إلى جنب وبينها ثلاث معزات صغيرة وكأنها ثلاث قطط، وقد كانت قابعة على أرض القبو وهي تأكل البرسيم، وكان هناك أيضا حيوان غريب وعجيب له ذنب طويل ورأس مثلث الشكل، وكان يلحس الأرض بسرعة ويلتهم التراب.

سألتني أمينة: «ماذا فعلت بالنقود يا أيتها السيدة؟»

قلت لها: «أية نقود؟»

قالت أمينة: «قد كتبت لي عزيزة بأنك قد ذهبت إلى مدينة قم لتشتري لنفسك قبرا؟»

قلت لها: «وهل صدقت أنت كلامها؟»

قالت أمينة: «أنا بدوري لم أصدق، ولكن ماذا نفعل لمثل هؤلاء الناس، وأي كلام لا ينسبونه للآخرين؟»

قلت لها: «لا تسمعي كلامهم».

قالت أمينة: «أين تذهبين؟ وماذا تفعلين؟»

قلت: «أذهب إلى كل مكان، أذهب إلى المقابر وأحمل معي لوحة الإمام وأقرأ التعازي الحسينية، فقد أصبحت من المداحات للأئمة».

ابتسم أطفال أمينة عند سماعهم لكلامي هذا، فسعدت بذلك، وأريتهم اللوحة فخافوا وهربوا.

قالت أمينة: «هل اطمئن قلبك الآن؟ وها أنت ترين أن أمتعتك على حالها كما كانت ولم يحدث لها شيء».

قلت: «حفظ الله لك أولادك، أعطني صرّة من صرّاتي، أريد أن أعمل ستارة للوحة».

قالت أمينة: «لا يمكن ذلك، لأن أبناءك غير راضين، وسيأتون ويتشاجرون معي».

قلت: «لا بأس، ما داموا غير راضين، فأنا بدوري لا حاجة لي بها».

خرجت، وتذكرت أنه من الأفضل ألا تكون هناك ستارة تغطي لوحات الإمام الحسين عليه السلام، كما أن غبار المقابر سيحول دون رؤية جماله المبارك بالأعين الدنسة. وواصلت السير إلى أن وصلت إلى مفترق طرق، فجلست وبدأت بقراءة التعازي الحسينية، ووقف الرجال حولي وهم يتفرجون علي. وقد كنت أبكي وأنوح لكنهم كانوا يضحكون دونما سبب.

لم يعد لي هدف، وكنت أتسكع دوما في الشوارع والأزقة، وكان الأطفال يلاحقونني، وكنت أقرأ التعازي، وأبيع ماء تربة الإمام عليه السلام بإناء صغير. وقد بح صوتي، وتقرحت أقدامي، وانخلعت أظافر أقدامي وكانت تؤلمني بحرقة، كأن هناك شيئاً في حلقومي يحول دون خروج صوتي، وكنت أفترش المقبرة وأرقد فيها، وقد غطى العفار والغبار اللوحات ولم يعد وجه الإمام واضحا. لم أعد أجوع، وكنت أشرب الماء فقط، وكنت أحيانا أرغب في التهام التراب مثل ذلك الحيوان الصغير الذي كان قد قبع وسط المعزات وكان يلحس الأرض. وقد اتسع رقع الجرح الذي أصيب به فمي وانخرق وكبر حجمه وانفتح بمقدار حجم راحة اليد، وكان ينزف الدم دوما، وامتنعت عن أخذ الصدقات. وكنت بين آونة وأخرى ألمح أبنائي وسط المارة، وحينما كانت أعينهم تقع عليّ كانوا يخفون أنفسهم عني. وقد كنت في ليلة الجمعة في المقبرة، وكنت أصلي خلف جدران مغسلة الموتى، وإذا بالابن الكبير لسيد مرتضى وسيد مجتبى جاءا ليأخذاني إلى المنزل. امتنعت عن الذهاب معهما، لكنهما أجبراني على الذهاب معهما وأركباني السيارة، وذهبنا معا، وفجأة رأيت نفسي في بستان كبير. فتركاني عند شجرة، وذهبا معا إلى غرفة كبيرة كانت مضيئة، ثم جاءا ومعهما رجل بدين، وهم يرمقونني بنظراتهم. ثم ذهب سيد مرتضى والسيد مجتبى خلف الأشجار واختفيا كلية ولم يعودا. ثم جاء شخصان وأخذا بي إلى ممر مظلم ورمياني في غرفة مظلمة حالكة، وحينها غلبني النوم. وفي الصباح وجدت الغرفة وهي

مكتظة بالمتسولين، وحينما رأوني طلبوا مني خبزا، فبادرت أنا بقراءة تعازي أبي الفضل العباس لهم. ثم جاءوا لنا بحساء في عربة، وذهبنا جميعا إلى داخل البستان لتناول الحساء. ولكنني لم أستطع أن أشرب شيئا، حيث أن الجرح اتسع وملأ فمي. ولم يكن أحد ممن كانوا هناك يبالي بلوحة الإمام التي كانت لدي. وذات ليلة رأيت في المنام صفية وحورية. وفي ليلة أخرى رأيت أطفال سيد عبدالله وفي الليالي الأخرى رأيت الإمام عليه السلام وكنت منزعجة كالناس الطائشين وكانوا يسبّونني من كل صوب ويشتمونني وكنت أريد أن أخرج، إلا أن رجلا قزما كان جالسا أمام الباب، كلما كنت أقترب منه كان يرفع عصاه ويصرخ: «ولّي، ولّي». وذات يوم زارني كمال نجل صفية مع صديق له، وقد بعثت لي معه صفية رزا مطبوخا وخبزا وبصلا. وأخبرني كمال بأنهم يعرفون جميعا أنني في دار المتسولين، ترقرقت عيناه دمعا، ثم أجهش بالبكاء. ثم قال لي إنه بامكاني أن أهرب عن طريق مجرى المياه، ثم أراد أن يهبني أحذيته ولكنه خشي أن يعاقبوه. وقد كنت أخاف من السيد جواد ومن سيد مرتضى. وكنت أخشى الخارج كما كنت أخاف من الداخل. فقلت لكمال: «إن أراد الله فسأخرج». ثم ذهبا، ثم جاء العجوز الواقف أمام الباب، وأخذ نصف الرز المطبوخ والبصل وأعطاني الباقي.

وحل الليل، فاختفيت بين الأشجار، وعندما بزغ الفجر، عثرت على مجرى المياه، وتأبطت اللوحة وصرتي، وزحفت كالحية وسط مجرى المياه، وحبوت بأرجلي ويدي من وسط الوحل وعندما

وصلت إلى الخارج كانت الشمس قد أشرقت وقد غطت البيوت بلونها الناري.

منذ ذلك الحين، وصحتي فـــي تدهور، وقد ازداد خرق جرح فمي وقد ترهلت بطني وكنت أســـتعين بالجدار وأتكئ عليه حين المشـــي. وكان هناك صوت غريب يطن في رأســـي وكأنه صوت صفيح، ولو كان هناك شيء كفوهة البئر يكلمني من داخل الأرض، وكانـــت لوحات التعازي تحدّثني، كمـــا كان يحدّثني كل من إمام الغرباء (الإمام علي بن موســـى الرضا الإمام الثامن لدى الشيعة الاثنا عشرية والمدفون بمدينة مشهد في خراسان) عليه السلام والســـيدة فاطمة المعصومة (شـــقيقة الإمام الرضا ومثواها في مدينة قم) وماهبارة. وذات يوم التقيت بأبناء ســـيد عبدالله وقد أخبروني بأن خالتهم قد توفيت. وقد كنت أعلم ذلك، فإنني أعلم كل شـــيء. وذات يوم ذهبت من غير موعد إلى منزل أمينة، وكان الباب مفتوحا، فولجت الـــدار، وكلهم كانوا هناك، وقد اجتمعوا جميعهم في فناء الدار. وكان ســـيد أســـدالله وزوجته عزيزة قد جاءا من مدينة قم، وكانوا يقسّـــمون ما كنت قد أودعته في قبو منزل أمينة، ولم يرني أحد، إذ كانوا يتشـــاجرون، وكانوا يسبون ويشـــتمون بعضهم الآخر، ويتناحرون ويتوعدون بعضهم الآخر. وكان السيد جواد وسيد عبدالله يتشاجران بشأن السجّاد وكانت أمينـــة تجهش بالبكاء لأنها لم تنل شـــيئا من تلك التركة رغم كل ما بذلته من جهد. وفي لحظة بادرت فاطمة بمناداتي من داخل القبو، وفجأة رآني كمال وعج بالعويل والصياح، والكل التفت إلى الوراء وقد تحدقت عيونهم وحملقت، ثم اجتمعوا حولي وتحلقوا

بي رويدا رويدا. ثم ماج وهاج السـيد جواد الذي تحملقت عيناه وجحظت، وصاح قائلا: «أترين ما تفعلين بنا؟»

فتحت فمي، ولكنني عجزت عن الكلام ولم أتفوه حتى بكلمة واحدة. ثم وضعت لوحات التعازي إلى جانب الجدار فنظروا إلي أولا ثم إلى اللوحات.

قال السيد جواد «افتحي صرّتك، أريد أن أعرف ما بها».

قالت أمينة: «أيتها السيدة افتحي صرّتك ليستريح!»

قال السيد جواد: «طوال عمرها وهي تخدعنا، فلتسرع وتفتح الصرّة».

فتحت صرّتي، ثم رميت بخبزي الجاف أمام تلك اللوحة ثم خلعت خلعتي وعرضتها عليهم، فرموا بنظراتهم إليها ثم أعرضوا بوجوههم عنها وأجهش كمال ابن صفية بالبكاء عاليا.

رسول برويزي
Rasol Parvizi

ولد في مدينة تنكستان التابعة لمحافظة بوشهر جنوب إيران. وهو ضمن الرعيل الأول لكتاب القصة الإيرانية المعاصرة، حيث فرض نفسه كأحد كبار المتابعين لأسلوب جمال زاده - رائد القصة الحديثة - في الكتابة القصصية، لكن انشغاله بالمناصب السياسية، أدّى إلى خروجه من ساحة الكتابة. فلم يستطع أن يخصص مساحة كافية لها مثلما فعل معاصروه أمثال صادق هدايت وبزرك علوي.

عرفه القارئ بمجموعته القصصية «السراويل المرقّعة» التي طبعت في العام ١٩٥٩، وتتضمن قصة نظارتي التي تليكم ترجمتها في الصفحات القادمة. وله مجموعة قصصية أخرى طبعت في العام ١٩٦٧ ولم تحظ باهتمام القراء كما كانت الأولى. وفي أيامنا هذه عندما يتحدث عنه النقاد يصفونه بأنه: قاصٌ يحكي خواطر طفولته وحداثته بلهجة ساخرة يتنبه خلالها القارئ للمآسي الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعانيها المواطن الإيراني في الفترة التي عاشها الكاتب.

قصة نظارتي

هذه الحادثة حيّة إلى درجة أنها تتساطع كالشمس في ظلمة الذاكرة. وكأنها حدثت قبل ساعتين.. لاتزال في المحطة الأولى من ذاكرتي.

في الصف الثامن، كنت لا أزال أعتقد أن النظارة كالعصا وربطة العنق شيء متفرنج يضعه الرجال المتحضّرون فوق عيونهم للجمال والأناقة. كان خالي العزيز الميرزا غلام رضا شديد العناية بمظهره ويرتدي السراويل وفق آخر التقليعات، ويستورد ربطات العنق من باريس، ويفرط في الحداثة إلى حد أنه لُقِّب من قبل أهالي محلتنا بـ «مسيو» وهو أول مولع بالنظارات أراه في حياتي. كان انهماك خالي في تلميع أحذيته واستخدامه السكين والشوكة عند الأكل وغيرها من المظاهر المتفرنجة قد كرّس عندي الاعتقاد بأن النظارات شيء يضعه المتأثرون بالغرب للتأنق والجمال. دع هذا الموضوع جانبا ولنعرّج الآن دقائق على المدرسة التي كانت نصيبي أيام دراستي. قامتي كانت دوما طويلة بالقياس إلى عمري. أمي - حفظها الله ورعاها - كانت تتململ كلما أرادت شراء ثياب لي ولأخي.. تغمز وتلمز بأنكما أشبه برايات تنطح السماء.. ما أطولكما.. تريدان الصعود إلى السماء لتأتيا منها بالحساء! ومقابل هذه القامة الفارعة كانت عيناي ضعيفتين لا تريان الأشياء كما هي. لم أكن أدري أن عينيَّ ضعيفتان... لكنني كنت لا أميّز ما يكتب على السبورة فأتقدم بلا إرادة في كل الصفوف الدراسية إلى الخط الأول من المقاعد

وكلكــم كنتم طلاب مدارس وتعلمون أن الصف الأول من المقاعد يخصــص للطلبة القصــار، وكانت هذه المشــاجرات تحدث في الصف. وكنت أتشــاجر دائما مع الأولاد قصيري القامة، ولأنني كنت فظا وشــريرا بعض الشيء كان المســاكين يستسلمون درءا للاشتباك معي بعد انتهاء الدوام. لكن القضية لم تكن لتنته عند هذا الحد.

ذات يــوم صفعني أحد المعلمين بكل مــا أوتي من قوة وبأس أمام باب المدرسة، ودوّى رنين الصفعة إلى أواسط باحة المدرسة صاكا أسماع الطلاب. قبضت بيدَيَّ على خدي المصفوع والشرر يتطاير من عيني من شــدة الوجع، ووقفت أستمع لسباب مقذع يتدافع من فم الأستاذ، ثم قال:

«هل عميت عيناك؟ ترى أستاذك في الشارع ولا تسلِّم؟!»

تبيَّن أن الأســتاذ مرَّ يوم أمس مــن زقاقنا ولم أره ولم أحيه، ففسّر فعلي هذا تكبرا وغرورا فانتقم مني الآن وأدبني.

ولم أكــن في البيت عديم النصيب من هــذه النقم. كثيرا ما أنهض عن مائدة الغداء، أو العشــاء الممدودة أرضا فتعثر رجلي بقــدح ماء، أو صحن طعام، أو جرّة ماء، فيراق الماء، أو ينكســر الصحــن أو... فكان الأهل يغضبون وهــم لا يدرون أنني نصف أعمــى. أبي ينثر ما يخطــر في باله من ســباب. وأمي تعيّرني وتقول إنك كالبعير النافر، غير منظم وعشوائي وكل لحظة تقوم بالفوضى... ألا تنظر أمامك.. ربما كان أمامك بئر تسقط فيها.

ومن سوء الحظ أنني أيضا لم أكن أشعر بأنني نصف أعمى، بل كنت أتصور أن جميع الناس يرون بهذا المقدار.

لذلك كنت أتقبل السباب، وألوم نفسي في نفسي، وأحضّها على الحيطة عند المشي وأقول لها: ما هذا الوضع؟ تعثر دوما بالأشياء وتخلق لنفسك الفضائح.

وكانت هنالك أحداث أخرى.. لم أتقدم في كرة القدم على الإطلاق. أرفع رجلي كباقي الأولاد، وأهدِّف، وأركّز كي أسدد الكرة صوب الهدف لكن رجلي لا تصيبها! فيضحك الأولاد ويتملكني الغضب.

أفجع المشاهد وقع ليلة عرض شعوذة. كان قد وفد على شيراز شخص يشبه غلام حسين المشعوذ، وتدفق الناس رجالا ونساء وأطفالا، لمشاهدة ألعابه السحرية وخفة يده. كانت صالة مدرسة شابور مكانا للعرض. ومنحني معاون المدرسة بطاقة دخول مجانية. كان للطلاب الأوائل بطاقات مجانية. طرت من الفرح لهذه البطاقة، وذهبت ليلتها وكان مكاني في آخر الصالة. سمّرت عيني على المنصة وضيّقت أجفاني لأرى ما يدور إلى أن اعتلى ذلك الشخص المنصة.. أخرج منديله وبدأ ألعابه السحرية ورأيت كل من حولي تفتنهم هذه الألعاب.. يتحيّرون حينا، ويفزعون حينا آخر، ويضحكون تارة ويصفقون أخرى.. لكنني كلما ضيّقت أجفاني وضغطت على عينيّ لم أرَ ما يفعل الرجل جيدا. تتحرك أمام عينيّ الأشباح لكنني لا أميّز ما هي ومن هي وماذا تفعل. خيم عليَّ الحزن والقنوط، واضطررت إلى التطفل. سألت الذي بجانبي ماذا يفعل الساحر؟ إما كان يعزف عن إجابتي أو يقول لي:

هل أنت أعمى؟! ألا ترى؟ ليلتها شـعرت بأني لسـت كباقي الأولاد لكنني مع ذلك لم أُفطن إلى دائي.. شعرت فقط بأن فيَّ نقصا ما، استحوذت عليّ مرارة مقرفة.

ومن سـوء الحظ لم يفطن أيّ بشر لمشكلتي... جميعهم كانوا يحملـون أخطائـي - وهي نتيجة ضعف بصـري - على غبائي وإهمالي وعدم تركيزي.. وكنت أشاركهم هذه الأفكار.

مـع أننا كنّا قد سـكنّا المدينة منذ أعـوام، لكن بيتنا احتفظ بظاهره القروي. في الميناء كان يفد علينا فجأة عشرة أشخاص أو أكثـر يأتون من الصحراء بخيولهم وبغالهم وحميرهم ضيوفا، ويبقون عندنا أياما. ففي شيراز تواصلت هذه الزيارات المفاجئة. كبا الزمـان بوالدي لكنه لم يترك الجور على نفسـه والتظاهر بالثراء. ومع أن بيتنا وأثاثنا كان مرهونا عند السماسـرة غير أن ضيافاتنا لم تنقطع. كل تائه وابن سبيل يتحرك من الجنوب لا بد أن يمـرّ ببيتنا. رحم الله أبي كان ذا صدر رحب وعلى الرغم من فقره كان يقلد أعمال الملوك.. يبيع ساعته اليدوية ليقري ضيفه.

وكانـت إحدى الضيفـات عجوزا من أهالـي مدينة كازرون. تعمل نائحة للنساء. تقرأ التعازي والمآتم. مهذارة وفضول. وهي مع ذلك عذبة الحديث وقصّاصة. نحن الأطفال كنا نحبها كثيرا. حينمـا تفد إلينا تنتابنا البهجـة والغبطة. في الليالي، تقص لنا القصـص، وتغنّي أحيانا فيصفّق الجميـع. لم تظهر التكلف مع أحد.. تتحدث بصراحة وصدق، وتقصف الناس بعيوبهم كما هي من دون تلميح أو كنايات. أمي كانت شديدة الحب لها.

عمومـا، كانت ضيفة عزيزة على القلـوب. تحمل معها كتاب

زاد المعـــاد وكتب الأدعية والتعازي والمراثي.. تلفّ كلّ هذه الكتب في صرّة ملابس. وكانت لها نظارة. نظارة قديمة لوزية الشـــكل. كانـــت نظارة بالية مكســـورة الإطار، وقد وضعـــت العجوز بدل الذراع اليمنى ســـلكا نحاســـيا، وبدل ذراعها اليسرى خيطا من صوف تلفّه على أذنها اليسرى.

ذات يوم تشـــيطنت فقصدت صرّة العجوز حينما لم تكن في الدار. بعثرت كتبها أولا، ثم أخرجت نظارتها الســـالفة الذكر من علبتها لأشـــبع رغبتي بالمشاكسة وأســـتهزئ بالعجوز في نفسي. وضعتها على عيني لأنصرف وأتمازح مع أختي بمظهري المضحك الجديد. كانت لحظة عجيبة مذهلة لن أنســـاها ما حييت. ما إن وضعت النظارة على عينيّ حتى انقلبت الدنيا بعيني، وكل شـــيء تغيّـــر عندي. أتذكر أنه كان عصر يوم خريفي. الشـــمس باهتة، وأوراق الأشجار تتساقط كالجنود إذا أصابهم الرصاص. لم أكن قد شـــاهدت من الأشـــجار قبل ذلك اليوم سوى كتل من الأوراق المحبوكة، وفجـــأة رأيت أوراقها هذه المرة منفردة واحدة واحدة. وكنت أرى الجدار أمام غرفتنا مســـتويا صافيا والآجر مختلطا، فرأيته يومذاك لأول مرّة كما هو، وكل آجرة مستقلة عن جاراتها بخطوط واضحة تحت ضياء الشـــمس المخطوف. أي لذّة هذه.. إنها الدنيا يعطونني كل ما فيها لأراه.

لم تتكرر تلك اللحظات وتلك الملذّات أبدا. ولم يرتق بعد ذلك شـــيء في نفســـي إلى مستوى تلك الســـاعة الخالدة من العمر. فرحت إلى درجة أنني عصرت نفســـي عدّة مرّات ورحت أرقص وأقفز وأفرقع وأطّق أصابعي ببعضها. شـــعرت بأني ولدت لتوّي

وأن للدنيا معنى جديدا في روحي. فرحت إلى درجة عقدت لساني فلم أستطع التفوه بشيء.

خلعت النظارة فعادت العوالم حالكة في عيني. لكني كنت مطمئنا ومسرورا هذه المرّة. طويت النظارة وأعدتها إلى محفظتها. لم أذكر شيئا لأمي. لو نبست ببنت شفة لأخذوا النظارة مني وانهالت خراطيم النرجيلات على يديّ وظهري. كنت أدري أن العجوز لن تعود لبيتنا حتى بضعة أيام.

وضعت علبة النظارة في جيبي، وقصدت المدرسة ثملا بفرحة العالم الجديد الذي صار في وسعي معانقته.

بعد ظهر ذلك اليوم كان صفنا في غرفة قديمة جميلة. مدرستنا كانت بناية أرستقراطية عتيقة.. كانت حديقة النارنج وكانت غرفها مزينة بالمرآيا، وصفنا كان في أفضل غرف ذلك القصر. لم يكن في الصف نافذة، وكانت له باب صغيرة مملوءة بفنون الزجاج الملون. كانت شمس العصر تسطع على هذا الصف فتتراءى وجوه الطلاب البريئة كلآلئ شفافة جميلة في خاتم ثمين.

الدرس الأول هو إعراب اللغة العربية. معلم العربية شيخ هرم هزل الطباع دقيق النظر له من العمر نحو قرن. كل الذين في مثل سني ممن درسوا في شيراز يعرفونه. كنت واثقا من عينيّ هذه المرّة لذلك لم أجلس في الصف الأول. ذهبت وجلست في الصف الأخير، أردت اختبار عيني بالنظارات.

مدرستنا كانت مدرسة الأثرياء في محلة الأشقياء. لذلك لم يكن عدد الطلاب في المرحلة الإعدادية كبيرا. فكان تلاميذها

كالمحاصيــل المصابة بآفة الأرق يهربــون عاما بعد عام مفضلين العمل فــي المخابز على قــراءة التاريخ والأدب. فــي الواقع أن همــوم الحياة كانت تفــرض عليهم ترك المدرســة. لم يكن في صفنـا الكثير مــن الطلاب. إذا حضر جميع التلاميذ لجلســوا حتى الصف الســادس من المقاعد، وقد اخترت الصف العاشــر لاختبار عيني المسلحة بالنظارة. موقفي هذا إلى جانب سوابقي في الوقاحة والشــرور أثارت في البداية سوء ظن المعلم الشيخ. شــعرت بأنه يرمقني شــزرا. لا بد أنه تســاءل مع نفسه: لماذا يجلس هذا الطالب المشــاغب في الخط الأخير بخلاف عادته؟! ربما كانت هناك غاية في نفس يعقوب!

واســتغرب الطلبة إلى حدٍّ ما أيضا، خصوصا وأنهم يعرفون حالي. كانوا يعلمون أني خضت معارك طاحنة من أجل الجلوس فــي الصف الأول. مع ذلك بدأ الدرس. وكتب المعلم جملة عربية على السبورة، ثم رسم جدولا، ووضع كلمة عربية في العمود الأول من الجدول وقام بإعرابها في الأعمدة المقابلة. في هذه اللحظات اغتنمت الفرصة ومددت يدي وأخرجت العلبة. أخرجت النظارة من العلبة بحذر ووضعتها على عيني. ثبتّ الذراع الســلكي خلف أذنــي اليمنى، وأخذت خيط الصوف إلى أذني اليســرى ولففته عدة مرات حول صيوان أذني وعقدته.

كان وجهــي كوميديا حقــا بتلك النظارة. جســمي الضخم، ووجهــي الكبير، وأنفي النافر الكبيــر المعقوف، لم يكن أي منها لينســجم مع النظارة اللوزية ذات الزجاجة الصغيرة. ناهيك عن ذلــك، فإن ذراعي النظارة الخيطية والســلكية كانا زيتا على نار

المهزلة. مهزلة يمكنهـا إضحاك حتى الثواكل، فما بالك بطلاب مدرسة ينتزعون الضحكة لأفواههم من أي شيء.

لا أراكـم الله مكروهـا. كتب معلمنا المحترم السـطر الأول، والتفـت ليلقي نظرة على الطلاب ويسـتوثق فهمهم من أمارات وجوههم. وفي لحظة وقعت عينه عليّ. ألقى الطباشـير متحيرا وظـل يتفحصني بنظراته لمدة دقيقة. لم أكن قد تفطنت لحيرته فقد كنت غارقا في لذة أذهلتني عن كل شـيء. في الصف الأول كنت أقرأ كتابات السبورة بألف مشكلة، والآن أقرأها بكل سهولة.

كنت ثملا في هذه الحياة الجديدة ولم أنتبه إلى الحكاية التي بدأت تدور حولي. عدم اكتراثي لنظرات المعلم المتسائلة أكد لديه أنها لعبة جديدة مني للسخرية منه وإضحاك الطلاب عليه.

فجأة، انطلق كنمر غاضب، وكان ذا لهجة شـيرازية شديدة، ومصرا على التحدث بالعامية. كان يقول وهو يتقدم نحوي:

يا سلام، لبسـت قناع المهرجين! هل ظننت الصف سيركا أو مسرحية كوميدية؟

كان الصـف هادئـا قبل أن يتفـوّه بكلماتـه والطلاب مولين وجوههم شطر السـبورة، وحين بدأ هجومه التفت الطلاب إليّ وولـوا وجوههم نحو الخلف ليطلعـوا على ما وقع وما أن نظروا إلى الوراء ورأوا نظارتي كما وضعتها حتى ضجَّ الصف بالضحك كأنما أصابه زلزال.

هـزت أصوات الضحـك المهيبة الصف، والمدرسـة. انهالت القهقهات والتعليقات والأصوات فأثارت غضب المعلم أكثر. توهم أن كل هذا مدبّر للسـخرية منه. عـدت إلى وعيي بهجوم المعلم

وضحكات الطلبة، وشعرت بالخطر.. أردت أن أخلع النظارة بسرعة، وما أن امتدت يدي نحو النظارة حتى لعلع صوت المعلم: «اتركها، لنأخذك إلى المدير. بقناع المهرج.. ما أنت والمدرسة والدراسة والكتب؟!»

ها هو الصف غارق في الضحك، وأنا مرتبك متلعثم كأنما ختم على فمي فلم أعد أدري ما أقول. بقيت النظارة الأثرية على عيني وأنا أرمق المعلم من ورائها ذاهلا. طفح به الكيل هذه المرة ووقف أمام طاولتي مباشرة.. إحدى يديه خلف سترته ويده الأخرى مستعدة للصفع. قال وهو في هذه الحال: قم وأغرب، هيا بسرعة، قم وأغرب!

نهضت أنا المسكين والنظارة لاتزال على عيني والصف غارق في الضحك. تحاشيته لكي لا تصيبني صفعته أو لا تصيب وجهي على الأقل، مررت من أمامه بكل ما أُوتيت من خفة لكن صفعته انطبقت على وجهي وانكسر سلك النظارة فبقيت معلّقة، لتزيد من كوميديا الموقف. وما أن أردت إرجاع النظارة حتى أتتني ركلتان قويتان.

لم يكن ثمة مجال للتأوّه والأنين.. قفزت بسرعة وخرجت من الصف.

شكّل المدير والمعاون ومعلم العربية لجنة، وبعد مداولات طويلة قرّروا فصلي. حين أرادوا إشعاري بالقرار، ذكرت لهم قضية بصري الضعيف. لم يصدقوا في البدء، لكن لهجتي كانت صادقة إلى درجة تؤثر في الصخر.

وحين وثقوا من ضعف نظري تجاوزوا عن إساءتي، وقال

أستاذ العربية بلهجته المعهودة:

لِمَ لمْ تخبرنا قبل هذا.. لا وفقك الله.. كان عليك أن تخبرنا من البداية. غدا حين ينتهي الدوام، تأتي إلى شارع شاه جراغعند دكان الميرزا سليمان العويناتيّ.

في اليوم التالي، بعد عمر من المحن، وبعد مهانة يوم أمس، ذهبت عقب انتهاء المدرسة إلى صحن شاه چراغ، وقصدت دكان الميرزا سليمان العويناتيّ. وجاء أستاذ العربية فأخذ النظارات واحدة واحدة من الميرزا سليمان ووضعها على عيني وقال: انظر إلى ساعة حرم شاه چراغ، حتى ترى العقرب الصغير؟ اختبرت النظارات واحدة واحدة إلى أن استطعت أن أرى بواحدة منها العقرب الصغير في ساعة حرم السيد شاه چراغ.

أعطيت الميرزا سليمان خمسة عشر ريالا وأخذتها منه ووضعتها على عينيّ، وأصبحت من حينها «أبو نظّارة».

محمد أيوبي(١٩٤٢ - ٢٠١٠)
Muhammad Ayobi

ولد في مدينة الأهواز التابعة لمحافظة خوزستان جنوب غربي إيران. كتب محمد أيوبي القصة القصيرة والرواية على مدى عقود. تعكس قصصه أجواء الجنوب وغالبا تحدث وقائعها في فضاءات الجنوب الإيراني.

صدرت مجموعته القصصية الأولى وتحمل عنوان «الجنوب المحترق» قبل انتصار الثورة الإسلامية وتتالت بعدها قصص وروايات أخرى ومنها: أغنية الجنوب الطويلة، أقنعة التسليم، تحت مظلة الشيطان، ساقٌ للركض، ازدهار الصخر وغيرها.

رواية يوم الخنزير هي قصة رجل يحتمي بقواه الجسدية في تصرفاته لمواجهة الناس والحياة ولا يستخدم عقله لإدارة أموره ومع ذلك فإن خلجاناته الروحية تدل على أنه يتظاهر بالغباء. للتعرف على أسلوب هذا الكاتب نقرأ صفحات من رواية «يوم الخنزير».

يوم الخنزير

أترين يا امرأة؟ هل صدقت الآن؟ ألازلت مرتابة؟ لا لا ترتابي. هو أنا! حبيب ذاك المجنون المريك الساذج البسيط، ذاك الذي على حد قولك وقول أختي: «إذا ما دخلت فمه ذبابة فلا سبيل لها إلا الموت لأنّه لا يفتح فمه أبدا!» الآن يقضي معظم يومه أمامك، أو يتمشى على حد قول إيرج كما يمشي المعلمون بلا خوف ولا فزع، وهو لا ينفك يتكلم، حتى إنه لا يسمح لكِ بأن تتفوهي بكلمة؟

كم مرّة - أقسم بحياة علي - في هذه الأعوام، كم مرّة أردت أن أخبرك. وقد انتبهت لي أيضا عدّة مرات وقلت: «ماذا؟ لماذا أنت تحدق بي هكذا؟ أتريد أن تقول شيئا؟ هل تتمكن من الكلام؟ ألم تسمع الجيران أخذوا يتكلمون مع بعضهم بصوت مرتفع، ويقولون لبعضهم إنه بُكم أو على وشك أن يبكم ألم تلحظوا؟ فهو لم يعد يجيب السلام، أو يجيب كالبكم بكلام غير مفهوم. حسنا لِمَ أنت الآن تحدق بي هكذا؟ هل تريد قول شيء؟».

وأنا، طبعا كنت أحاول... حتى إني - إذا كنت تتذكرين - في إحدى المرّات دلّكت عضلات حنجرتي وبلعومي بيدي عسى أن أنجو من انقباض العضلات هذا وأتمكن من أن أقول لك: «نعم سيدتي العزيزة! أريد أن أتكلم، وأحكي لك بنفسي عن كل ما تسمعينه في الدنيا من هذا وذاك. هذا وذاك الذين اعتادوا أن يضخموا الأمور ويصنعوا من القشة حمل بعير! نعم أريد أن أتكلم، لا ليوم ويومين، بل لأربعين يوما وليلة إن تطلب الأمر، نعم

كلامــك صحيح، أصنــع ألف ليلة وليلة جديــدة، فأنا عائم جيد إلاّ إنــي لــم أجد ماء» لكني لم أتمكن. كان يجــب أن أكون مهيئا كما أنا الآن، حتى أريك جراح القلب جرحا جرحا وأشــفي بعض غليلي. أشفي غليلي مما كنت أحتمله من كلامك الجارح وما كنت أحتملـــه من إهاناتك التي كنــت تتهالين بها علي كل حين وتدمين بها فؤادي.

كنــت أريد أن أكتب لك كل هـــذا عوضا عن الكلام وأكتب لك أنــت بالذات حتى تذهلي من شــدة التعجب، لكني لم أســتطع! فالرياح لا تجري بما تشتهي سفني وسفنك! فلو كان كذلك لادعى الجميع بالألوهية - أســتغفر الله - فنحن البشر على الرغم من ضعفنا ومسكنتنا لا نرحم بعضنا بعضا ونفعل ببعضنا الأفاعيل! فماذا لــو كنّا نتمتّع بالبطش والقدرة؟ لا تخافي فأنا اســتطعت التكلم فحســب ولست قادرا على شيء آخر. وهذا أيضا لا أقدر عليــه إلاّ وأنا في هــذه الزاوية من الغرفة وبعــد أن ظفرت بك وحدك على سريرك وصنعت بك ما يجبرك على الاستماع فقط.

اســمعي يــا بنت، لقــد تعبت، لا ليــس من الشــيخوخة! أيّ شــيخوخة؟ ومــا الذي بلغته مــن العمر؟! أنــا لا أعلم على وجه التحديد ولكنك بإمكانك أن تســألي من بتــول أختي، فهي تعلم على ما أظن. اســأليها في ما بعد إن اســتطعت. ليس الآن، في ما بعد. لكن صدقيني ليس من الكبر. أ أقســم لك؟ ولمَ أقســم بحياة علي؟ إذا كان لا بد من ذلك فيجب أن أقسم بحياتك أنتِ! هل اســتأت! اعذريني، فأنا لا يروقني اسم «كلچهرة». لا أعلم لماذا تفضلــين وتصرين على أن ينادوك بـ «كلجهرة» أو «بريوش»!

أنا؟ أفضَل اسم «أختر» أكثر من غيره. لماذا؟ من غير سبب. **الآن** تسألين عن السبب؟ لعل السبب هو أن حلاوة كلامك الأول **لاتزال** في نفسي بعد كل هذه الأعوام، ألا تذكرين؟ أول مرّة عندما **قلت:** «اسـمي أختر، أعمل في شـركة إيران غـاز!» ألا تصدقين **أنني** مازلت أذكر هذا؟ أنا لم أنس الذكريات الحلوة على قلتها. **كما** أنـي لم أنس الذكريات المرّة والإهانـات والأذى على كثرتها، **فلم** أنس حتى واحدة منها. ثم يقولون لي: غبي! أبله! فلم أتحمل **الألم** من «سـلطان» وحده. صحيح أنه كان يضربني ويضربني **ويقول:** «اضربهـم حتى يصبح هؤلاء الصبية رجالا حتى لا **يستسـلمون** لنكبات الدهر وأدنى آلام الحياة، هذا فحسب!» لكن سلطان **كان** أحدهم، ماذا عن الآخرين؟

كانت طفولتي في مدينـة «دزفول» عبارة عن جحيم يا **أختر!** لا أسـتطيع أن أصفها بالكلام والسـمع لا يغني عن البصر **كما** يقولون. ما إن تغفل حتى يصيبك القرع لكثرة وجود القرعان. **على** ضفة النهر، في السوق، تحت السقيفات، كلّ مكان يموج **بالأطفال** القرعان. يكفي أن تهمل نفسك فإذا بك مصاب بالتراخوماو **من** ثـم العمى، فما أكثر العميـان الذين كانوا عندنا هناك. **كنا نلهث** تحت سطوة شـمس القيظ حتى نكاد نلفظ أنفاسنا **الأخيرة من** شـدة العطش. كنا إذا ما وصلنا إلى بركة، أو سـاقية، **أو جدول** ماء صغير يتمتع ماؤه بشـيء يسـير من النقـاء **والصفاء وأعني** بهـذا أنه ليس كدرا وليس نتنا، لـم يكن العطش يدعك **أن تفكر** فـي جنة ولا نار. فقط يكفـي أن تعلم أن النهـر بعيد **عنك، بل** مـا الفرق أصلا بين ميـاه البركة ومياه النهـر، **فهل كنت تظنين**

أنها أنقى وأعذب؟ كنا نلقي بأنفسنا في هذه البرك والغدران كالولهان ونكرع الماء كما تكرع البقرة العطشى حتى نرتوي. ثم لم تمض أربع وعشرون ساعة حتى يبدأ دور المغص وآلام المعدة التي لا تبقى لك معها حيلة. فقد كان من الممكن العثور على أنواع الموجودات الحيّة كالأفاعي والعقارب والضفادع في بطنك نتيجة لتلك المياه الملوثة. فالمحظوظ من كانت الضفادع الحيّة تسبح في بطنه. فلو كانت أفاعي، أو عقارب لانتهى أمره. كنت في الخامسة وكنت أرى هذه المشاهد، قلت لك؟ لم أنس شيئا ما. كان لجارنا ابنة في الخامسة أيضا وكانت تسمى خديجة. كنا نلعب مع بعضنا أحيانا. خرج من بطنها مخلوق عجيب غريب. كلنا رأيناه. في البداية قضى على الطفلة ثم خرج من حلقها مع أنفاسها الأخيرة. تصوري أنه يشبه العقرب، بيد أن له ذنبا كذنب الأفعى وأرجلا كأرجل السلحفاة. في البداية كان بقدر قبضة اليد، لكنه بعد أن خرج صار يكبر ويكبر كأنه شيء مسحور. ثم أخذ ينفخ على الجميع حتى أخافهم ثم ذهب إلى السقيفة والكل شاهده يخرج من السقيفة لكنه غاب عن الأنظار فجأة! وكأنه لم يكن أصلا. فلولا موت الطفلة لما صدق أحد ما كان رأى، أمّ الطفلة صنعت ما صنعت فقد كانت ابنتها الوحيدة وكانت قد أنجبتها بعد اللتيا والتي وبعد علاج طويل، أنجبت هذه الطفلة. الله يعلم كم كانت تتصدق للحفاظ على ابنتها من الحسد. ولأقل لك: لم يكونوا ميسوري الحال. كانت تتصدق بطعام يومهم إلى الفقراء حتى تبعد عن طفلتها العين الحاسدة. وكم كانت جميلة تلك الطفلة، فعيونها الزرقاء مازالت تراودني في المنام وتعمل بي

ما يجبرني على الصراخ والاستيقاظ من النوم. ألم تتنبهي عندما أستيقظ من النوم مرعوبا؟ ذلك لأنني أنام في النهار. فهل نسيت أنني كنت أذهب مساء للعمل في المسلخ وعندما كنت أستيقظ مرعوبا من تلك العينين الزرقاوين كنت أنت في العمل غالبا، لكن أختي كانت ترى هذه الفزات.

بعد موت أمي - هل تعلمين؟ - ولعل أختي قد قالت لك بعد موت أمي اضطررت إلى العيش مع أختي هذه.

هل سألت نفسك في تلك الليالي الثلاث، عندما دفعت مبلغا وعرفت شابا بدلا مني على سلاخي المسلخ، حتى أستطيع أن أحضر ليالي زفافي، هل سألت نفسك لماذا لم أطبق جفني طوال الليالي الثلاث، ولماذا لم أنَمْ؟ هل نسيت عندما كنت تستيقظين كنت تسألينني: «ألاتزال صاحيا» أو«أنت استيقظت أيضا؟» أو «كنت تنظر إلي وأنا نائمة؟» أترين، إنك أكثر غباء مني، حيث نسيت كل هذه الأمور! وكم مضى عليها حتى تنسي؟ أحاول أن أذكرك: أظن أن أختي اختلقتها من نفسها: «أمي كانت قد بنت لكم أحلاما أنتم الأولاد، على الأخص لك يا حبيب لكن ويالالأسف حقا فقلب الأم في وادٍ وقلوبكم في وادٍ. هي قلقة ألا تؤذيكم شوكة وأنتم ولا كأنكم بشر. حقا كوني كلبة ولا تكوني أما».

لم تكن جادة في كلامها. عندما توفيت أمي لم نكن نحن الأولاد في سن تؤهلنا للزواج وإدارة أسرة. يمكن أن مجيدا، أو عزيزا بما أنهما كانا أكبرنا سنا، كان باستطاعتهما ذلك، لكن لا، فكم كان عمرهما؟ أنا؟ قولي خمسة عشر وعزيز ستة عشر،

أو لعله سبعة عشر: عندما ولد عزيز أجبر أمي على أن تفطم مجيدا. فلم يرتو مجيد من اللبن. عندما كانت حبلى بعزيز كانت النساء تقول لها: «إن هذا أسوأ من السم يا زري، هذا اللبن الذي ترضعين به هذا الطفل ليس غير نافع فحسب، بل هو مضر أيضا! افطميه!» وكانت تقول أمي في جوابهن: «إذا لم أعطه هذا النزر من القيح والدم على أنه لبن فماذا أعطيه إذن؟ لعلكن تردن مني أن أضحّي بأحد أولادي من أجل الآخر؟! إذن ما الفرق بيني وبين الكلبة التي تأكل أحد أولادها عند الإنجاب كي تتقوى به وتستطيع أن ترضع جراءها الأخرى».

وكن يقلن لها: «أعطيه لبن البقر، أو الجاموس، أو ما شابه، أعطيه شيئا، هذا حرام والله».

وكانت أمي تجيبهن: «حقا أن الراكب لا يشعر بالراجل والشبعان لا يشعر بالجوعان تتكلمن ببطر! بأي نقود؟ أتظنن أني أملك المال وأبخل به؟ والله إن سلطان لم يترك لي شيئا. نعم كان عندي في يوم من الأيام وكنت أمتلك من الذهب فقط كيلوين! وأما الآن فلم يبق منه سوى حسرته التي تكوي فؤادي».

كنت أقول: «أختاه ما جدوى هذا الكلام الآن؟» كنت أقول في قلبي، وأنظر إليها فقط، حتى تفقد أعصابها وتقول: «قل شيئا يا حبيب، لماذا أنت ساكت هكذا! لمَ تحدق في المرء هكذا وكأنك أبكم؟ فالمرء يخاف من نظراتك هذه والله. من أجل هذه النظرات الناس يتهمونك بالجنون فلتقل شيئا!» أنتِ أيضا كنت تقولين: «هل يجب أن أتكلم أنا فقط؟ طيب تكلم أنت أيضا بكلمة، كي لا يقولون زوجك أخرس!».

لـــم أكن أســـتطيع، كنت أنـــوي ذلك، عندما كنـــت أخرج كنت أتشـــاجر مع نفسي إلى حد الإعياء وكنت أقول في نفسي عندما أرى أختـــر، عذرا كلچهره، ماذا يعجبـــكِ في كلچهرة؟! طيب كلچهرة كنت أقول في نفســـي عندما أرجع ســـأقول كذا وكذا وســـأضحك وأمازحك وأضـــرب على فخذك مازحـــا. لكني لم أستطع. عندما كنت أصل وبمجرد أن تقع عيني على أيّ شخص في البيت، يصيبني الخرس. في رأيك كيف حصل وتزوجنا؟

قالت أختي: «يا مســـكين أيّ عمل هذا الذي تعمله؟ أتظن أنك تستطيع هكذا الاســـتمرار في الحياة؟ ترتدي الثوب حتى يهترئ على جسمك ثم تبدله بثان وهكذا مع الجديد؟».

كانـــت أختي محقـــة. في الليـــل كنت أرتـــدي ملابس قديمة للعمل في المســـلخ. كانت كأنها ملابس جلدية لكثرة ما علقت بها الدماء والشـــحوم لقد صار لونها قاتما وغريبا يشبه لون الدماء عندما تجمد وثقيلة ومتصلبة وكأنها من الكرتون، أو البلاســـتيك الســـميك حتى إنك لا تســـتطيعين أن تهتدي إلى لونها الحقيقي الـــذي كانت عليه يومـــا، أترين يا أختر؟ الآن وقد اســـتطعت أن أكلمك وعينـــاي في عينيك مازلت أتلعثم فـــي الكلام كما يتلعثم المرتبكون، أو المعاقون – على حد قول إيرج ابن أختي – يجب أن أجد حلا أساســـيا. ليتني كنت أســـتطيع أن أتكلم كما يتكلم إيرج علـــى الأقل، لكنه متعلّم وتعليمه جيد وقد تحســـن الآن ولعله إذا كان هنا كان ســـيعلمني طريقة التحدث، تذكرت: كان دائما يقول: «خالي حبيـــب! حاول أن تتكلم عن جميع المواضيع كما تتكلم عن أفلام خنســـاء العرب وعنتر وعبلة وشزم والصاعقة وعلى سبيل

المثال المشـــرد والساحر وإســـبارتاكوس وبن هاور وسائر الأفلام التـــي كنت قد شـــاهدتها. بنفس الطريقة، أي كمـــا لو تتكلم مع نفسك كيف تكون عندها مرتاحا ولست مرتبكا وتستطيع بسهولة أن تعبرّ عما في داخلك، والآخرون يســـتطيعون بســـهولة فهم ما تقصده».

يجـــب أن أحاول أن أتكلم معكِ بنفس السلاســـة التي علّمني إيّاها إيرج حتى لا أرتبك، وأنتِ أيضا تستطيعين فهمي. سأحاول: أبدأ بالأمور التي تعرفينها جيدا، بالأمور التي كان لك فيها دخل مباشـــر: يجب أن أحاول، دعينـي أرى مـــا الذي أعرفه جيدا كما أعرف نفســـي وأعرف حالاتي الشـــخصية مثلا. المسلخ أعرفه جيـــدا، حتى أكثر من نظرتي إلى الأشـــياء! كان إيرج يقول: «إذا حدّقت في شـــيء، أيّ شيءٍ كان، ترخي جفن إحدى عينيك حتى تبدو وكأنها نعسى ثم تغلق الأخرى، على حد قول أمي تبقى عينك مفتوحة بقدر شـــرخ قدم الفلاح، وفـــي الظاهر أنك تبصر بتلك العين المفتوحة، لكنك تنظر بالمطبقة وتفهم الأمور من خلالها».

إن بيتـي الحقيقي كان المســـلخ ولعـــل صعوبة نطقي هـي لكثرة نظري إلى مشـــاهد المسلخ. في المســـلخ الناس لا يتكلمون كثيرا، لكنهم ينظرون عوضا عن ذلك بشـــكل مستمر. العمل في المسلخ مهم وأساسي، ســـواء كان للذابح، أي الجزار، أو للبقر والأغنام، أي الضحية والمذبوح. لم تشـــاهدي حالـــة الحيوان الذي يذهب نحـــو الجزّار ليلقيه أرضا باتجاه القبلة ويذبحه ثم يقذف الرأس جانبـــا ثم يلحق به اليدين والرجلين حتى يســـتجلب نظر الطباخ وترتســـم في ذهنه طبخة دســـمة تروق للزبائن، أو أنه سيســـتاء

ويقطب وجهه ويقول متذمرا «يا إلهي هذا الرأس أيضا كسابقاته لا تكاد تجد في وجهه مثقالا من اللحم لشدة الهزال! في النهاية ستضيعون مني الزبونين أو الثلاثة الذين حصلنا عليهم أنا وأخي بالكلام الجميل والأخلاق الحسنة!».

أما الشاة، أو الماعز فتجلس في زاوية وقد رأيتها ترتجف بعض الأحيان عندما يذهب الجزار نحوها وبيده السكين والشاة مقيدة كي لا تتمكن من الهرب. وأين تهرب؟ أينما تجول ببصرها ترى الذبائح من فصيلتها معلقة من الكلابات ورائحة الدم والموت قد أصابتها بالدوار وهي ترى أن السكّين التي تأتي نحوها يقطر منها دم أمها وأبيها وأخيها التي كانت أمامها حتى البارحة رابضة تشترى في خير وعافية وتطلق بعض الثغاء أحيانا عندما تشبع من الطعام.

رائحة الدم، رائحة الموت المبتلة واللزجة كانت تغرز جسمي كله. في الليلة الأولى، كانت تغرزني وتلسعني لسعا في حين كانت يدي مبتلة من العرق في كف سلطان السمينة والقوية. منذ الليلة الأولى دخل معي هذا العرق والنتن واللزج إلى المسلخ ولم يفارقني بعدها. كانت عيناي تعشو ولا أكاد ألمح شيئا في عتمة الضباب والهواء المرطوب، سوى نعيق الحيوانات ولا أكاد أرى شيئا سوى جثث الذبائح المعلقة على الكلابات ولا تعلمين كم هو مخيف هذا المنظر؛ إن تمسك بيد طفل صغير حتى لا يكاد يستطيع الإفلات وتأخذ به إلى صالة كبيرة ممتلئة بالكلابات والشباثات الحديدية التي تتأرجح من بعضها جثث الحيوانات المسلوخة عن جلدها، التي سلخت عنها جلودها من حيث علقت حتى وصلوا

بها إلى صدورها وأيديها في الأسفل فتُركت متدلية كما لو كانت شماسي بيضاء مقلوبة على الصدر والأيدي لا تكاد ترى من تحتها إلى حين. ثم الذبائح المشقوقة إلى نصفين. فالأنفاس لا تكاد تصعد إلى الأعلى. في وسط الصالة وعلى أرضيته تنتشر البالوعات. البالوعات التي تبتلع وتمتص الدماء من دون وقفة والتي يبدو أحيانا صوت امتصاصها كقهقهة المجنون. بين الحين والآخر يلقون بحيوان على الأرض وعلى بقايا الدماء التي أريقت من الحيوانات التي سبقته ولمرتين لا أكثر يمررون السكين على المصقلة كما لو كانوا في سباق يصقلون السكاكين وهي تبرق تحت ضوء المصابيح المعلقة في أعلى السقف حتى لا تكاد ترى كما لو كانت قد وضعت في انتهاء نفق طويل، فماذا يمكن للطفل أن يرتسم في ذهنه في هكذا أجواء؟ ما الذي كنت أتصوره أنا؟ كنت أرتجف وأقول في نفسي إن سلطان لا يحبني من دون شك ولكن حتى لو كان يحبني ماذا عساه أن يفعل إن التبس على جزارٍ الأمر وتصورني شاة (الشياه كانت أصغر مني بكثير) إذن من الممكن أن يلتبس الأمر على ذاك الجزار الأعور مثلا والذي كانت عينه تلك الصحيحة أيضا قد احمرت وارتسمت عليها بعض البقع، ماذا إذا أخذني بدلا من الشاة وبطحني أرضا. فحتى يأتي سلطان ويقول: «ماذا تفعل! هذا ولدي هذا حبيب!» يكون الجزار قد سحب سكينه على رقبتي وألقى برأسي أيضا مع رؤوس الشياه التي يقلبها الطباخ بقدمه ويقول مستاء من هزالها «وهذه أيضا هزيلة» أشعر بأن هذه هي أنفاسي الأخيرة التي تتردد في صدري...

شهريار مندني بور (١٩٥٦)
Shahriar Mandani Poor

قاص وروائي ولد في مدينة شيراز. ويعتبر من الأسماء اللامعة في قائمة الجيل الثالث لكتّاب القصّة الإيرانية الحديثة.

صدرت مجموعته القصصية الأولى في العام ١٩٨٩م واعتبرها النقاد من القصص التي تنتمي إلى المدارس الحديثة وما بعد الحداثة من حيث البناء اللغوي والأسلوب السردي.

يعتبر هذا الكاتب اللغة جوهرا للكتابة القصصية ولا يستخدمها كوسيلة لنقل المعلومات. له كتاب بعنوان «أرواح شهرزاد» يختص بفنون الكتابة القصصية الحديثة. وله رواية بعنوان «شرق البنفسج» وأيضا له عدة مجاميع قصصية ومنها «اليوم الثالث للأرض»، «قمر الظهر»، «زرقة ما وراء البحار» وغيرها.

إنسان الأرض

يوم من أيام الربيع، نحو منتصف هذا القرن، كان السيد فَرَهْ مَند، أستاذ قانون البحار يتحدث إلى خطيبته الجميلة، حتى قال آخر ما قال:

ليس لـــي حيلة أخـــرى... اغفري لـــي وللدهر أيتهـــا الفتاة الطاهرة... إذا كانت لي رجعة في مثل هذا اليوم بعد أربعة أعوام فلتكن، وإن لم أجدك في هذه المحطة في انتظاري فسأفهم أنك لم تســـتطيعي البقاء وفيّة لي...أنت حرّة... مخيّرة...لا تشـــغلي بالك بي...

وضع خاتم خطوبته في كف حبيبته زمرّد وأسرع مبتعدا لكنه فكر بهدوء: «ما كان احلى تينك العينين الزمرديتين خلف الدموع بـــلا تزويق». لكنه وخوفا من تـــردد يعتري خطواته قرّر ألا يفكر في خطيبته مجددا. كان قد ســـحب جميع أرصدته من المصرف قبل بداية عطلة رأس السنة الجديدة وأقفل بابه للأعوام الأربعة القادمة. تحرّك القطار ومع ارتفاع قرقعة عجلاته المعدنية على سكك الحديد؛ ضرب السيد فَرَهْ مَنْد بقبضته على فخذيه قائلا: «أستطيع أن أن جح انج ح سانج ح».

في أعماق غابات شـــمال البلاد، ابتاع كوخا نائيا وحيدا وكوّم تلا من الطعام المعلب فيه، حيث ســـيبدأ عهدا جديدا، مجهولا، بـــلا عنوان لمعارفـــه، أو جريدة، أو كتـــاب، أو أوراق أو أقلام، أو مذياع، وبلا أي شيء قد يتيح له إقامة أي اتصال خطير؛ جامعا حياة مترهبنة في كل ذلك. ولم يعثر على راحته المنســـيّة إلا بعد

أن أنهى توضيب كوخه. خارج ملجئه، جلس على جذع شجرة مُلقى، وحدّق في الوادي الذي يكوّن المشهد أمامه. كان الليل في الطريق وبدأت أشجار البلوط العتيقة بالاختباء في كتل الضباب المتصاعد، وتألقت أول نجمة في السماء الزرقاء. تسلى باستنشاق رائحة عصارة أشجار الكمثرى الجبلي والنباتات البريّة التي كانت تعبق بها الأجواء. تأوّه طويلا: «قطعا سأنجح... لطالما تغلبت على مشاكلي لوحدي، يواجه الإنسان دائما عقود العدل لوحده إلا في المعرفة وعظمة البعث...».

لم يفكر السيد فره مند طوال عمره الأربعيني هكذا. في آخر يوم من حياته السابقة، وفي صف المحاضرة، عندما كان يتحدث حول «قانون المضايق» كان يفكر: «اللحظة التي أراها هي كل شيء، حتى لو لم يكن ما أراه هو كل شيء....» ومن نظرات طلابه المرتعبة انتبه إلى ما يجري خلفه؛ رأى ثلاثة رجال يقتربون منه، كانت ملابسهم بَهِجة اللون، مع ربطات عنق حريرية منتعلين أحذية لمّاعة بيضاء. سألهم السيد فره مند:

- كيف أستطيع مساعدتكم؟

- يجب أن ترافقنا لتوضيح بعض الأمور.

كان السيد فره مند يريد أن يقول: «قطعا أنكم مخطئون» لكنه أدرك غريزيا أن أي كلمة ستكون حماقة منه. ذهب برفقة الرجال الثلاثة من دون أن يودع طلابه. كان يتوقع أن يُزَج به في غياهب الزنزانات لكنه على العكس أخذ إلى قصر صيفي في أعالي مصائف المدينة.

- لا تخف، نحن عكس جهاز الأمن، لا نؤمن بالعنف.

يشـــقّون طريقهم من شـــارع مفروش بالرمـــال على الظلال المتقاطعة لأشـــجار الإســـفندان المتبقية بين سبات شتوي وحياة ربيعية، تسلقوا سلالمَ من المرمر الأخضر الصافي داخلين صالة مســـتديرة تفتح ســـبعة ممرات أفواهها في النصـــف الثاني من دائرة الصالة. كان تألقها الشـــديد يمنع رؤية نهايتها. كان السيد رُخ جالســـا خلف مكتبه بعينيه المبهمتين يفتح ملف الســـيد فره مند.

- لا تقلـــق حول موعدك الليلة. لقـــد أبلغت خطيبتك المثيرة للشفقة شخصيا أنك معتقل.

حدّق السيد فره مند بعينيه اللتين كأن فيهما عِرق من اليشب الأخضر سائلا:

- حسنا، ما الأمر؟

- علـــى العكس منك أنا في حاجة إلى تمهيد. في الحقيقة لا أســـتطيع أن أخبرك الأخبار السيئة... اسمح لي أن أهنئك قبل كل شـــيء، على قرارك حول عدم التواصل جسديا مع خطيبتك قبـــل الزواج بها رســـميا في هذا الزمن المنعـــدم القيم، وعندما أهديتها عشـــية العيـــد تلك الأقراط الزمرديّـــة الباهظة الثمن، أيـــا كان مكانك قطعا كان ليصطحبها معـــه إلى البيت و... لكن التنبؤ يخبرنا أنك لن تفعل هذا... رجاء.. لا تقاطعني، لانشـــغال بالي الشـــديد الذي أعانيه؛ أفقد تركيزي بســـرعة، خاصة في هذه الظروف المجهدة التي أســـعى خلالها لإنشاء جمل رسميّة، كمـــا تبلغك نوعا من التعاطف والتفهـــم... حقا إن المصطلحات القانونيـــة جامدة وبلا روح، وتفتقر إلى الدلالات الضمنية، لعلك

تستطيع أن تساعدني في ذلك... كيف يمكن إخبار أحد بعقوبته لارتكابـه جريمة لا يمكن التهاون بها وقابلة للتنبؤ في مستقبل غيـر بعيد؟ إقناع المتّهم بعدم قبول اعتراضه على أهلية المحكمة وانعدام الاستئناف والعفو. هل يمكن التعبير عن كل ذلك بجمل دارجة وضيقة؟... لكن الحقيقة... لا أعرف يا صديقي، حقا إن ما أراه ليس كل شيء.

يصيح السيد فره منذ محتجا:

- لكنني متأكد من ذلك... يا سيد رخ و... أؤمن بنفسي ومتيقن أني لم أرتكب أي مخالفة، ولن أرتكب أيّ خطأ أبدا....

- أنت ذكي جدا... ميزتك هذه قد أدرجت ضمن ملفك كأول ميزة لديك... أنت حرّ حاليا.. لكن تعال معي لأريك شبكة تنظيماتنا، وبعد التعرف على دقّة وصحّة تحرياتنا لن يبق لديك أي احتجاج آخر... فلنذهب.

نهض السيد فره منذ من مكانه ودخل الكوخ، لم يكن فيه فانوس. كان قد قرّر أن ينام عندما يحل الظلام وأن يستيقظ مع أول خيوط الضوء. فعل ذلك كل تلك السنين التي قضّاها هناك. غير أنه كان حريصا على الاستيقاظ مع أول لحظات الفجر. عوّد نفسه أن يحفر خطا على العمود الذي يتوسط كوخه مع مرور كل ليلة، وأن يفطر عندما تتحوّل الأوراق القاتمة لأعماق أشجار البلوط القديمة في الوادي تحت أشعة الشمس إلى الأخضر الفستقي.

أمضى الشهور الأولى في تناول الأغذية المعلبة ثم فكر في أن يوفر غذاء طازجا. كان قد حرّم الصيد على نفسه - لعل

السبب كان جريمة سلب حياة الأحياء - ذهب يوما ما إلى قرية نائية وابتاع عنزة ونعجة وعددا من الدجاجات وديكا. في السنة الثانية فكر في الزراعة والحصاد. كان قطع الأشجار محظورا؛ عثر على تلة عارية استصلحها وبذرها قمحا؛ مع أنه كان يرى نفسه تحت عين تراقبه. لكن غضب أمطار مارس، وزمجرة رعدها البليغة، جرفت زرعه إلى أسفل الوادي. لكن السيد فره مند بعزمه الصلب هبط من تلّته تاركا إياها للفصل المقبل. كانت معزوفة مزمار طبقات الأوراق النخرة المتعنفنة؛ قد أحاطته، وكان صوت السيد رخ، ينعكس ويرنّ في كتل الضباب الحائرة والمأسورة دوما، بين صخور جدران طاحونة الجبال العالية:

- آسف لرفضك الاتهامات؛ أغلبية المتهمين يذعنون لعقوبتهم بعد أن نستضيفهم أياما ويتعرفون على طريقة عملنا قابلين نبوءتنا... الطمأنينة، راحة الضمير، التطهير،... تظلم نفسك بذهابك... اذهب...

بدت عينا السيد رخ تحت ضوء البراد كأنها ندى أخضر؛ كان لايزال محدقا به عندما حفر السيد فره مند خطه الثلاثين بعد السبعمائة على العمود، وقام وهو مكشّر أسنانه بتقليد حركات السيد رخ وقال:

- وفق التقديرات، حتما ولغاية نهاية العام الرابع المقبل سترتكب الجريمة... مازلنا نعاني نقاط ضعف، لكن سرعان ما سنتمكن من التنبؤ بمكان وزمان الجريمة....

في نهايات السنة الأولى كان السيد فره مند يتلهف لقراءة جملة، ولو حتى واحدة من كتاب، أو جريدة، ثم تمنى لو استطاع

أن يتحــدث مع أحد ولــو لبضع دقائق؛ مثلا حــول حدود المياه الساحلية...السـنة الثانية، عادت إليه وساوس حبه المبعوث من رقدة المـوت. أصبح يعتقد أن الحبيب هــو النصف الضائع من كل شـخص منذ اللحظة الأزلية الأولــى لارتكابه الجريمة، وأن الاتصال الجسدي ليس سوى نافذة على وحدة الوجود التي يجب الوثوب عبرها إلى سـاحة الكون. لسـاعات طويلة كان يحتفظ بصــورة زمرد في خياله وهي تسـبح في هالة النور تتسـلل إلى الداخل عبر النافذة؛ كان يسـعى إلــى إضفاء الروح والحياة من الذكريات السـعيدة التي جمعتهما، لكنــه ما أن يحدّق في تينك الشـفتين الكرزيتين المتلئتين، كانت تختفي من وجنة زمرد تلك النتــوءات الناحلــة. وعندما كان ينظر إلى العنــق، حيث أوردته تتــراءى من تحت الجلــد، كان يفقد بصره مجــردُ النظر إليه. ولم يسـتجمع شـظايا نفسـه إلا عندما أفَلَت شمس الغروب، ليرتحــل الليل بزمرد. في الصيف أحسّ السـيد فره منذ برغبة فــي الحديث حول صدق ونزاهة خطيبته إلــى أحد ما، أيا كان ولــو جرموق عابر؛ وتحدث بذلك، لكــن مع طير كان يحط فوق أعلى غصنٍ لشـجرة البلوط المجاورة لكوخه؛ في حين أن حمامة كانت تغرد من بعيد. في السنة الثالثة بدأ الحديث مع نفسه؛ عن الصعوبات التي عرقلت طريق هربه من الفقر المحدق بأسـرته، وعن المعاناة التي تجرعها أيام الدراسـة، وعن المكانة والسـمعة الاجتماعية الحسنة - ولو في ظاهر الأمر - التي صنعها لنفسه، وحيث ربت السـيد رخ على كتفه في الشـبكة الخاصة من الممر الأول وهو يقول:

- وفق الوضع المهني والشـــخصي، فإن للجرائم طيفا واسعا، لكننا لا نعلم بالتحديد أيها ســيختار طالعك؛ لكننا حددنا نوعها وفق التفاصيل التي نعرفها عن حياتك.

تناول الأطعمة المعلبة أدى إلى أن يمرض الســيد فره منذ في الســنة الثانية. كان قد ســقط عدد من أسنانه في أواخر السنة الأولــى؛ تجاهل ذلك الإنذار. لكنه ذعر عندما خانته ركبتاه عند جولته المســائية وسقط أرضا. اكتشف بعد بضعة أيام أنه أصبح يتحاشى الضوء، وكان شعره قد بدأ تساقطه بكثافة. لم يستطع طوال هــذه الفترة أن يحتلــب عنزته ولا أن يجمــع البيض من الدجاج. قبل ذلك كان قد شعر بإغراء ذبح إحدى هذه الحيوانات وبالتهام لحمها الطري، لكن هذه المرة تعفف إغراؤه أيضا. للحظة اســتخرج نكهة جميع اللحوم التــي مضغها طوال عمره في ثنايا فيه. أمام عتبة كوخه حملق في الليّة المرتجفة للنعجة وهي ترعى هنا وهناك وفي دجاجته الوفيرة اللحم التي كانت تخرش الأرض بحوصلتها وتنقرها بمنقارها وهي تبتعد عنه. ونصف ابتســامة شــاحبة تعتلي شــفتيه. أبعد قبضتيه عن بعضهما؛ هكذا وبهذه البســاطة كانت عملية قطع رأس هذه الدجاجة المسكينة. نهض ببطء. كانت الخيوط الأولى من أشــعة الشمس تخترق الأشجار وغصونهــا منصبة على وجهه. كانــت الحيوانات قد ألَفَت قربه إليها. أمسك بالدجاجة بسهولة وقبض بإحدى يديه على رأسها وبالأخرى أمســك بجناحها المرفرف. «يالهــا من طاقة عظيمة للحياة بين جنبيك أيتها الدجاجة». بعثت الفرقعة المتوحشة جراء قطع رأس الدجاجة عنفا بدائيا في أوردة وشــرايين جسده. «لا

بـــد أن هذه هـي الجريمة...». صـــرخ رافعا يديه المرتجفتين إلى السماء. سقطت الدجاجة أرضا على بعد قريب منه وولت هاربة بين حشائش الخنشـــار، لكن العنزة بنظرتها الغبية كانت لاتزال محملقـــة به. بصـــق على الأرض وحملق مقطبا في الحشـــائش العالية المجـــاورة، عله يجد الطائر الـــذي كان يراقبه حينا، ولما لـــم يجده لجأ إلى كوخه. أحد برامجه الروتينية كل مســـاء، كان مراجعـــة أعماله اليومية، وفقط عندما كان يتأكد أنه لم يقترف خطأ في ذلك اليوم كان يسمح للنوم بالولوج إلى عينيه، وليحمله هذا النوم إلى الممرات الســـبعة المتألقة التي تتصل ببعضها عبر الالتواءات الإسليمية. كان مشوشا عندما أحس بوجود السيد رخ خلفه، أو إلى جانبه من دون أن يتمكن من رؤيته كحال تلك الأيام التي كان موجودا هناك حقا. كان يســـير فـــي ممراتٍ متداخلة متشابهة من دون أن يجد طريقا للخروج.

- لكل الناس بأنواعهم المختلفة، أسرار، وساوس، أفكار خفية في طالعهم. إنهم أحرار منذ الأزل إلا أن كل هذا من أجل اختيار شـــخصية أو سلوك يغطّي على أسرارهم، أو ميولهم الممنوعة... لكنـــك وضعت قناعا للتنكر بهيئة أســـتاذ، حتـــى تخفي وجهك المخيف... لكن هيهات...

وكان ثمة رجل في الممر الثالث يقول للســـيد فره مند وكانت عيناه قد بدتا من خلف عدستي نظارته السميكتين:

- اهـــدأ رجـــاء.. تحبطنـــي ردود الفعل التـــي تختبئ خلف التصرفـــات الماكرة والبدائية، مثل الغضب، أو الســـخرية.. على العكس، فإن الخداع المعقد يبعث النشاط فيّ.

ورفع نظارته إخطارا بنهاية الحديث، مغمضا عينيه الصغيرتين المتعبتين، كي تفتح عينا السيد فره منذ على الصباح. كان يجلس طوال ساعات فراغه الطويلة أمام كوخه مفكرا في تصميم الممرّات السبعة. في الفترة التي كان فيها هناك وبسبب أساليب الاستجواب النفسية والاختبارات، فقد غريزة تحديد الوقت والجهة؛ وفقط عندما وصل إلى بيت خطيبته أدرك عبر عينيه المتعبتين، وكلماته المتلعثمة، أنه قد مرّت عليه أربعة أيام هناك. هوى على ركبتيه عند الأريكة التي كانت خطيبته جالسة عليها وهي تبكي، مهما حاول عبر شظايا ذاكرته المبعثرة، أن يصوّر لخطيبته مخطط نظم العمارة؛ لم ينجح في ذلك، حتى العام الثالث، حيث أثمر سعيه واستطاع أخيرا أن يتذكر آخر خطواته عند الخروج من الممر السابع. حفر مخططها على أرضية الكوخ. في الصيف أطلق دودة يراعة في الممر الأول حتى ينشغل بزحف الحشرة في الممرات المتداخلة. هذا الهاجس كان قد خلّصه لفترة طويلة من الأصوات الغاضبة الليلية للغابة.

- عليّ أن آكل الخضار، الفاكهة، والمواد التي تحتوي على الفيتامينات.

واستسلم لخطر اختبار الفاكهة والأعشاب البرية. سار بقدمين كانتا تحملان ثقل جسده بصعوبة، ومستندا إلى جذع شجرة بلوط منحوتة. كان يخشى الفطريات. كانت براءتها ووداعتها؛ حيلتها السامة. تذوق الحلو والمر من صغار ثمار أشجار الغابة المجهولة، وبعد المغص الذي سببه تذوقها، جمع لنفسه مقدارا من الفاكهة قابلة للأكل. النباتات بتنوعها الساحر، لم تكن لتستسلم

ليتعرف عليها وهي تصيبه بالإحباط، وأخيرا وفي نهاية السنة الثالثة عندما استطاع أن يحرث مزرعته، أدرك أنه سيطر على مرضه. عندها أصبح نباتيا بالكامل. ماتت حيواناته واحدة بعد الأخرى ودفنها عند قدمي شجرة. كان يزور مقبرته الخاوية هذه بين الحين والآخر ويذرف الدموع لفراق رفاقه البهائم. كان منذ الأيام الأولى لهجرته إلى الغابة قد حرّم على نفسه الاحتكاك بأي إنسان، إذ كان يعتقد أن أي شخص يكمن فيه احتمال ارتكاب الجريمة، وإن كل المعارف يمكن لهم أن يقوموا بتسري خطر الاشتراك في تلك الجريمة، لذا كان حين يجمع غذاءه كلما صادف جرموقا عابرا يلوذ بالفرار مثله، يختبئ في أدغال وشجيرات الغابة المتداخلة ببعضها... لفترات طويلة لم يك قد نظر إلى وجهه، ولم يدرك الطول الذي بلغته لحيته وسائر شعره إلا عندما مضغ شاربه في أثناء مضغه للطعام. وبعيدا عن كوخه، كان ثمة شلال يصب في بركة صافية. عندما شاهد وجهه؛ قهقه ضاحكا لعودته آلاف السنين في غضون بضعة أشهر. صنع لنفسه شفرة من علب الطعام وشدّها إلى مسكة خشبية، وبلهفة منفعلة وعلى شفير الوادي المجلبب بالضباب رفع يده المسلحة بالشفرة وهتف عاليا. كانت الريح تنثر شعره المقصوص على أشجار الوادي...

وبعد فترة، عندما استنفذ مزرعته من منحدر التلة، الشديد بمحراثٍ نحته من جذع شجرة وفي هالة أخرى لرائحة التربة المحروثة، ضرب بقبضته على صدره قائلا: «الإنسان بفقرات حجرية ودماء زئبقية وأيد من لحم؛ لا يهزم». في شتاء السنة

الثالثــة تمنى لو كان الســيد رخ الذي كان يزعــم أن التنوع في الشخصية لا يبلغ أصابع اليدين موجودا هناك ليرى.. لكن الشك انقــض عليه ليلــة. في ظُهر غد ذلك اليوم تحت ظلال شــجرة مقبرته المجهولة، قرر أن يهبط من الجبال وأن يستسلم لطالعه. كانت نطفة هذا القرار قد انعقدت بعد حلم رآه البارحة؛ رأى كأن ذات العينين الزمرديتين والســيد رخ في شــقته وفي وضع وقيح وبهيمــي دونما التفات إلى وجوده الجاثــم معهما. تذكر صباحا نبرة حديث الســيد رخ عندما تحدث عن خطيبته اللهفانة. يبدو أن التقاهــا... وبكثرة.. كل تلك التفاصيــل التي كانوا يعرفونها عني!.. من أين كان يعلم أني لم ألمس زمرد! هي... التي أخبرتهم بذلك... خيانة... خيانة... وجّه لكمة إلى جذع شــجرة مقبرته. تســاقطت أوراق من الشــجرة. أطلق من حلقه نواحا كآخر أنين لنعجته قبل أن تلفظ أنفاســها، وتخر بركبتيها على الأرض وقد التوى عنقها وبــلا رمق.. وعندها أجهش بالبــكاء. عند الظهر وبقامــة منحنية وعينين مبتلتــين لا تميز بين الأحجار والظلال، انحــدر نحو الوادي هــاوٍ متعرج؛ كان الضبــاب يتجه نحوه إلى الأعلى مبتلعا قامات الأشجار الباهتة. «باستسلامي سوف أفعل شيئا يضع نعشي أمام ناظرَي تلك العاهرة...».

عند الليل وصل إلى حافّة الجادة. كان العالم حينها قد يبس. كان يحاول أن يســتوقف سيارة من السيارات التي تشق الطريق، لكن أيا من هؤلاء الســائقين، لم يجرؤ على التوقف لذلك الشبح الهــاوي من عصر الإنســان المحني القامة. فــي منتصف الليل كان فره منذ جالســا بخوف على جرف الطريق الخاوي محدقا

ببصيص أضوية بلـــدة تلوح من بعيد. أدرك أنه يحب حياته تلك البدائية، وها هو قد اشتاق إلى كوخه ومزرعته وفاكهته الصغيرة الجافة ومقبرتـــه. عَبَر الطريق عائدا إلى الجبال. أمضى لياليه الشـــتوية إلى جانب موقده فـــي كوخه الغارق فـــي أمواج البرد القارســـة. لم يســـتطع حتى الربيع أن يمحو يأسه وتردده. «هو ذا كل مـــا في الأمر، بلا معنـــى، أكاذيب، لن أكون إلا ما أنا عليه الآن، هنـــا كالطحلـــب...» وحلّ الصيف. في يـــوم مزدهر قصد فره منذ الشـــلال للســـباحة، لكنه وقبل أن يصله فوجئ بسماع ضحـــكات مقهقهة تصدر عن أمواج ماء الشـــلال. زحف مختبئا خلف شـــجيرات الخُشـــفار التي كانت قريبة من الشـــلال. رأى الفتيات القرويات قد أسلمن أنفسهن بسذاجة مازحة إلى أيدي الماء. سحب جسده المتمدد على الأرض، بين الأوراق اللزجة لعرق الســـوس وحدق فيما كان قد خزنه من شعوره في لاشعوره عبر الســـنين الماضية... النسيم المتشـــح برذاذ الماء، الممتزج برائحة عشـــب الشـــمس والضباب، أنســـاه حقارته، وفجأة أدرك أن له طاقة حليمة مخزّنة تســـتطيع أن تعانـــق كلّ الأرض. كان العالم مفعما بالهمهمة والأصوات. كان يســـمع شخشخة أقدام النمل التـــي كانت تمرّ من أمـــام وجهه إلى داخل بيتهـــا وخارجة منه، وتلمـــظَ نحلة كانت ترتشـــف رحيق زهرة، وســـريان الصمغ في أوردة الســـرو الجبلية، وفوق كل ذلك قهقهات فتيات الشلال... انطلق إلى البركة السفلى وأسلم جسده إلى الثلج نصف الذائب للشـــلال، وخلال غوصه الهنـــيء؛ أدرك فجأة أنه أســـاء الظن بخطيبتـــه زمرّد عبثا. رخ ورجاله كانوا يعرفون بعض الأمور عنه

ولم تكـن روح خطيبته لتحلم بها. تلك الليلـة نام فره مند نومة هانئة بجسد عارٍ من الأدران والأقذار، ورأى في منامه كأنه مثل السـيد رخ بجبروته وثقته بنفسـه، وزمرديّة الطرف طوع يديه وأمره. بدأ حينئذ باختلاق تفاصيل حياته المستقبلية. صنع ليال وهو مسـتلقٍ فيها مع زمرّد على أريكة حميمة، وهما يسـبحان في سحابة من الموسيقى السـاجية. صنع عطلاتهم ورأى زمرّد مـرارا وهي تعبر متعثرة ضاحكة تلك الصخـور الزلقة في قاع النهر الشـفاف إلـى الضفة الأخرى، وألق رذاذ الماء والشـمس مرفرفـا حولها. اختلق فجرهما الصباحي حيث يسـتيقظ فيه دائما قبل زوجتـه ويحدق في ملامحها الهادئة الراضية. اختلق الأعيـاد والحفلات والذكريات السـنوية... وفكر حتى لو كانت هذه الحفلات والمناسـبات مختلقة، مـع ذلك فهي ضرورية مثل جميع التقاليد والمواعيـد، وظل محدقا في خضرة عيني زمرّد، لكن وبشكل مفاجئ اكتنفه لون آخر كان لون عيني السيد رخ وهو يسمعه يقول في الممر السادس:

- الأمـور الفرعيـة... الفرعيـات هي التي تشـوش الذهن وتحيـره، وعندما ننحي هذه الزوائد جانبا نصل إلى عدة أصول أزليـة أبدية واضحة... بضعة أصـول قليلة فقط... ضائعة في ثنايا الزحام...

دفـع فره مند بغضب ثائر مزمجرا رخ إلى الوراء وجاب عقله راكضا بسـرعة لا يسـبقها أي مأمور، جميع الممرات المتداخلة، يعود إلى الشبكات التي اجتازها، وإلى الممر الأول ثم إلى الداخل، كان يذهـب ويذهب باحثا عن نقطة ضعف في هذه التنظيمات،

كان ينتابه الدوار من هذا البياض المضيء البارد المجهول المصدر للممرات. كانت وجوه بلا ملامح تتراوح أمام عينيه. تختلج شفاه، وثمة أيدٍ تقلب أوراقا وتحركها، كانت ثمة أصوات تتكسر في أذنيه من زوايا مختلفة:

- الأمل، رد فعل دفاعي وابتدائي لمن لا حيلة له... لا.. ليس ثمة خطأ في الأمر يا سيد فره مند...

يفتح بابا وهو يلهث.

- .. تفضل.. مرحبا بك سيد فره مند... زملائي...انظروا.. رجاء قف! حيث أنت يا سيد فره مند..انظروا أصدقائي إلى زاوية وقوف قدميه.. تهانيّ... كانت بالضبط كما قدرنا ذلك... ثلاثين درجة.. تستحق شبكتنا التشجيع من قِبَل السيد رخ...

- هذه الدائرة الأكثر عبوسا وتقطيبا.. الموظفون معذورون.. عملهم يرتبط بماضيك، مشجرات الأنساب، الوصايا، الأمراض الوراثية... القبور... تفضل...

ركض السيد فره مند مولولا ليخرج من الممر السابع. الصياد المتطفل الذي كان يختبئ أحيانا خلف الشجيرات مراقبا له، فوجئ فوثب مرتعبا من مخبئه ولاذ بالفرار أمامه. تطأ قدماه فطرية. تنتشر المشيجات من الفطريات كأنها قطعة ضباب في الفضاء، وتعتم طريق هروبه. كان ثمة ثعبان أخضر يزحف تحت جذع شجرة هاوٍ، كانت أبخرة تخمِّر نبتة تتطوي، وعويل سقوط آخر عمالقة الأرض كان ينبع من عروق التراب. جلس فره مند جنب بركة صافية، وحدّق في وجهه ليعي نفسه. كان يشاهد رأسه الذي أصبح أصلع وبقايا شعره الخفيف المجعد على

أطراف صدغه، ولحيتـــه الطويلة القصيرة، والبقية المعدودة من أســـنانه، وجلده الأخضر... وبقي مشدوها هناك محدقا لفترة في عيني غريب كان شديد الاختلاف عن آخر صورة لتصوره... ليعود مجددا إلى كوخه ويشغل نفسه برقع ملابسه.

كان السيد رخ قد أخبره في الممرّ الخامس:

- يظن البعض أن عملياتنا فخ في طريق حياتهم المستقبلية... هذا سخيف...

وافقه السيد فره مند حينئذ في رأيه، فإن كلمات مثل المفاجأة والفخ والتعرض للخداع، هي حمقٌ بالنســـبة إلـــى العاقل. لكنه عندما شاهد كاحله في الفخ، أنَّ يائسا. كان أواخر خريف عامه الرابع. كان فكّان حديديان مختبئان تحت أوراق الخريف، أمسكا بكعبي قدميه. هذا عمل الصياد. فتح فره مند مولولا فكي الفخ. كان الألم ينبض في قدمه. تزحلق على الأرض محدقا في السماء التي كانت تطل عليه من بين الأغصان العارية المهتاجة:

- يا إلهي...لِمَ كل هذا العناء... هل يستحق هذا؟

زحف على صدره نحو الكوخ، حيث حدق بالخطوط المحفورة المتوالية على عمود وجدران الكوخ، فكر أنه من العبث، أي محاولة هـــي ضرب من العبث. يعبث قط القدر بالإنســـان كعبثه بالفأر، وحتى إن محاولته للهروب من قدره المحتوم محددة سلفا. يضحك مقهقها من محاولات هروبه المحكوم عليها بالفشل... لماذا هكذا يـــا إلهي؟ كان قد حصل على تصور عن الله خاص به متناغم مع تصور هذا العالم. لكن حزن اليأس، أصبح مرهما لوجع ســـاقه. أوقف نزيف دمه بصبر مستسلم، ربط كعب رجله بقطعتي خشب

وخرّ مضجعا على ظهره وسط الكوخ. ارتسمت صورة الممرات السبعة متألقة على سقف الكوخ، ودوى صوت خطوات لا تتوقف في أذنيه، منقذا إياه من أصوات الغابة المجنونة.

- لا يدعونني وشأني... هذا جيد جدا. أخدع نفسي.

تلوّى طوال الليل من الألم والحمى. كانت الريح الباردة تتسلل إلى داخل كوخه عبر شقوق كوخه البالي. وهذى متقرفصا من شدة البرد لبضعة أيام، وارتعش مبللا بعرقه البارد، لكن ذات ليلة، فجأة وفي لحظة مشرقة، اكتشف طريق النجاة من هذا الخواء. كانت شفرته التي صنعها في متناول يده. «سأرتاح.. الدم الذي لا يتركني وشأني، فليسلٍ على أرضية الكوخ الوطيئة، بالغا الخطوط الخشبية ليهبط عند قدمها. أفرغ رأسي من آمالي وأمانيّ... وأنام... نوما قريرا... هنا، من دون حَر، أو برد، أو غد... وتراب، وهل العالم سوى عالم من تراب...»، لكن عندما مرّر الشفرة على رسغه تراءى له نعشه في الغادي من الأيام، اعتصر قلبه ألم غربة هذا النعش. تدفق دم الثأر في أوردة جسده. بعد شهر، سلك طريق البحث عن الصياد بمشيته العرجاء. كان كلما سمع صوت طلق ناري ذهب باتجاهه، لكنه كان يصل بشكل دائم متأخرا، عاثرا على بقعة دم على الأوراق. كلّ مرّة كانت تحاول قدمه العرجاء أن تسرع كان يسقط أرضا، رأى الصياد أمام عينيه المكفهرتين بغضا وحنقا وهجم عليه بعصاه مهشما رأسه بها. تذكر يوما ذلك الفخ. ذهب إلى نفس المكان ووجد الفخ وقد أعدّ مرة أخرى. «من المؤكد أنه سيأتي للتحقق منه...»، في اليوم الثاني وصل الصياد. وضع بندقيته

أرضا وبحذر أزاح الأوراق اليابســـة عن الفخ. بالضبط كان الفخ
تحت قدم فره مند. كان يستطيع الانقضاض عليه من على غصن
الشجرة غارزا شفرة حلاقته في شرايين عنق الصياد. كاد ينقض
لولا أن ثابت إليه نفســـه. «لا بد أنه هو...» بعثر الصياد الأوراق
على الفخ ثانية وابتعد. نزل فره مند متثاقلا عن الشجرة وتوجّه
إلى مزرعته فارغا من أي حقد أو حنق، جلس على الأرض اللينة.
كان المحـــراث الذي صنعه بيده من جذع شـــجرة وخرش الأرض
عبر ســـماجته به، مرميا على الأرض أسفل التل، بريئا من الدم
والتعذيب. وكانت شـــمس الشـــتاء تبعث الحرارة في التربة وذاع
بخـــار مبهج في الأرجاء وهطل ثاني ثلج شـــتوي. وحتى أن ذابت
تلـــك الثلوج النائمـــة على صدر الجبال، خط فره مند عشـــرين
خطـــا آخر على عمود كوخـــه. هطلت ثلوج أخـــرى وذابت حتى
تنسَّـــم شذا الربيع من ضوء الشمس، عندها قال السيد فره مند
لنفسه: «انتهى الأمر». في آخر ليلة عدّ الخطوط الخشبية مرات
ومرات، وعندما تأكد أنه لم يخطئ جلس أرضا إلى جانب موقده
وحدّق في ليالي الأعـــوام الأربعة المنصرمة، حدق في الأحطاب
التي كانت تتقد حمرة بألسنة النار. لم يستطع النوم التسلل إلى
عينيـــه. «يا ترى هـــل بقيت زمرد وفية لي؟ اشـــتعل حرا عندما
تصور لطافتها. كانت الأحطاب قد أصبحت رمادا، وضع غيرها
فـــي الموقد حتـــى دب البرود في ألســـنة النـــار وتعالت أصوات
الطيور. قصّر شـــعره ولحيته على عجل. قام بغلي الماء غاســـلا
به جســـمه، ولبس ملابســـه التي كان يحتفظ بها لمثل هذا اليوم،
وعنـــد عتبة الباب ألقى آخر نظـــرة على كوخه ليترك كل عوالق

ذهنه بجميع تفاصيلها وهياكلها حيث مكانها، في الكوخ نفسه.
ودع مقبرة حيواناته وتوجه إلى مزرعته في قمة تلة المزرعة؛ ركع أمام ساق نبتة نحيل ارتفع من التربة، كان لونه الأبيض قد بدأ يضرب إلى الخضرة. «تمكنتُ...» رفع رأسه إلى السماء. رأى غيمات متناثرة كأنها أكليل عروس وهي تتجه جنوبا. شعر بأن جميع حرّيّات العالم وجميع شموس الربيع قد خُزّنت في جسمه.
هبط دوي صراخه المدوي من قمة التلة على الوادي أمامه...

مساء ذلك اليوم قطع السيد فره منذ وهو يعرج بوجه متغضن وبالقليل مما تبقى من أسنانه وشعره، لابسا بذلته الرثة، ممرّ القطار. توقف لحظة على سلّم القطار وألقى نظرة حوله. على اليمين ابتسمت له زمرد ذات الطرف الزمردي المستندة إلى عمود، وعلى اليسار توجه ثلاثة عناصر بملابسهم الأنيقة نحوه...

علي مؤذني
Ali moatheni

يكتب القصة والمسرحية وسيناريو الأفلام. حصل على ليسانس في الأدب المسرحي ويعمل في حقل إنتاج الأفلام. له نتاجات عديدة في موضوع الأدب المقاوم ويكتب بأسلوب خاص في هذا المجال.

حصلت أعماله على جوائز قيمة واحتفى به النقاد والقراء.

من أعماله المنشورة:

- الظهور (حصلت على جائزة أفضل رواية للعام ١٩٩٩).
- الفصول الأربعة (ثلاث قصص طويلة).
- لقاء في ليلة مشمسة (حصلت على جائزة أفضل رواية للعام ١٩٩٧).
- أكثر بهجة من الأخضر (اعتبرت أفضل القصص المختارة خلال عقدين).
- علاقة إيرانية (حصلت على جائزة تقديرية من لجنة الكتاب الروس).
- البشارة (رواية).

البياض الناصع

فــوق التل أربعة ثعالب تتقافز بمرح. وفي وســط تلك الثلوج الشــتوية، كم تمنيت أن تكون هنا ياســلطاني. ثم أنشــد: «قلبي ممزق من الوحدة.....».

كلا لا يمكــن مواصلــة الغناء بمثل هذه الأنفــاس المتقطعة. حملقت الثعالب نحوه للحظــة، وكأنها التفتت إليه لفورها، ومن شدة الذهول التبس الفضاء المحيط بهم إلى ما يشبه الوهم.

قال السائق: هل معك سكين، أو ما يشبه ذلك؟

أجاب: كلا.

وبعد أن بدأوا بالقفز تلاشــى الوهم. حان الوقت ليأخذ قسطا مــن الراحة، كانت هناك شــجرة لوز تبعد عدة أقــدام عن الجادة الخاصة بالدواب، وقــد غطى الثلج أغصانها تماما. وبعد أن رفس جذعها وتراجع نحو الخلف تســاقطت الثلوج كلهــا، الثعالب كانت تراقب عندما خيَّم الصمت، جلس على حقيبته واستند إلى الشجرة، الساعة كانت تشير إلى الخامسة، لقد استغرق ساعة ونصف الساعة للوصول إلى هنا، لولا الثلج لكنت قد وصلت حتى الآن.

قال السائق: يبدو أن هطول الثلج سيتواصل.

قال: إن شاء الله لا يهطل الثلج قبل أن أصل إلى القرية.

ومن قرص الشــمس، كان هناك شــعاع أحمر جميل يتســلل إلى الأفق وتظل الشــمس تشرق. على رغم أنه لم يبق إلا القليل لغروبها، عندها لا شــيء ســواك والثلج؛ بيــاض في بياض في بياض.

والثعالب كان منظرها جميلا وهي تعيد تجمعها لتتناثر مجددا في ذلك الأفق الأبيض الممتد فوق التل، إنها مشـــاهد تبدو رائعة من هذا البعد وعلى ذلك الارتفاع، حيث تتمدد الأجسام وتتطاول السيقان. بلا شك فإن الأقدام فوق ذلك التل، ستغوص في الثلج حتى الركبة، ســـوف أصل حتى الساعة الخامسة والنصف، كلا، لا يمكن لكل هذا البياض أن يســـمح لليل بأن يكون حالكا. شعاع الأفق الأحمر بدأ يميل إلى الزرقة، والبياض بدأ يهبط تدريجيا منسابا من الغرب إلى الشرق.

لو كان ســـلطاني موجودا، لشـــبه الجبال بشيء آخر، مثلا بالســـبابة، ولتحدّث عن كتلة الغيوم الحالكة المتداخلة بعضها مع بعض. إن تلك الزاوية من الغيم، تشـــبه قبضة يد مسدودة، وعندما تنبسط ستتساقط مسكوكات الثلج على الأرض. كلا، إنها أشياء لا صلة لها بأناشيد سلطاني، يجب أن أنشد له. يا ليتك كنت هنا يا سلطاني. لقد غمرتني البهجة تماما. السهل والثلج والبياض الناصع والغيوم وأشجار اللوز والثعالب. وقلبي يشـــتاق إلى السماع، وكلامك موزون. لو كان سلطاني موجودا لأزاح الغيوم جانبا وأراني السماء المرصعة بمليارات المجرات، حيـــث يحتضـــن كلّ منها مليارات من النجـــوم، التي تبعد عنا بمليارات السنين الضوئية... أرقام ليس بمقدورنا سوى المرور عليها من دون الولوج إلى غورها. ليعود ثانية إلى الأرض بعمر متوســـط يتراوح بـــين ٦٠ و٧٠ عاما، ويدور فـــي دورة الحياة، فيظهر المـــاء بتجلياته المتعـــددة؛ كبخار وغيـــوم ومطر وثلج، ويصبح كالهواء فيأخذ لنا الشـــهيق من الأشـــجار ويأخذ لها

الزفير منّا... وبشـعوذة دقيقة جدا؛ يقذف القمر والشـمس بيد واحدة نحو الأعلى، ويتلقفها باليد الأخرى ليصير إنسانا عمودا على الأرض، وابتسامته تندو عن غرور تفصح عن سعادته في مشاركته بكل هذه الأشياء التي خلقت من أجلي. وأنا أصفق له فخورا.

مرة قال سلطاني: لقد قال كلمة واحدة فقط: كن، فصار كل ما هو موجود، كل هذا الذي تراه، كن فيكون، الوجود كله.

قلت: لم لا يُظهر نفسه؟

قال: وهل هناك ما هو أكثر حضورا منه؟

قلت: هل هو موجود أصلا؟

رأيت في نظراته، يقينا لم أشاهده من قبل، ألوانا سطعت عن شعاع نور.

قال: هو أكثر حضورا مني إليك ومنك إليَ.

قلت: أحب أن أراه، بهذا الوضوح الذي تمثله أنت إليَ. فأنت ملأت لي الفراغ؛ الأب والأم والأخ والأخت، عندها سيكون تصديقه سهلا، وسأجد الطمأنينة.

قال: يراه؛ من يدعوه من القلب.

قلت: وحاجتي إلى رؤياه كانت دائما من أعماق قلبي... ثم ابتسمت.

قال: إذن، كن مطمئنا بأنك ستراه.

والآن، أي مكان أفضل من هنا؟ أنا وحدي، والثعالب لا تدرك من هذا الأمر شيئا. أظهر نفسك لي ليقوى قلبي كقلوب الأنبياء، لأبلغ عبادتك.

قال: «لا تهدر هذه الفرصة، أظهر». وضحك ثم التقط بعضا من الثلج وصيّرها كرة وألقى بنظراته هنا وهناك، ليرى إلى أين يرمي بها. شاهد أحد الثعالب جالسا نحوه وبعيدا عن مجموعته، فرمى كرة الثلج وعلى الرغم من أن كرة الثلج لم تصل اليه، فقد هب واقفا، كما انتصبت رقاب الثعالب الثلاثة أيضا وذيل احدها. أشار بيده إلى الثعالب بما معناه؛ واصلوا اللعب ولا تخافوا. جلس ليحكم ربط حذائه. ثم قال: لأجلس قليلا، كلا؛ قم.

وقف وبعد أن تمطى قليلا، قال: لا بد أن أرى مشهد القرية من فوق ذلك التل قبل حلول الظلام، سأقتفي خطى حلقات الدخان المتصاعد من مداخن القرية. وعندما تناول حقيبته انتبه إلى أن الثعالب الثلاثة مازالت متسمرة في مكانها والآخر كان جالسا أمامه تماما... لماذا؟ كان رأسه يدور مع كل حركة، فالوهم عمّ السهل والثلج، فجأة نمت الثعالب، تمددت أندامها أكثر وتوسعت أشداقها... إنها ذئاب! ذئاب!

ثم صرخ: «آه ذئب!» ضرب على رأسه صارخا: «ياللهول ذئب!» وقف مبهوتا أمام نظرات الذئب الحارس ووقفت بقية الذئاب في صف الذئب الحارس تحملق به.

لماذا لم أفهم ذلك من قبل؟

عندما جثم على ركبتيه، شرعت الذئاب بالترقب والتجوال بالقرب منه.

إذن كانت تراقبني منذ اللحظات الأولى ومن بعيد، من بداية الطريق عندما ترجلت من الشاحنة، وكانوا يزدادون فرحا كلما

اقتربت منهم، ولم يكن مرحهم وتقافزهم احتفاء بالثلج، بل من رائحة لحمي، ودمي الذي سيلطعونه من على سطح الثلج. التفت إلى الخلف، ثم قال: حتى آثار أقدامي سيمحوها الثلج. ما الذي سيتبقى مني؛ غير أسمال من ملابسي، أو بعض من جلد أحذيتي، أو حقيبتي، وهي كل ما تبقى من جنود الكشافة الثلاثة. كلا، هذه القشعريرة ليست لشدة البرد. كيف ينظرون إليَّ بمتعة!

عبثا حاول أن يشبك يديه، فصارت كفاه شيئا فشيئا قبضتين. جلس الذئب الحارس على رجليه. عليَّ ألا أقوم بأدنى حركة، يمكن أن تثير غريزتهم للهجوم. غير أن هذا يعني انتظار الموت، إنهم يدركون أن لا سبيل لي إلى الفرار. أركض على الأقل... ولكن إلى أين؟ إلى الطريق العام، يحتاج ذلك إلى ساعة من الوقت، كما أنهم لن يتركوني أقطع أكثر من خمسين مترا ليكونوا حولي، وقد قطعوا عني كل الجهات، ويتقدمون زاحفين. ألا توجد بئر في هذه الأطراف؟ فإني أفضل أن أختنق فيه. نادى: «يا أمي...» ثم وضع رأسه على الحقيبة وقال: إن كان مصيري الموت ممزقا بين أشداق الذئاب، فلماذا لم تتركيني ألاقي حتفي في ذلك الحوض، في الحوض كانت سمكة كبيرة قد فتحت شدقيها لتبتلعني... كانت السمكة سوداء.

قالت الأم: لا أريد هذا الحوض، غيره إلى حديقة.

قال الأب: هذا يعني أنه إذا سقط الطفل من السطح، علينا أن نخرب السطح أيضا؟

لا تجادل يا أبي واسمع ما تقوله لك أمي، واجعل من الحوض حديقة مملوءة بالورد الجوري. وأنت يا أمي قولي لهم؛ إنني

لم أنتشل ابني من الحوض لأقدمه لكم وجبة سهلة، يا ذئاب انصرفوا عن ابني.

اسكتوا... هل تسمعون أصواتهم يا جماعة؟

إنهم ينبحون كالكلاب. عليك يا حميد؛ الانتباه إلى هذا الذئب الحارس، فإنه كبّل يديّ ورجليّ، حاول أن تجذب اهتمامه، لأتمكن من الوصول إلى البئر الذي اكتشفه أبي. ألم تعثر عليه حتى الآن يا أبي؟ سألوذ به حتى لو كان عمقه مائة متر. وأنت يا زهراء يا أختي الحبيبة؛ إجمعي المزيد من الحطب، أريد أن أوقد نارا كبيرة. وأنت يا أمي أمسكي بيدي ولا تبتعدي عني، آه كم هو رائع أن تكوني هنا. ليس في نيتي معاتبتك، غير أني كنت أرجح ألا تعتني بتسميني... لماذا كنت تصرين عليَّ لآكل العسل؟ عصارة أشعار بساتين سلطاني، ألتهم العسل؛ شطرا شطرا لأصبح غزالا بديعا، كما كنت تودين يا أمي..لماذا؟ هل عقدت اتفاقا مع هذه الذئاب من أجل تسميني؟

أنشد يا سلطاني مرثيتي وأنا حيّ، أريد أن أبكي كل كلمة فيها، أريد أن تضمنها هذا الشطر: «أي موت هذا وكم هو مفاجئ!»، أما البيت الأول فخصصه إلى السيدة وكيلي، التي لم تكن تعرف أن بشرتي استمدت نضارتها من عصارة عسل زهور البستان. لذلك حفرت صفعتها عليه أثرا لا يمكن أن يمحى بيسر. كان ذلك نهاية الدوام المدرسي، وكانت تدور حولي مرتبكة عسى أن تنسيني أثر الصفعة، وبعد أن قرع جرس نهاية الدوام. قالت لي: ابق هنا.. أحتاج إليك.

السيدة وكيلي ذهبت، وبقيت أنتظرها أكثر من ربع ساعة غير أنها لم تأت فإنها كانت قد ذهبت. شـاهدني السيد رحيم فقال ضاحـكا: لم لاتزال هنا؟ وعبر ضحكته أدركت أن غاية السـيدة وكيلـي؛ هي أن أبقى أطول مدة ممكنة، لعـل أثر صفعتها يزول عن خدي.

والآن ادخل البيت الثاني يا سـلطاني، فموضوعه هو غضب الأم؛ وهي تبكي وتلعن، ولا تسأل عما فعلته وقد خطف لون وجه السـيدة وكيلـي ويداها ترتجفان. آه لو كنت أعلم أنني سـأكون وليمـة سـهلة للذئاب؛ لم أكن أدع أمي تندفع بهذا الشـكل نحو السـيدة وكيلي، والتي لم تصح من غيبوبتها إلا بعد أن شـربت ماء الورد.

والآن ما الذي في مقدورك فعله مع هذه الذئاب يا أمي؟

فالذئاب واثقة من أنها سـتلتهمني، وحركاتها تشير إلى أنها تريد أن ترفع من شـدة اشـتهائها. قال: «يا أمي... يا أبي...»، ومن شدة البكاء بدأ جسده يرتعش. احتضنت الأم رأسه وقالت: لا ياعزيزي؛ هل مت أنا حتى تبكي هكذا؟

قال: هل هذا هو تقديري؟

ضحك الأب وقال: كالنساء...

قالت الأم: البكاء أمر لا يخص النساء فقط

قال: هذا هو تقصيري لأني أردت أن أثبت لكم مقدرتي على إدارة الحياة انخرطت في الخدمة العسكرية

بكت الأم وقالت: أنا التي تحملت أتعابك، غير أنك لبيت طلب أبيك ورغبته؟ هل هذا جزاء محبتي؟

تقدم الأب منهما واحتضنهما معا وقال: وأنا أيضا أعتذر عما بدر مني وعما فعلت، لقد أثبت يا عزيزي كمال أنك رجل محق. الآن قم لنرجع إلى المنزل حيث الدفء والراحة، لنذهب بعد ذلك إلى الصيد معا، اترك هذا المكان فهو ليس باردا وحسب، بل على تلّة أربعة ذئاب تترقب أيضا.

ساروا باتجاه المنزل. كلا، لا تطفئي النار يا زهراء الحبيبة، أتركيها متوقدة لعل عابرا يمر من هنا، ولنرم جميعنا الذئب الحارس بعدة كرات من الثلج، لقد عذبني كثيرا يا أمي.

قالت الأم: دعني أدهن وجهك يا عزيزي، فالبرد جفّف بشرتك بشدة، وتشعّثت خصلات شعرك تحت القبعة، هل تود أن أعمل في شعرك فرقا كما في السابق؟

ثم انهمرت دموعها كسُحب الربيع. التفتت إلى نساء الأقارب والجيران وقالت: لقد أعاد الله لي ابني، كانت الذئاب على وشك...

صرخ أبي غاضبا: ناوليني بندقيتي كي ألقن تلك الذئاب درسا لن تنساه، كانت تريد أن تلتهم ابني؟ صوب بندقيته باتجاه الذئاب، يا أبي اضرب الذئب الحارس أولا، ارتفع عواؤه بعد سماعه صوت الإطلاقة، فاختفت الذئاب.

قال: عاشت يداك يا أبي لقد أرحتني. أنشد بيتا يا سلطاني في وصف أبي.

ورفع رأسه عن حقيبته، رأى الذئاب على التل تتقافز. قال: مازالت هناك؟

فأجهش بالبكاء، حاول الوقوف لكن يديه كانتا قد تخدّرتا.

عليَّ التحرك. نعم! تعّب أطرافك قبل أن تفقد السيطرة عليها، دع دمك يتسمم كي يصبح لحمك مرًّا بمذاق الذئاب، وعندما نهض بمساعدة جذع الشــجرة، نهضت الذئاب الثلاثة أيضا، والذئب الحارس لا يدع أيّ حركة منه إلا ورصدها. فبدأ يقفز في مكانه ويفرك يديه. هل لك أن تتســلق الشــجرة؟ صحيح أنها قصيرة، نحيفة، إلا أنها أفضل من لا شيء، هجمت الذئاب فجأة. فصفع على رأسه وقال: يا إلهي...

لكن الأمر لم يكن ســوى وهم سببه اهتزاز الدمع في عينيه. فمازالــت الذئاب تقفز وتمرح، ســوى الذئب الحارس. ولكن إن رميت لها معلبات اللحوم هل كانت ســتتركني لحال سبيلي؟ كلا، فهي تعشــق لحم البشر. ولحمك مذاقه شهي إلى الحد الذي إن نمت خارج الناموسية فستكون مركزا لاستقطاب البعوض والتي تمتص دمك إلى الحد الذي لا تقدر على الطيران، والذئاب تلتهم اللحم وتلعق الدماء، ســتكون يداي نصيب اثنين منهما وقدماي من نصيب الآخرين وستتقاســم جســدي، لكنك أنت الذي تفكر هكــذا، أما الذئاب فهمّها ابتــلاع أكبر حصة ممكنة منك. ولكن ما مصير وجهي؟

اكتب عن تفاصيل وجهي بيتا يا سلطاني، وهل سيكون وجهي بحجم فم أحدها. غطى وجهه بكفيه وانتابته قشعريرة ثم صرخ باكيا: «يا إلهي... أدركني...»

مادمت قادرا على الحركة فتســلق الشجرة ولا تدع أن تفلت هذه الفرصة من يدك. بقفزة واحدة منها ســوف أخرّ ســاقطا. نهــض ووضع قدمه علــى حقيبته، لم يلتفت إلــى الذئاب وهي

تقف متوثبة، فقفز متسلقا الشجرة. ولكن الشجرة أضعف من أن تتحمل وزنه، وفعلا تكسرت أغصانها المدببة بهزة واحدة، وعندما ألقى نظرة إلى الأسفل كان قد ارتفع مترا واحدا عن الأرض، هل هذا يكفي؟ حاول ألا ينظر صوب الذئاب، غير أن أصواتهم كانت قريبة جدا، ويبدو أنها كانت تضحك مندفعة وقد التحق بها الذئب الحارس. كانت الذئاب تتلاعب وتضحك.

شهق باكيا: يا إلهي.... يا إلهي العظيم... وصرخ: يا الله.

كفّت الذئاب للحظة عن الضحك وحملقت به ثم استأنفت ضحكها.

قال: أدركني... ساعدني يا إلهي وصرخ يا الله؛ من اسمك استمد القوة والأمل، وأنا على يقين من أن الذئاب أيضا تدرك معنى اسمك، لأنه صلة الوصل بيننا جميعا؛ أنا والذئب والثلج والسهل والغيوم وشجرة اللوز هذه. فيا عائلتي الكبيرة لا ترتضي لي مثل هذا الموت. ثم صرخ: ياالله... ووسط نشيجه هذا شاهد الذئاب وهي تلتفت فجأة إليه مندفعة بقوة. انكمش جسده وتمدد جلده وانتصب شعر بدنه، أحس بكل مسامات جسمه وهي تنضح عرقا. ووسط بكائه المتقطع شعر بأن جلد أحد الذئاب يمس معطفه حينما وثب نحوه، بدأت الشجرة بالتمايل وأحس بمقدمة جزمته اليمنى عالقة بين فكي ذئب آخر للحظات ثم تركه، اما معطفه الجلدي فقد تمزق بضربة مخلب ذئب آخر، وأمامه كان فم ذئب مفتوحا وعيناه المشتعلتان بلون الدم؛ تحدق فيه وأنيابه الحادة كان بمقدورها تمزيق النظرة ذاتها... ولكن أين كان هذا الذئب؟ لقد التقط بأنيابه الجزمة اليسرى ثم

أفلتها، وذئب آخر كان يصدم الشجرة بجسده بشدة للتأرجح إلى الأمام والخلف وذئبان آخران كانا واقفين خلفه ويقذفان الثلج عليه بأقدامهما بقوة. أغلق عينيه وأشاح برأسه بعيدا، تاركا كرات الثلج تتساقط على ظهره، أما الذئب الخامس فقد ظل فاغرا فمه؛ إنها صورة الموت؟

ها أنا على وشك السقوط. صرخ: يا إلهي...

أحس بأن قدمه اليمنى أصبحت أخف من اليسرى، الرؤية أصبحت عسيرة عليه من شدة عصف الثلج الموجه إليه من قبل الذئاب، سحب رجله اليمنى وسقطت جزمته وفم الذئب المفتوح أصبح قريبا جدا وشعر بأنفاسه الكريهة وهي تلطم وجهه، حتى يديّ... ولكن لماذا صرت أدور؟

من بعيد سمع هاتفا وعندما توقف رشق الثلج عليه مِن قبل الذئاب. شاهد شخصين ينحدران راكضَين من فوق التلّ وسمعهم يقولون: قاوم...

هكذا إذن، يبدو أن الذئاب شاهدت قدوم هؤلاء الأشخاص فسارعت بالهجوم. أحس بنفسه معلقا في الهواء وشعر بارتطامه بالأرض... إلى أن يصلا سأكون ممزقا.

قال: سامحوني... أغلق عينيه بشدة كي لا يرى فم الذئب المفتوح، رأى أن وجهه قد غاص في ذلك الفم. تسارعت ضربات قلبه، سمع أصواتا من بعيد: «كان بإمكاننا أن نأخذ بطاقات العرس غدا إلى قرية نصرآباد، لسنا في عجلة من أمرنا..»، فتح عينيه. شاهد ضوء فانوس وظلال السقف المتداخلة... «عندما رأيت حركات الذئاب، قلت لكريم لا بد من وجود أمر ما...»

عرف صوت كريم، حرك قدميه ويديه، إنه لم يفقدهم. أنه حي.
لقد رميناها بالفؤوس. يكفي أن ينبح أحدها حتى يفر الباقين.

- ملاعين الوالدين....

- يا للعجب... يا للعجب...

كان ذلك صوت عمدة القرية (يبدو أنه قد استعاد وعيه) انتبه إلى صوت سلطاني الذي قال: لقد مَنَّ الله على أمه وتلطف عليها.

ضغط على جفنيه؛ أنشد للحياة يا سلطاني. فهمس: «لقد شعرت به» واستمر في ذهنه يقول: ولكن كيف لي أن أشرح لك هذا؟

ما الذي تقوله.... يا سيدي؟

واصل نجواه قائلا: أدركته... واستمر في ذهنه؛ إلى الحد الذي يمكن لمسه؟ ألمسه؟

قال سلطاني: يا عزيزي كمال؛ هل تحتاج شيئا؟

واصل همسه: لقد رأيته، وقد ابتسم لي بلطافة مرئية.

ثم قال: يا أسرتنا... وأجهش بالبكاء.

كامران سحر خيز
Kamraan Sahar Khiz

ولد كامران سحر خيز في عام ١٩٦٤م في مدينة صومعة سرا بمحافظة كيلان الواقعة على بحر قزوين. حصل على شهادة الماجستير في آداب اللغة الفارسية. يعمل في حقل الإنتاج في هيئة الإذاعة والتلفزيون في محافظة كيلان ويتعاون كذلك مع مركز الفكر والفن الإسلامي وجمعية حفظ آثار وقيم الدفاع المقدس. حصل على جوائز عديدة.

صدر له: «أرني طريق بيتك»، رواية (٢٠٠٢) و«الظهور في مساء ليموني»، مجموعة قصصية (٢٠٠٣)، و«لا تقرأوا هذه القصة»، مجموعة قصصية (٢٠٠٥).

لا تقرأوا هذه القصة

تظنون قطعا أنــي كتبت هذه القصة حتى تقرأوها أنتم لكن، كلا، ليس كذلك، أنا أريد... ليس مهما، سأخبركم عما أريد في نهاية القصة. وأما القصة نفسها:

روى رجل اسمه الراوي لصديقه أنه كتب قصة تبدأ هكذا:

تظنون قطعا أنــي كتبت هذه القصة حتى تقرأوها أنتم لكن، كلا، ليس كذلك، أنا أريد... ليس مهما، سأخبركم عما أريد في نهاية القصة وأما القصة نفسها:

روى رجل اسمه صديق الرجل الراوي للراوي بأنه كتب أيضا قصة تبدأ هكذا:

تظنون قطعا أنــي كتبت هذه القصة حتى تقرأوها أنتم لكن، كلا، ليس كذلك، أنا أريد... ليس مهما، سأخبركم عما أريد في نهاية القصة.

لكن... ولكن قبل أن يروي هو وقبل أن أكتب أنا أريد أن أريح بالكم، ها أنا حقا أروي لكم القصة ذاتها:

الرجل الذي ليس أنا ولا رجلا باسم الراوي ولا صديق الراوي قد ولد ضاحكا بدلا من أن يكون باكيا في الساعة التي لا يعرفها بالتحديد في الحادي عشر من مارس سنة ألف وتسعمائة وأربع وستين وكان يضحك أيضا متى ما جاع.

كان يضحك عندما كان يركب الســيارة وكان يضحك عندما يقرأ الجريــدة. كان يضحك عندما يقــرأ الكتاب وكان يضحك عندما تزوج. وفي النهاية ضحك بالقدر الذي ضجر منه الجميع

فقرروا أن يفعلوا شيئا حتى لا يضحك. لأنهم ما كانوا يفعلون شيئا وما كانوا يضحكون وما كانوا يبكون.

إنهم كانوا يعيشون فقط والحياة ليست الضحك والبكاء. فقاموا بخياطة شفتيه بواسطة أقوى خيط كان قد صنع حتى ذلك الحين وبواسطة أفضل إبرة موجودة.

والآن إذ لم يكن قادرا على الضحك صار شكله مضحكا بقدر كبير، مما أجبرهم على أن يضحكوا لأول مرة، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا كانوا يضحكون عندما كانوا يجوعون. وكانوا يضحكون عندما كانوا يتزوجون.

وكانوا يضحكون عندما يتلقون الضرب وكانوا يضحكون عندما يقرأون الجريدة.

ولم يكن يوجد أحد يضجر، أو يقرر بأن يفعل شيئا حتى لا يضحك. وكان الرجل يعيش وهم كانوا يضحكون. العمل نفسه الذي كانوا يفعلونه حتى الأمس، هم كانوا يعيشون والرجل كان يضحك. الآن تتصورون لا محالة بأنني كتبت هذه القصة حتى تقرأوها أنتم وتضحكون عليَّ. أنتم أحرار تستطيعون أن تضحكوا، أو تذهبوا إلى أعمالكم وحياتكم.

على فكرة، قبل أن أنسى، كان من المفروض أن أخبركم لماذا كتبت هذه القصة بتلك المقدمة المكررة وما هو عمل ذلك الرجل الراوي وصديقه في الأصل؟

يا أحبائي، لا شيء! كانت حيلة كي تقرأوا هذه القصة الآن تستطيعون الضحك أو الذهاب إلى عملكم وحياتكم. وإذا انزعجتم فالذنب ذنبكم، أنا قلت لكم من البداية ألا تقرأوا هذه القصة!

أبوالقاسم فقيري
Abu Alqasim Faqeeri

ولد عام ١٩٣٧ في مدينة شيراز. أمضى دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية فيها. وبدأ العمل في سلك التعليم في المدارس الابتدائية عام ١٩٥٧ وأحيل إلى التقاعد عام ١٩٨٠ وكان مديرا عاما لدائرة الثقافة في محافظة فارس.

يعدّ هذا الكاتب من رواد القصّة في محافظته وقاعدتها شيراز وهو خبير في الفولكلور والثقافة العامة. طبعت له المجاميع القصصية التالية:

العقيم، البيت بيتنا، الوحش، معي على الطريق، المعطف، غزالتي الصغيرة النائمة، أنا المرأة العجوز وعمو نيروز.

كما نشر دراسات عديدة في الفولكلور منها: النغمات المحلية، قصص أهالي شيراز، الألعاب المحلية في فارس، لمحات من ثقافة الناس في فارس، التقاليد النيروزية في فارس، من النغمات المحلية في فارس.

العروس

كان اسمها فاطمة، لكن الجميع كانوا ينادونها فاطو. عمرها إحدى عشرة سنة وكانت لا تزال طفلة صغيرة تملك ثلاث دمى. كان الأطفـــال يحيطون بها بســـبب هذه الدمـــى. إحداهن كانت بطولها وقامتها هي. الدمية الأخرى كان لديها شعر طويل وعيون زرقـــاء فكانت تعتبرها الدمية العروس. فتضع الدمية التي كانت بنفس طولهـــا كعريس وكانت تقيم حفلة عرس يوميا. تزغرد مع الأطفال ويغنون:

- من يدخل غرفة العروس؟ العريس الأنيق مع زوجته.
- من يدور حوله؟ أختها الصغيرة.

وكانوا يزغردون: لي لي لي لي.. لي لي لي لي.

وحينما يستولي عليهم التعب يكون قد حان وقت الظهر حينها يذهبـــون ليعودوا عصرا. في ذلك اليـــوم كان الأطفال قد ذهبوا فورا إلى بيوتهم عندما نادت أم فاطو ابنتها.

- ماذا تقولين؟ ماذا؟
- تعالي إلى الأعلى، أحتاج إليك؟
- سوف آتي.
- فاطو.
- نعم.
- هل تريدين أن تصبحي عروسا؟
- طبعا أريد. من يكون العريس؟
- أسد الله خان.

- من هو أسد الله خان؟
- رجل ثري جدا.
- هل طوله كطول أحمد؟
- أحمد مازال طفلا لكن أسد الله خان رجل.
- كيف تصبح الفتاة عروسا؟
- حين تذهبين إلى بيت العريس سيعلمك.
- ماذا سيحلّ بدمياتي؟
- يجب أن تتركيها هنا.
- هل ستأتين أنت معي أيضا.
- لا!
- وماذا عن الأطفال؟
- لا، هم لن يأتوا أيضا.
- مع من سألعب هناك إذن؟
- يكفي كلاما! أنت لست طفلة حتى تلعبي!
- فمن أنا إذن؟
- أنت امرأة ناضجة.
- لكنني سأشتاق إلى الأطفال ودمياتي.

في المساء ازدحم البيت بالناس بحيث إذا كنت تلقي إبرة لا تصل الأرض من شدة الزحام. كانت فاطو ترى أشياء جديدة لم تمرّ عليها، كانوا يلبسونها ملابس جميلة وفرشوا لها سجّادة صلاة وأجلسوها عليها. أعطوها مصحفا مفتوحا وقالوا لها:

- انظري إليه.

بعد ذلك جاء رجل وقرأ أشياء لم تكن تفهمها.

لم تكن تفهم شيئا من هذه الأمور.

قالوا لها: قولي نعم! فقالت فاطو: نعم.

قالوا لها: بصوت أعلى. فاطو قالت بصوت أعلى: نعم!

وزغــردت النســاء ونثرن الحلــوى على رأســها. كانت فاطو تضحك وتجمــع حبّات الملبس مــن حولها وتضعهــا في فمها. عندئذ رأت رجلا قادما نحوها وكانت النســاء يفتحن له طريقا بينهن ويزغردن.

جلس بجانبها على الأرض في مقدّمة سجادة الصلاة، ووضع زوجا من الأساور في يديها. حركت يديها، ارتفع صوت الأساور، اســتمتعت فاطو بهذا الأمر، ومدّ الرجل يــده تحت ذقنها ورفع رأســها. عندما التقت نظرتها بنظرتــه فوجئت. كان الرجل مثل أبيها المرحوم بالضبط. فأطرقت رأسها.

ضحك الرجل وضحكت النساء أيضا. فنظرت فاطو باستغراب إليهم. كانت تلعب بأساورها عندما سمعت جلبة الأطفال:

فاطو! فاطو!

صاحت من مكان جلوسها:

- لا أستطيع المجيء.

- لماذا؟

لأنهم جعلوني عروسا، أمي تقول أنا أصبحت امرأة ناضجة.

ارتفع صوت امرأة بالغناء وهي تحمل الدف:

- الزقاق متعرج، نعم.

العروس صغيرة، نعم.

لا تلمسوا ضفيرتها.

شعرها مكتظ باللؤلؤ، نعم.

وضاع صوت الأطفال في زغردة النساء.

أبو تراب خسروي
Abu toraab khosrawi

ولد أبو تراب خسروي سنة ١٩٥٦م في ضواحي مدينة شيراز، وحصل على بكالوريوس للتعليم الابتدائي، ليعمل أعواما في تعليم الأطفال المعاقين بشيراز. من أعماله: «الهاوية» مجموعة قصصية، و«ديوان سومنات» مجموعة قصصية، و«أسفار الكتّاب» رواية فازت بجائزة «المهرجان» الأدبية، و«نهر الحكايا» رواية فازت بجائزة هوشنك كلشيري في دورتها الرابعة.

تعتمد أعمال خسروي القصصية على الأساليب السوريالية وما بعد الحداثة، كما يبدي نزوعا للنثر الكلاسيكي الفارسي واستلهام النصوص المقدسة. اهتمامه باللغة ومحاولاته تقديم مضامين جديدة جعلته صاحب أسلوب مختلف بين معاصريه من الكتاب.

وجود

نافذة مضـــاءة بضوء نارنجي. قالت المـــرأة: «مصباح المطبخ مضاء».

استدارت سيارة البيجو ثم توقفت فوق المعبر المقابل للمنزل. تثاءب الرجل وترجـــل، ومن الباب الخارجي عبر إلى الممر، ومن الســـلالم إلى حيـــث موضع الأحذية عند البـــاب الداخلي، ومن جيـــب معطفه اخرج مفتاح الدار، غير أنه أخفق في معالجة أمر القفـــل. أضاء المصباح الخارجي للمدخل، من ســـيارة «البيجو»، ترجلت المرأة وبعد أن اجتازت الممر قالت: «سأفتح الباب، اذهب أنت ورافق الأطفال».

حاولت المرأة فتح الباب، ولكن دون جدوى، فيما الرجل وضع يديه في جيب سرواله منتظرا. عندها قهقهت المرأة قائلة: (ربما لم يكن مفتاحه، ســـأجرب مفتاحي الخاص) بحثت عن مفتاحها داخل محفظتها، وبمفاتيحها أيضا لم ينجح الأمر. الريح حركت أشـــجار الصنار المتراصة على أطراف الســـاقية، كانت أوراقها تتساقط في الظلام وكان صوت خشخشتها يُسمع على الأرض. عندها ارتفعت قهقهات الرجل.

قالت المرأة: «اخفض صوتك فالجيران نائمون».

الرجل: «ومن حســـن الحـــظ أن الأطفال أيضا مســـتغرقون فـــي النوم»، وكرة أخرى حـــاول فتح الباب. أمـــا المرأة فحاولت عبر الإيوان الضيق المشـــرف علـــى الباحة إلقاء نظرة من خلال الشباك إلى مطبخ المنزل، نظراتها اصطدمت بنور ساطع انبعث

مـــن المطبخ، عندها لاحظت ظلا عند موقد الغاز، وعيون تبحلق فيها، كانت هناك امـــرأة عجوز في المطبخ، ترتدي معطفا وبريا قديما، وثوبها أسود طويل، وأطراف جواربها تتدلى عند قدميها، وشعرها الأبيض ملتف في كماشات الشعر الحمراء.

هرولت المرأة إلى حيث زوجها الذي لايزال مشـــغولا بمعالجة أمر الباب، لتهمس في أذنه: «هناك شخص في المطبخ».

صرخ الرجل: «من هو؟»

المرأة: «لا أعرفه!»

ســـار الرجل على أطراف أصابعه إلى حيـــث النافذة. كانت العجوز قد صارت خلف النافذة مباشـــرة ونظراتها مصوبة نحو الخارج.

صرخ الرجل بها: «كيف تجرأت على دخول دارنا؟»

ضيقـــت العجوز مـــن حدقتي عينيها وهي تنظـــر إلى الرجل بدقـــة. المرأة التحقـــت بالرجل ومن خلف النافـــذة طرقت على قضبان النافذة صارخة: «هيا افتحي الباب بسرعة».

فتحت العجوز النافذة وهي تبحلق مبهوتة بعيون المرأة.

المرأة والرجل كانا متسمرين خلف النافذة.

صرخ الرجل: «هيا بسرعة افتحي الباب والا...».

نظـــرت العجوز إلى ســـاعتها وقالـــت: «أفتح البـــاب لكم..! سأتصل حالا بالشـــرطة» تركت المطبخ ببطء. فوق شعلة الموقد الغازي الزرقاء كان إبريق الماء يغلي، والضوء الساطع المنساب من نافذة المطبخ جعل خصلات شـــعر المـــرأة تزداد توهجا، ضغطت شفتيها المشوبتين بالاحمرار إحداهما بالأخرى، أما الرجل فقد

أرخى ربطة عنقه قليلا، وبعد أن سحب منديلا من جيبه، جفف عرق جبهته. بعد ذلك سمع وقع اقدام العجوز بعد أن عادت إلى المطبخ، وعندما قطعته نحو الصّفة سـحبت سـكينا ضخما من إحدى سلاّت المطبخ الفلزية، وسارت صوب النافذة، وعند طرف النافذة أسندت كتفها على قبضة يدها، قائلة:

«لأجل أن تدركوا أن نومي خفيف كنوم الطيور، وأنني جاهزة دائما للدفاع عن منزلي، حقا إنكم لا تعرفونني جيدا، فأقداركم السـيئة جاءت بكم إلى داري، وإن أصررتم على البقاء سـيصل من يسألكم عن سبب وجودكم في هذا الوقت المتأخر خلف نافذة منزلي».

- عليك أن تعرفي أن الأطفال نائمون في السـيارة، ورأسـي يؤلمني وغدا صباحا على زوجي أن يذهب باكرا إلى عمله. افتحي الباب، طأطئي رأسـك وارحلي قبل فـوات الأوان، وأعـدك بأن لا تواجهي أي مشكلة بعد ذلك.

- لم يخطر ببالي أن يوجد أشخاص على شاكلتكم. تأتون في منتصف الليل لتخرجوني من منزلي. الشرطة ستصل قريبا، لقد اتصلت بهم وسـيصلون بين لحظة وأخـرى، حتى وإن لم يصلوا سألقنكم درسا بهذه السكين القاطعة.

- «ليس من اللائق إيقاظ الجيران في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكن ما الحل قد اضطر إلى ذلك، عندها سـألتقطك من فروة رأسك مثل أي قطة لأعرضك أمام الجميع».

- «إن أصررتم على البقاء في مكانكم هذا فستظهر حقيقتكم. فاللصوص المبتدئون دائما ما يسـرقون المتبن. ذهبت المرأة إلى السيارة لتلقي نظرة على الأطفال.

قالت: «إنهم متقرفصون من شدة البرد».

هبت رياح باردة، وسمع صوت خرير الماء، وتحت شعاع النور الفضي للأمواج صار رذاذه نسيجا انساب عبر منحدرات الطحالب.

صاح الرجل: «لقد تلاعبت بالقفل كي لا يفتح...افتحي الباب!» ضاربا بقبضته قضبان النافذة. انعكس صوت تهشم زجاجها في عتمة الليل، على قبضته لاح خط نازف، أسرعت زوجته نحوه، رفع الرجل يده محدقا بها في ضوء النافذة، على جبهته الملتهبة استقرت قطرات من العرق. أخرجت المرأة منديلا من محفظتها، ودعته لأن يبسط يده، وشدت يده بالمنديل. من بعيد سمع صوت سيارة مقبلة.

العجوز كانت تراقب من أحد جوانب النافذة، ومن خلف الأشجار لاح نور مصابيح السيارة. عندها قالت: «لقد وصلوا؛ وأخيرا جاء من سيحقق معكم عن سبب وجودكم في منتصف الليل في باحة منزلي».

اقتربت الدوائر النارنجية لمصابيح السيارة. نزل الرجل والمرأة عن طريق السلالم، اجتازا الباحة وبقيا ينتظران. توقفت سيارة الجيب البيضاء مخلفة صوت المكابح، هرول الرجل والمرأة حتى السيارة.

قال الرجل دون مقدمة: «مرت ساعة تقريبا، عندما عدنا من الضيافة ووجدنا شخصا داخل المنزل، أغلق كل الأبواب ولا يريد أن يخرج».

العجوز المتوقفة عند النافذة صاحت وهي تلوح بالسكين:

«أنــا من اتصل بكــم تلفونيا، لم أكن أريد إيقــاظ الجيران، وأنا دائما ما أكون ســـاهرة في مثل هذه الأوقات، حيث أرتشف كأسا من الشاي، كنت أســخن الماء لأجل ذلك، عندما شاهدت هذين الشخصين خلف النافذة».

ترجّل الشــرطة بملابسهم الرســمية ذات اللون الكحلي من السيارة.

خاطبتهم المرأة قائلة: «أخرجوها من المنزل».

ردت العجوز: «أنا التي اشتكيت عليهما».

أحد الشرطة: «ســيتضح كل شيء» بعد ذلك وجه سؤاله إلى العجوز: «متى دخلت هذا المنزل؟»

ردت العجوز مقهقهة: «منذ أربعين عاما، أو أكثر».

قال الرجل: «لم أكن أرغب بإزعاج الجيران، ولكني الآن أجد نفسي مضطرا إلى فعل ذلك».

عند المعبر كان العريف متســمرا، غير أن الشــرطي لم يكن يمكــث لحظة واحدة في مــكان، كان كالظل تجده في كل مكان، يقترب مــن النافذة، يلقــي بنظراته نحو الداخــل، يتهامس مع العجوز تارة، ليجتاز الأشــجار تارة أخرى. أشــرف العريف على إحدى الدور المقابلة قائلا: «هل يوجد فيها أحد؟»

الشــرطي الشاب يضغط على الجرس مرتين أو ثلاثا. ينبعث من خلف زجاج النافذة العلوية للباب نور نارنجي، ويسمع صوت ســعال جاف، يخرج رجل يرتدي روب «شــامبير» قديما بملامح منقبضة، نظراته بحذر منصبــة حيث المأموران. وبصوت واحد قال الجميع: مساء الخير.

قـــال العريف: «لقـــد أزعجناكم، لكننا مضطـــرون، وكان من الواجب أن نفعل ذلك؛ لقد حصل أمر ما، غير أنه لا يتعلق بكم».

قالت العجوز الواقفة تحت ظل نور النافذة النارنجي: «مساء الخيـــر، كان هؤلاء يريدون أن يدخلوا منزلـــي بعنف، حتى أنهم كسروا زجاج النافذة».

تقدم الرجل العجوز، وحدق في الرجل والمرأة.

- إنـــه لأمر عجيب، باب منزلنا لا يفتح بمفتاحنا، وهذه المرأة التي تمسك سكينا تقف في المطبخ، إننا آسفون على هذا الإزعاج الذي سببناه لكم.

الشرطي الشاب كعادته في حركة بندولية وسط العتمة.

قالت المرأة: «والأكثر إزعاجا، أن الجو أصبح باردا، ويمكن أن يصاب الأطفال بالبرد، وهذه العجوز لا تفتح الباب».

وقـــال الرجل العجوز وهو متوجه إلى حيث نور النافذة، قال: «كانـــوا يريدون الدخول من النافذة؟ من حســـن الحظ أنك كنت مســـتيقظة، وإلا كان مـــن الممكن أن يحدث كل شـــيء»، ثم وجه كلامه إلى العريف: «يجب علينا أن نشـــكركم، لأنكم وصلتم في الوقت المناسب».

قالت العجوز: «حتى عندما كان المرحوم حيا، كنت أنا أحافظ على المنزل، فالمرحوم كان لا يكاد يضع رأسه على الوسادة، حتى يغرق في ســـابع نوم، والآن يريد هؤلاء اقتحام بيتي بالقوة. أرجو ألا تسمحوا لهم بالفرار، لأني سأتقدم بشكوى ضدهم».

قال الرجل: «أمعن التفكير جيدا، ستتذكرني حتما».

ضحك العجوز موجها كلامه إلى الشـــرطة: «أي وقاحة هذه،

وأي أشـــخاص يظهرون هذه الأيام، يجب عدم السماح **لأمثالهم** بالوجود بين خلق الله، فمن الممكن أن يقتلوا الناس، أو يســـرقوا أموالهـــم»، بعد ذلك رفـــع من نبرة صوته موجهـــا كلامه صوب النافـــذة المضاءة: «كان عليك أن تخبرينا مبكرا، لقد قصرت في هذا الأمر، انتبهي وعندما يحدث شـــيء ما، أيقظينا. تصبحون على خير».

قالت العجوز: «تصبح على خير».

ركض الرجل مضطربا نحو عدد من المنازل المجاورة، ضاغطا علـــى أجراس عدد منها، وهو يضرب بقبضتـــه أبوابها صارخا: «شخص واحد... شخص واحد... شخص واحد».

منـــازل عديدة لم تفتح أبوابها، ســـوى رجل واحد ذي شـــعر أحمر، خرج راكضا من أحد البيوت، إلى حيث يقف الشرطيان.

قالت له المرأة: «انظر من هناك، من في البيت».

قالت العجوز: «مساء الخير، أتسمع ما يقولان، إنهما يدعيان أنني دخلت منزلهما، ثم أغلقت الأبواب في وجههما».

ظهرت امرأة ســـمينة من خلف ظلال الأنوار بخطوات بطيئة، ما كادت تســـمع صـــوت العجوز حتى ضحكـــت، وضحك أيضا الرجل ذو الشـــعر الأحمر، وفيما الريـــاح تواصل عبثها، وصلت المرأة الســـمينة إلى حيث النافذة المضـــاءة، وقالت: «ماالخبر ألا فأخبروني؟»

ردت العجـــوز: «حتى في تلك الأعـــوام، كنت من يحرس هذا البيت أرجو ألا يسمع صوتي وهو تحت الثرى، فالمرحوم حتى إذا كان يقظا، كان جبانا، ويذعر من صوت القطة».

قال الرجل ذو الشعر الأحمر: «لماذا لم تتصلي بنا؟».

قالت العجوز: «لعلهم يحملون مسدسات، فلا يقدر عليهم أحد سوى هؤلاء الشرطة، فإنهم تدربوا على مثل هذه الأعمال».

قال العريف: «تصبحون على خير»، ثم وجه كلامه إلى الرجل والمرأة: «عليكما أن تأتيا معنا» ثم قال للعجوز: «أحكمي إغلاق النافذة، وكوني مطمئنة، وغدا صباحا راجعي المخفر».

أمسك الشرطي الشاب بيد الرجل قائلا: «اصعد، تحرّك».

كان وجه المرأة قد ابيض، وشفتاها الحمراوان ازدادتا توهجا وسط بياض وجهها الحليبي. الدم يترشح من المنديل الملفوف على يد الرجل.

قال الشرطي الشاب: «شغل السيارة وانطلق».

ألقى الرجل نظرة على الأطفال المتقرفصين في المقاعد الخلفية للسيارة. خلع معطفه وقال للمرأة: «ألقيه عليهما».

ركب العريف سيارة الجيب: «سأكون في المخفر بانتظاركم».

ألقت المرأة المعطف على الأطفال وجلست بقربهم. انطلقت السيارة.

قال الرجل: «زارنا أصدقاؤنا في منزلنا هذا مرارا، وسيحدثونكم عن ذلك، عليكم أن تسألوهم، والآن هم مجتمعون، وكنا معهم في ضيافة، لكننا رجعنا قبلهم، وسيؤكدون لكم حقيقة ما نقول، وأنا واثق من أن الأمور ستتوضح لكم».

كان الرجل ينظر إلى زوجته من خلال المرآة التي كانت تجفف وجهها بالمنديل.

قالت المرأة: «اسألوا أصدقاءنا، سيوضحون لكم الأمر».

الأسواق والمحلات كانت مغلقة، وأسفلت الشوارع تضيئه أنوار مصابيح السيارة. ووسط عتمة الليل كانت تتراكض التصاميم والكلمات لتضيء ملامحهم.

قال الرجل: «يقع ذلك المكان في مسيرنا هذا، لا يحتاج إلى أن تترجلوا، يكفي أن أدعوهم حتى يكونوا عندكم، ليعرفونا اليكم».

قال الشرطي: «الوقت متأخر الآن، لنواصل مسيرنا».

قالت المرأة: «لقد رجعنا مبكرين من الاحتفال، فزوجي ينبغي أن يلتحق مبكرا بعمله. إنهم أصدقاؤنا وعليكم الاستفسار منهم».

قال العريف: «الوقت متأخر، وعلينا الوصول بسرعة.. فهم بانتظارنا».

كانت السيارة تقطع خلوة الشوارع بسرعة.

قال الرجل: «إن تمنحونا هذه الفرصة، فسنكون ممنونين لكم، فلقد وضعنا في موقف لا نحسد عليه؟ ولكن لا بد للأمور من أن تتضح، وللالتباس أن يزول، ليس سهلا استيعاب؛ أن يغلق أحد ما باب بيتك بوجهك و...».

قالت المرأة: «إن لم نرجع إلى البيت، فسيكون الأمر صعبا على الأطفال. لو سمحتم، أن نضع الأطفال عند أصدقائنا على الأقل».

قال الشرطي: «نعم... نعم، ضعوا الأطفال عند أصدقائكم».

قال الرجل والمرأة: «شكرا، لن ننسى هذا الجميل».

قال الرجل: «المكان ليس بعيدا من هنا، فهو قريب».

وبعد أن تجاوزت السيارة شارعا مظلما، توقفت أمام أحد المنازل. كان صوت الموسيقى يتسرب إلى الخارج من نوافذه

المغلقـــة. ترجلت المرأة من الســيارة بســرعة، ارتقت الســلالم وضغطــت على الجرس. الرجل والشــرطي ترجلا أيضا. وعند فتح الباب أطل رجل أصلــع. ضحكت المرأة اندفعت بحيوية من جانب الرجل الأصلع إلى مدخل البيت، لتتوقف عند بهو المنزل. ألقــى الرجل الأصلع نظــره إليها متعجبا، وموجهــا كلامه إلى الشرطي قائلا: «تفضلوا، أرجوكم» ثم تحرك صوب مكان المرأة، كرر ثانية «تفضلوا».

كان للبهــو ضوء خاطــف للنظر، وضع الرجــل «كمانه» على الأرض، أما تلك الهمهمات التي كانت تســمع عند مدخل المنزل فقد تضاءلت. وعند أطراف البهو كانت النساء بأزيائهن البراقة جالسات وخصلات شــعرهن الملونة ومساحيق وجوههن تسطع بالأضواء اللامعة.

ضحكت المرأة بصوت عال، وقالت: «لن تصدقوا، منذ اللحظة التــي رجعنا فيهــا إلى المنزل، ونحن في مــأزق لا مثيل له؛ فقد تحصّن شــخص في منزلنا، ولا يخرج منه، لا بل اشــتكى علينا، بأننا نريد أن نخرجه مــن منزله، لذلك قلنا؛ مادمتم موجودين، لعلكم توضحون الأمر».

ضحك الرجل أيضا ثم أضاف: «في البدء اعتقدت أني دائخ، أو مــن الممكن أن أخطأت، بل فكــرت بأنني أرى في المنام رؤيا، ولكن بعد جرح زجاج النافذة يدي أدركت أن الأمر كما هو حاصل فعلا».

عند أطراف البهو، تبادل الرجال والنساء المندهشون النظرات بين بعضهم البعض، ومن دون أن يرف لهم جفن تبادلوا الهمسات.

قال الرجل ذو الربطة الحمراء: «كما ترون، يبدو أنكم جئتم إلى هذا المكان خطأ، كما أنكم وللأسف دخلتم علينا من دون استئذان».

ثم ألقى نظرة على بقية الضيوف وقال: «ولا أعتقد أن أيا من ضيوفي قد تعرف عليكم سابقا، لذا أرجو ألا تضايقونا أكثر من ذلك»، وبعدها أشار إلى ممر الخروج.

كانت المرأة متسمرة وسط البهو، وملامحها الغاضبة ازدادت اشتعالا بفعل نور المصابيح، وهي تضغط على شفاهها، ألقت نظراتها على الضيوف فردا فردا.

قال الشرطي: «آسفون على الإزعاج، في هذا الوقت غير المناسب. تصبحون على خير».

ثم سحب الرجل من يده، بشكل اجتثه من مكانه. هرعت المرأة للحاق به. وبعد أن خرجوا من المنزل، سمع بكاء أحد الأطفال يشق صمت العتمة.

جلس الرجل خلف مقود السيارة، صعدت المرأة أيضا ثم أجلست الطفل على ركبتيها وحركتها ثم انحنت تقبله وهي تجهش...

ثم قالت: «كم الوقت الآن؟»

قال الرجل: «الواحدة والنصف».

قال الشرطي: «لقد تأخرنا، انطلق».

محمد رضا كاتب
M.R.Kateb

ولـد محمـد رضـا كاتب في العـام ١٩٦٦م في طهـران، وتخرج فـي الجامعـة في فـرع الإخـراج التلفزيونـي. يعمل إلـى جانب كتاباته القصصية والروائية في كتابة السـيناريو، وقد أصدر إلى الآن سـيناريو«قمر الليلة الرابعة عشـرة»، و«حمـرة التفاحة غير الناضجة».

وصدرت لـه ثلاث مجاميع من القصة القصيرة هي: «قطرات المطر»، و«نظرة خريفية صفراء»، و«اجتياز القميص».

اختيرت روايته «هيس» كرواية العام لسنة ١٩٩٩م ونالت جائزة النقـاد والكتاب والصحافيين. مـن الروايات الأخرى لمحمد رضا كاتب يمكن الإشارة إلى «البريد»، و«وقت التقصير»، و«أيام الإثنين الزرقاء».



الأرض الزرقاء

الصقيع على أشــده. الرياح الباردة تئن وترمي بالصقيع على وجه «لالي»(*). كان لالي يتسلق سفح تل من ويبحث فيها بعصاه. وقف وشــاهد أمامه ســهلا فســيحا من الزبالة، وخلفه ربضت المدينة متعبة حالكة يدثرها الدخان. وقعت عيناه الذابلتان على قطعة مطاطية زرقاء نطّت من شق في كيس زبالة.

تقدم وجلس. ســحب المطاط الأزرق من الكيس. كان شاحنة محطمة بلا عجلات. دسها في «كيس من خيوط الكنف» ممتلئة بقطــع الزجاج والأســلاك والنحاس. عاد وفتــش كيس الأزبال عســى أن يعثر على شــيء ينفعه. وقعت عيناه على قلم باستيل صغير. انطبعت على شــفاهه بســمة باهتة حزينــة. أمعن فيها قليــلا. أخذ قطعة ورق ورســم خطا عليها. ترك قلم الباســتيل خلفه خطا مرتعشــا. نهض قليلا ونظر. السيد أصغر كان ينبش الأزبال بعيدا عنه.

ســحب لالي قطعة مقوى بيضاء ومجعــدة من الكيس ونظر إلى صفحتيها. كانــت جزءا من علبة ألعاب. وضعها أمامه وراح يتملاها وهو يفكر ما الذي يرسمه عليها.

كما كان يرســم دوما بالفحم على الأرض، أو الجدران، رسم ســماء حالكة بقلم الباستيل الأســود، ووضع لها غيوما وحمائم وصقيعا متساقطا وشمسا. شمسه كانت مبتسمة لكن ابتسامتها أيضا ســوداء. لم يكن في المقدور تصديق أن ابتسامتها حقيقية.

(*) لالي: بمعنى الأبكم.

ضوء الشمس السوداء لم يكن لينير أي مكان. وكأن الليل يخيم على كل مكان.

رسم لالي غرفة صغيرة كالتي يعيش فيها مع السيد أصغر بشباكين كان يرسم على زجاجيهما المغشين بالبخار دوما. استحضر السيد أصغر بوجهه النحيف وشاربه الكثّ المسبل ليرسمه. رسم أولا عصا السيد أصغر. العصا التي كان يضرب بها دائما. ثم رسمه هو. فجأة تحرك السيد أصغر ونفض الثلوج عن كتفيه.

ما إن وقعت عيناه على لالي حتى رفع عصاه وصرخ فيه كعادته:

- يا جرو، ها قد انكفأت على نفسك مرة أخرى. قمْ.. قلت لك قمْ!

رفع السيد أصغر عصاه إلى الأعلى وضرب لالي على جنبه بقوة كما فعل بالأمس. انتشر الوجع في جنبه. ترك قلم الباستيل وراح يتلوى على نفسه ويئن. صرخ السيد أصغر:

- قم قبل أن أصير لك جلدكَ أزرقَ كتلك المرة... إما يرسم أو يتخيل. هيا انهض وآتنا بالماء.

ثم رفع عصاه مرة أخرى. لم يمهله لالي ومحى بظفره الطويل عصاه من على المقوى. تعجب السيد أصغر وهتف:

- ماذا؟! أتسرق عصاي؟! يا ابن ال...

ضحك لالي. نسي الألم. كان السيد أصغر يصرخ ويشتم من دون انقطاع.. كما هي حاله دوما.

مسح لالي فم السيد أصغر أيضا. لم يعد في استطاعته أن يصرخ عليه.

فجأة هبت في داخله نسائم وتموج قلبه كتموج بركة. وضع يده تحت حنكه وفكر في أمه. أخذ الباستيل ورسم قبرا خلف الغرفة. قبر جميل وليس كومة تراب كما هو حال قبر أمه. مسح لالي بيده رخامة القبر فكانت باردة كقطعة سلك نحاسي. أراد أن ينظف الرخامة من الغبار والتراب فنظف القبر وقال متمتما: «لا فائدة من هذا ما دامت غير موجودة. يجب أن أرسمها هي».

لم يبق من قلم الباستيل الأسود سوى قطعة صغيرة. استطاع أن يرسم بها إحدى عيني أمه فقط. فتش كيس الزبل على عجل. تمنى لو تكون فيه قطعة باستيل أخرى. وجد أخيرا. وجد عدة قطع... قلم أخضر، وآخر أزرق، والثالث بنفسجي.

راح يرسم وجه أمه. بعد قليل كفّ عن الرسم ونظر إلى وجه أمه وقال:

- أماه، أماه. هل تحبين أن يكون شعرك هكذا، أم أطول؟

لم تجب أمه. لم يكن لها فم. رسم لها فما باللون الأخضر. ضحكت أمه وقالت:

- ارسمه أطول. ألا تذكر كم كان شعري طويلا؟ كنت أنشره على كتفي. فكنت تقول آنذاك: كم أصبحت جميلة يا أماه.

رسم لالي لأمه ضفائر طويلة باللون الأزرق كأغصان الصفصاف المرتعش. عيون أمه كانت بنية. لكنه أراد أن يرسمها بنفسجية لأنه لا يملك اللون البني. امتعضت أمه وقالت:

- لا ترسمها بنفسجية. تذكرني بالزرقة. ينقبض قلبي إذا كان كل شيء بنفسجيا. قلت لك هذا عدة مرات إني أكره اللونين الأسود والأزرق.

- اضطر لالي إلى أن يرسم عيون أمه زرقاء وخدها أخضر.

- أماه، أماه، كم أصبحت جميلة! أصبحت جميلة والله.

ضحكت أمه بفمها الأخضر. رائحة اللون الأخضر تداعب عيون لالي. قالت أمه:

- يا محتال، متى كنتُ هكذا؟! شعري وعيوني زرقاء، وفمي ووجهي أخضرين؟

قال لالي:

- ليس هناك لون آخر، والله ليس هناك لون آخر.

ضحكت أمه مرة أخرى وقالت:

- ماذا عن بقية جسمي؟

قال لالي:

- أوه... نسيت!

وراح يرسم، رسم باللون الأخضر يدين ناعمتين. مدّت أمه يدها من الرسم وطوقت عنقه وقبلته. تركت القبلة أثرا أخضر على وجنتيه. رسم لها زوج أحذية. ومعضدا يشبه الذي رهنته، وثوبا مطرزا بورود بنفسجية. تجادل معها طويلا حول لون الورود إلى أن رضيت. ليس الأمر بيده فقد كان يحب اللون البنفسجي، والبني الغامق، والأسود.

حينما لبست أمه أحذيتها بدأت تمشي على صفحة المقوى. وإذا بها تبصر السيد أصغر. صرخت:

- الويل لي يا ولد، أين وضعت عباءتي؟

هبّ لالي ورسم لأمه عباءة مرقعة من الداخل. أحكمت أمه تغطية رأسها وجوانب وجهها. نظرت إلى السيد أصغر وقالت:

- ماذا يفعل السيد أصغر هنا؟

قال لالي:

- أنا عنده يا أماه. أتذكرين يوم خرّ سقف غرفتنا على رأسك؟ جئتُ ورأيتك تحت الأنقاض.

بكيتُ طويلا إلى أن جاء السـيد أصغر وأخذ يدي وقال: مع أنه من أقاربنا لكنه سـيقبل حضانتي. ثم قال للجيران إنه سوف يتبنانـي، فدعا له الجميع بالخير. أخذني السـيد أصغر عنده. يؤذينـي كثيرا يا أماه. ذات مرة هربت وجئت إليك... إلى قبرك يا أماه. جلسـت طويلا وانتظرت أن تأتي لكنك لم تأت. ناديتكِ وبكيت طويـلا... بكيت لكنك لم تأتِ. قلـت: طالما لا تأتي إذن لأقصّ لها كم يؤذيني جميعهم. عسـى أن يـرقّ قلبها لي وتأتي. حدثتك طويلا لكنك لم تأتِ. جاء السـيد أصغر فجأة. أمسكني وضربنـي.. ضربني كثيرا. سـال دم كثير من أنفي. وانكسـرت إحدى أسناني. لكنه لم يكفّ عن ضربي.

التفتت أمه للسيد أصغر وقالت:

- تبا لكَ، لِمَ ضربت ولدي. سـأريك الويـلات. لا تظنّ أني مريضة ولا أستطيع الحراك.

هرب السـيد أصغر إلى خلف الغرفة الصغيرة وأطل برأسه من وراء الجدار يسـترق النظر. من حسن الحظ أن ليس له فم وإلا لما كفّ عن الشـتم. رأى لالي أمه تطيل النظر إلى السـماء. قال:

- ماذا يا أماه؟ أماه، ماذا؟

قالت أمه:

- لمَ رســمت الدنيا حالكة هكذا؟ قلبي ينقبض. لوّنها مادام عندك أخضر وأزرق.

قال لالي:

- لدي أخضــر فقط. ليس لدي مــن الأزرق إلا القليل، لقد رسمتُ شعركِ الأزرق طويلا جدا.

- لا بــأس، لوّنهــا بالأخضر. أتذكر ماذا قلــتُ لكَ يومذاك؟ أدري، نعم، أدري قلبُكَ ممتعض جدا.

أجهش لالي بالبكاء وقال:

- نعم يا أماه، نعم. السيد أصغر يضربني. أعمل كثيرا. أخدّر له الشاي لكنه لا يكف عن ضربي.

يكتب على الورق أســماء الأشــياء التي يريدها ثم يرسلني فــي الصقيع إلى رأس الشــارع مشــيا. كلاب كثيرة هناك يا أماه. أركض حتى هناك. رأس الشارع فيه الكثير من الأطفال. مــا أن يروني حتــى يركضوا ورائي ويســخروا مني ويرموني بالثلوج على رأســي. يضحكون عليَّ ويسخرون مني ويحيطون بي ويصرخون: «اضحكوا علــى الطفل الأخرس واطردوه من الزقاق».

أخرجت أمه يدها من المقوى وهي تبكي. ضمت رأسه لصدرها وداعبته كما كانت تفعل. بكت عيناها الزرقاوان بحرقة. ســالت قطــرات الدموع الفيروزجية من عينيها. قبل أن تغســل الدموع لون وجنتيها الأخضر أو تســقط على الأرض وترش رذاذها هنا وهنــاك كانت تغيّر فــي طريقها لون ثوبها بوروده البنفســجية. وضعت يدها على صدره وقالت:

- أغمض عينيك. أريد أن أخرج غصصك من قلبك.
أغمض لالي عينيه بشكل ناقص، وظلّ ينظر من زاوية ضيقة بين جفنيه. دست أمه يدها الناعمة في صدره وانتزعت منه حيوانا يشبه سحلية كبيرة سوداء، ورمته في الأزبال ثم قالت:
- ها قد أخرجت غصصك. كن فرحا إذن.
شعر لالي بخفة. راقه أن يلوّن السماء. لم يستطع بما تبقى من الباستيل الأزرق الصغير سوى أن يلوّن سحابة. لوّن بقية الغيوم خضراء. ولوّن الطيور وحتى الشمس بالأخضر. لوّن الدنيا كلها بالأخضر. أخذت الشمس الخضراء تسطع. فجأة أحسّ برائحة الضوء، والأحراش الطازجة وحقل البريسم.. المكان الذي وضع فيه الريحان والجبنة في الخبز وأكله مع أمه. قالت أمه:
- هكذا أفضل.
الشمس كانت تسطع بحرارة وتزيد من حرارة جسمه. قالت أمه:
- يا أولاد الذين تحدثت عنهم؟
رسم لالي بسرعة خمسة، أو ستة أولاد يلعبون. ذهبت أمه إلى الأولاد وقالت:
يا أولاد.. تعالوا هنا.. لِمَ تؤذون ولدي؟ ليس له أحد في الدنيا. ليس له من يحنّ عليه. إنه وحيد فريد. السيد أصغر يضربه، وأنتم تؤذونه بدل أن تحبوه! هذه خطيئة. تكاد روحه تزهق من الوحدة. لذلك فإنه يجلس ويرسم.
قال الطفل الذي جلس ذات مرة على صدره وضربه:
- لم نكن نعلم هذا يا أم لالي.

أعطى الأولاد عهدا بألا يعاودوا ضربه. وإذا أراد أحد إيذاءه فسينصروه لأنه وحيد. لم يصدق لالي كلامهم. كان يدري أن الأطفال سيعاودون ضربه.. بالعصي والأحجار. لكن أمه لم تكن تعلم ذلك. ضحكت وقالت:

- اذهب الآن والعب معهم. ألم أقل لك إن الأطفال طيبون، لكن يجب أن نعلّمهم. الأطفال أكثر عطفا من الجميع في العالم. وقلوبهم أنقى الجميع.

لم يتحرك لالي من مكانه. قالت له أمه:

- لِمَ أنت واقف. اذهب إليهم.

- أين تريدين الذهاب يا أمي؟

- أريد الذهاب لشراء قرصين من الخبز والحلو.

- سآتي معكِ... سآتي معكِ. إني أخاف الأطفال. إذا ذهبت فسيعاودون إيذائي. والله يضربونني يا أمي. وربما عاد الرجل ذو السن الذهبية الذي أراد اختطافي في الصحراء ولاحقني ثانية. سآتي معك يا أمي.

قالت الأم:

- طيب، تعال نذهب.

ومشت قليلا لكنها ضربت على يديها فجأة وقالت:

- أوووه. ليس معي نقود. نسيتُ أني مريضة والسيدة طردتني.. ثم إني لا أقوى على العمل.

قال لالي:

- لا بأس يا أماه. اتركي ذلك لي.

ورسم بالأخضر تلا كبيرا من الزبل عليه كم كبير من المطاط

والزجاج والأسلاك النحاسية والأوراق. قال لالي:

- سنأخذ هذا الزبل ونبيعه ونشتري خبزا وحلوا. ونستطيع شراء الدواء أيضا لكي لا تسعلي وتقذفي الدم من فمك.

ثم ملآ كيسا بالأزبال ليأخذاه ويبيعاه. فجأة سمع لالي نباحا. رفع رأسه من الرسم. كان قد أحاط به قطيع من الكلاب الجائعة وهي ترمقه بنظراتها الفاتكة. دبَّ الفزع في كل أوصاله. هبّ من مكانه خائفا وراح يصرخ:

- السيد أصغر.. السيد أصغر.. تعال.. بالله عليك تعال... تعال ساعدني. لا تدعهم يأكلونني. لن أخبر والدتي مهما فعلت بي من ويلات. لن أهرب أبدا. سأفعل لك كل ما تحب.

لالي يبكي ويطلب النجدة من السيد أصغر ملتمسا. كان السيد أصغر يواصل عمله بعيدا عنه. حتى إنه لم يلتفت ليرى ماذا يفعل لالي. وقف لالي مبهوتا مسمّر القدمين. حدّق في الكلاب وقال:

- اذهبي بالله عليكِ. إني أخاف منكِ. بالله عليكِ لا تتقدمي. إنني مسكين - الكل يؤذيني.. الكل يضربني.. ألا ترقّ قلوبكم عليّ؟

ثم سارع وعرض جرح رأسه على الكلاب وقال:

- انظروا هنا! هذه ضربة الرجل ذي السن الذهبية. سال دمُ كثير! ذات مرة.. ذات مرة أطعمتُ الخبز كلبا صغيرا وداعبته. لم أضربه أبدا. ولم أصبّ عليه الماء المثلج.

تقدمت الكلاب تعوي بغضب وضيّقت الحصار عليه. صرخ لالي وطلب النجدة. لكن أمه والأطفال في الرسم فقط هم من

استطاعوا سماع صوته. كلهم كانوا يركضون نحوه وهم يهتفون:

- اهرب.. اهرب!

أمــه كانت تخرط وجهها بأظفارها وتئن وتسـتغيث. وأحيانا تصرخ بأعلى صوتها:

- يا الله... يا الله... يا الله.. ساعده أنت.. واااه.. يا الله.

نظــر لالي. الأطفــال كانوا يركضون بســرعة ويتقدمون من أســفل ورقة الرسم. فكر لالي في نفسه للحظة: «ربما أرادوا أن يضربونــي ثانية». لكنه حينما نظر إلى عيونهم وعلم أنهم جاءوا لمساعدته ضحك وصاح:

- أمــاه.. أماه... إنهم يحبونني حقا... أماه.. انظري... إنهم يصرخون لأجلي حتى لا تأكلنــي الكلاب وتهرب. أماه، أماه، كم صديق لي... انظري، والله لي أصدقاء.. انظري يا أماه.

كان لالي فرحا. فجأة رأى السيد أصغر يبحث عن عصاه كي يخــوّف بها الكلاب. حينما وجد أن الــكل يحبونه ويقلقون عليه طار من الفرح وانتابه الضحك.. ضحك إلى حد أنه عاد للبكاء. الأطفال يركضــون نحوه معولين ليرمســوا الــكلاب بالأحجار والعصي، وإذا بقدم أحدهم تعثر فيسقط أرضا.

قال لالي:

- أوووه يا رب. ما حدث لقدمك؟

تظاهــر الطفل أنه بخير على رغم ما يتجرعه من ألم. التفت إلى باقي الأطفال وهتف:

- اذهبوا واضربوا الكلاب... اذهبوا وساعدوا لالي!

الكل يركض لنجدة لالي، والطفل المصاب يتبعهم برجل عرجاء

وأنـــين متواصل. عرفه لالي.. إنـــه الطفل الذي جثم على صدره ذات مرة وبصق في وجهه. شعر لالي بأنه ورقة معلقة في الجو. شعر بأنه خط أزرق نصف دائري. شعور خالص بالخفة والتمدد والانجـــذاب. وخلو عجيب من الحالة بعد تعب شـــديد غامض. حالة غياب وارتعاش يبعث اللذة.

حينما فتح عينيه وجد نفســـه في الرســـم إلـــى جانب أمه. الجميـــع ما عدا أمـــه غادروا لطرد الـــكلاب. ركض لالي وألقى نفسه في أحضان أمه. احتضنته وقالت:

- جئت؟ كنت أعلم، كنت أعلم.

ثم ضمته إلى صدرها بقوة ودست أصابعها في شعره بهدوء. شمّته وقبلت عينيه الكبيرتين. نظر لالي إلى وجه أمه المخرمش وقال:

- ما أسعدني بجنبك يا أماه. وأنتِ؟ هل أنت سعيدة أيضا؟

بكت أمه ردا على ســـؤاله. انقضى بعـــض الوقت في البكاء. بعدها أمســـك أحدهما بكفّ الآخر وســـارا معا تحت الســـماء الخضراء وعلى الأرض الزرقاء... ســـارا إلى حيث تلتقي الأرض بالسماء.

هوشنك كلشيري
Hoshang Golshiri

ولد في العام ١٩٣٧ في مدينة أصفهان وتوفي في العام ٢٠٠٠ في العاصمة طهران. كتب كلشيري ست روايات وسبع مجاميع قصصية. وعمل في حقل الصحافة الثقافية وترأس تحرير مجلة أدبية عنوانها كارنامه. يعتبر هذا الكاتب من أهم الأسماء المؤثرة في السرد القصصي بعد صادق هدايت ويعد من مؤسسي رابطة الكتاب الإيرانيين. من أعماله:

الأمير احتجاب.

المرايا ذات الأبواب.

المعصوم الخامس.

مصلاي الصغير.

النصف المظلم للقمر.

شجرة الصنار

كادت الشـــمس تتوارى خلف المغيب، فإذا برجل يتســـلل إلى شجرة صنار في أحد الشوارع.

عقد يديـــه حولها وثبّت قدميه وتســـلق جذعها الجاف. كان يرتـــدي بنطالا أتت عليـــه الرقع، وقد انخرق أحـــد حذائيه من تحت.

فـــي الجانب الآخر من الشـــارع، كان النـــاس يتفرجون على واجهات المحال. فإذا بهم تتحول أنظارهم نحو الرجل وهو يحاول جاهدا تسلق الشجرة، كان بين الجمع الغفير امرأة شابة ترتدي قميصا قصير الكُم، يتلألأ عضداها بياضا تحت بريق الشمس، وهي تمســـك بيد اَبنها الصغير البديـــن وتتمعن في الرجل وهو يتسلق الشـــجرة. وكان بقربها شـــاب طويل القامة يعبث بربطة عنقه، يشـــدها تارة ويرخيها أخرى. كان الشاب ينظر إلى الرجل ثم يدحرج نظرته نحو المرأة وعضديها المكشوفين.

كانت قطع السحب البيضاء والسوداء ترقع وجنة السماء الزرقاء ونور الشمس الباهت يضيء نصف جذع الشجرة. كان بالقرب رجل واضعا بُرنيطة على رأســـه، فســـأل متعجبا «لِمَ يتسلق هذا الرجل الشـــجرة؟» فتمْتَـــمَ رجل قصير كان واقفا بجانبـــه «لا أعرف، لعله مجنون» قال الشاب «ليس بمجنون، لعله يريد أن ينتحر!».

قال رجـــل أصلع طويل القامة وبديـــن، معترضا «كيف ينتحر وتقـــول إنه ليس بمجنون، أم تظنه عاقلا؟!» وفجأة رفع شـــرطي رأســـه من بين الحشد وســـأل بصوت فيه خُنّة «ماذا يجري هنا»

فلم يسمع ردا، الكل كان ينظر إلى الأعلى. وفي هذه اللحظة، كان الرجل المتسلق قد اجتاز الفيء على جذع الشجرة فبدأ ضوء الشمس يتسلل في بذلته الرمادية. ولما رأى الشرطي الرجل مستمرا في تسلقه الشجرة ولا يبالي بوجوده، قبض على هراوته بشدة صارخا «يا حمار! لِمَ لا تنزل! ماذا تفعل هناك في الأعلى!» ضحك رجل دخل لتوّه بين الحشد بصوت مكبوت. التفت الشرطي نحوه وحملق في عينيه وحرك الهراوة بين يديه ثم أدار عينيه الناعمتين بين الناس وصرخ مرة أخرى قائلا «ماذا بكم! أتقسّم الحلوى هنا!هيا ارحلوا» ثم دفع ببعضهم وطلب من آخرين أن يتفرقوا ثم رمى بنظرته إلى الرجل حيث كاد يصل إلى أعلى الصّنار، فبدأ يفتِلُ شاربه المتدلي فوق شفتيه ولزم الصمت.

انضمت امرأة ذات ثياب رثة إلى الحشد. تحمل طفلا شاحب اللون بين ذراعيها، فمدّت يدها أمام رجل سائلة «سيدي، فلسا» فلما رأته لا يبالي بها والكل ينظر إلى الأعلى، أخذت هي أيضا بنظرتها إلى ذات المكان. كان مخاط ابنها سائلا على شفتيه وكأنه دودتان بيضاوان قد شرعتا بالزحف إلى الأسفل.

هرولت امرأة نحو الحشد وهي تجرّ عباءتها خلفها، تسحب طفلين صغيرين معها، فلما رأت الرجل فوق الشجرة، قالت «ربنا يستر! ماذا يفعل هناك فوق الشجرة! حرام سيسقط من فوقها!».

لم تسمع ردا لأحد.

مدّت المرأة المتسولة يدها أمام رجل ذي نظارة، وقالت «سيدي، فلسا». لم يعرّ الرجل اهتماما لها وأصر في النظر إلى الرجل فوق الشجرة. وأما ابنها فكان يحملق في الناس بعينيه

الصغيرتـــين الســـوداوين ويلحس مخاطه بلســـانه ويحرك يديه النحيلتين الوسختين.

ومن تحت الطرحة البيضاء القذرة، تناثرت خصلات من شعر المرأة على جبينها ووجهها. فلملمت المرأة المتسولة جسمها تحت العباءة وكانت تحاول أن تثبت الطرحة القذرة تلك، بدبوس تحت حنكها.

قال الرجل ذو النظارة بصوت منخفض «فليذهب أحد وينزله من فوق الشجرة قبل أن يرمي بنفسه».

ردَّ الشاب عليه قائلا «مستحيل، تأكّد قبل أن يصل إليه أحد ســـيرمي بنفسه». ثم التفت إلى المرأة المتسولة قائلا: «ليس معي فكَّة».

بدأت الســـيارات تصطـــف واحدة تلو الأخرى في الشـــارع، أخرجت فتاة رأســـها من إحدى الســـيارات وشـــرعت تنظر إلى الرجل حيث كان يتحرك فوق الشـــجرة، نزل رجل بطين ذو ربطة عريضـــة متدلية فوق قميصه الأبيض من الســـيارة واقترب من الحشد.

وصل عدد من رجال الشـــرطة وانتشروا بين الناس ثم حاولوا أن يفرقوا حشـــدهم. أما الناس فكانـــوا يتراجعون مرة وأخرى يتقدمون بعض الشـــيء وفي النهاية أصبحت الجماعة كما كانت قبل مجيء الشرطة.

ســـأل الرجل البطين ذو الربطة الشرطي ذي الشارب، قائلا «لِمَ هذا التجمع، ماذا يفعل هذا الأحمق فوق الشجرة؟».

صَفّ الشرطي رجليه بشدة وألقى التحية، ثم ردّ على الرجل

«ســـيدي العقيد! يريد أن ينتحر!» نظر الناس أولا إلى الشرطي ذي الشـــارب ثم حولوا نظراتهم إلى الرجل البطين الأنيق قليلا ثم اســـتمروا في النظر إلى تســـليتهم فوق الشـــجرة. وفي هذه اللحظـــة دوّى صوت بائع الجرائد فـــي المكان «ملحق الصحيفة! قتل عاهرتين على يد شاب. الملحق، فلس واحد». بعد قليل ضاع صـــوت بائع الجرائد. وفجأة، برقت فكرة في رأســـي فصرخت قائلا «ياعم، سنجمع لك مالا، تنازل عن فكرتك هذه».

عَبَرَ صوتي فوق رؤوس الناس حتى وصل إلى الرجل. وضعتُ يدي في جيبي ولمســـت أصابعي درهمـــين، فأخرجتهما ورميت بهما أمامي. تدحرج أحـــد الدرهمين تحت أقدام الناس وضاع. بدأ الناس يتدافعون ويتزاحمون من أجل البحث عن الدرهم، ثمّ أدخل كل يده في جيبه ورمى بفكته. ارتفع صوت رنين الدراهم. بدأ الرجل البدين يبحث كثيرا في جيوبه من دون أن يحصل على شيء. فقال بهدوء حيث يسمعني «تبّا، ليس معي فكة...».

حتى المرأة المتســـولة أخرجت من تحت جوربها كيســـا قذرا، وأخرجت منه فلسين أســـودين ورمت بهما حيث الدراهم. فجأة ارتفع صوت الرجل الذي كان فوق الشجرة. وكأن صوته يسمع من قعر بئر، فرَنَ في آذان الحاضرين: «أنا لا أحتاج إلى دراهمكم.. ارموا بهذه الدراهم في الجحيم!».

كان فـــي صوته رنة ممزوجة ببعض الشـــيء من الرجفة. كف الناس عن رمي الدراهم. حملقت المرأة المتسولة في الدراهم، ثم غابت عن الناس.

وشوش الرجل الأنيق شيئا ما في أذن الشرطي ذي الشارب.

رجع الشـــرطي وخاطب الرجل قائلا «ياعم انزل، حضرة العقيد يريد مساعدتك».

تدحرج صوت الرجل من فوق الشجرة «تعسا لكم ولمساعدتكم، من قال إني أحتاج إلى مساعدتكم!».

وصل ضابط توا، فنظر إلى الأعلى ثم سأل من الشرطة الذين اصطفوا احتراما له، قائلا «ماذا يفعل هناك فوق الشجرة!».

ردّ عليه أحدهم «يريد أن ينتحر».

قال الضابط «حســنا، فلينتحر، ولكن لِمَ هذا التجمع، يا الله فرقوا هذه الجماعة بســرعة!» ثم توجــه إلى الناس صارخا «يا سادة، ما الأمر؛ هيا تفرقوا!».

وفجــأة وقعت عينه علــى العقيد، فلملمَ نفســه وألقى تحية عسكرية ثم سلّم عليه.

دخلت الشرطة بين الناس، كان لصوت صفارة المرور دوي في الأذن، الشــرطة كانت تحاول تمرير الســيارات الواقفة. تناثرت الدراهم تحت أقــدام الناس. فانحنى البعــض لالتقاطها، فلما وجدت المرأة الشــابة المكان قد ضاق بها، أخذت بيد ابنها تجرّه وراءها لتخرج من الازدحام. وقد اختفى الشاب أثرها بعد قليل.

ســمع صوت في الخلف يقول مُخَنْخنا «كيف تريد أن تمسك به؛ لعلــك تظنه كرة صغيرة!» ثم أخرج منديلا من جيبه ووضعه على أنفه ثم تمخّض مرات بصوت مرتفع في المنديل، فاشــمأز الآخــرون من عمله هذا، ولكنه فعَص المنديل ودحســه في جيبه غير مبال بالآخرين ثم استمر في النظر إلى أعلى الشجرة.

من زاوية ما، قال شاب عريض الكتفين يدخن سيجارة «لو رمى

بنفسه، سيقتل الآخرين معه! ولكنه فقط يحملق في الناس!»، ثم حملـــق هو في رجل كان يضغط عليه من الخلف وقال: «لِمَ تدفع يا عم! ألا تستطيع أن تثبت في مكانك؟!».

دخل بين الحشـــد رجل يحمل على كتفيه ولدا أشـــقر، فقال مخاطبــا صغيره «بني، انظـــر إلى الأعلى، ها هو فوق شـــجرة الصِّنار».

وفي زاوية أخرى، كان رجل نحيف يحرك مجلة على صفحتها الأولى صورة امرأة مبتسمة ليخفف عنه شدة الحرارة.

كان النـــاس يطلـــون برؤوســـهم من خلـــف الشـــجرة. كانت السيارات تواصل مرورها ببطء والركاب ينظرون من خلف نافذة الباص، إلى شجرة الصِّنار. كان شرطي المرور ينفخ في صفارته باستمرار. ولايزال بعض رجال الشرطة يطوفون بين الناس.

ارتفع صوت رجل شـــاب من الخلف يقول ساخرا «لعله يظن هذه الشجرة مقدسة فصعد إليها ليسمعها تضرعه».

وبعـــد هنيهة رفـــع صوته مرة أخرى قائـــلا «يارجل، إياك أن تسقط... فيدخل إصبع رجلك في عينيك!» لم يرق للبعض هذه الاستهزاءات، فحملقوا في الشاب شزرا فلم ينبس بكلمة.

بـــدأ الناس يصابـــون بالملل والتعـــب. فترك البعـــض المكان متذمرين. بين حين وآخر كان يدخل عليهم شخص جديد ويطرح بعض الأسئلة «ماذا يجري هنا؟» ثمّ ينظر إلى فوق الشجرة.

أضاءت المصابيح فوق أعمدة الكهرباء بضوئها الخافت المكان.

دخل المكان نفر من الشـــباب بدراجاتهـــم الهوائية من الرصيف المقابل. اتجه شـــرطي المرور نحوهم وأراد منهم أن يغادروا فورا.

فجأة؛ سمع صوت تخلية هواء إطار دراجة تبعه صوت اعتراض راكبي الدراجات.

تحــرك الرجل فوق الشــجرة ثم انحنى وعقــد يديه محكما حــول الصنار ثم جلس في مكانه. حبســت الأنفاس في صدور المتفرجــين. كان الــكل ينظر إلــى الأعلى. وهنــا اقترب الرجل البديــن مني وهمس في أُذني قائلا «لمّ يرم بنفســه الآن، ينتظر حتى يخلو المكان..».

رفعتُ رأسي فوق الحشد. أخلت السيارات المكان وكاد الشارع يفــرغ. أما الرصيف فلم يزل مكتظــا بالناس وراكبي الدراجات حيث أصبــح كبقعة ســوداء، وضجيج المحتشــدين كان مرتفعا بحيث يسمع من على بعد.

تعبــتُ، كنت متــرددا بين البقــاء والذهاب. خلصت نفســي بصعوبــة من بين الجموع، وقف عدد من البنات خلف الحشــد. إحداهن كانت جميلة جدا، وقد ارتســم خال أســود فوق شفتها العليا. اســتدرت ونظرت إلى الأعلى، وجدت الرجل المتسلق أدار ظهره وبدأ يمعن النظر في المحال المتراصة على جانب الشــارع. اجتزت الشــارع تعبا دائخا. فلما عدت إلى مكاني الأول، وجدت أنّ عدد الناس قد قلّ ولكن الرجل لايزال جالسا أعلى الشجرة.

اشتريت تذكرة سينما لأدخل وأسلّي نفسي، وبين آونة وأخرى كنت أتخيل الرجل قد سقط على صفحة الشارع السوداء وسيل مــن الدم ينزف من أنفه ثم تغيب الصــورة عن ذهني. ثم تظهر صورة الرجل ثانية بثياب ممزقة ورأس مهشم وقد تلاشى دماغه على قارعة الطريق، ثم كانت تغيب الصورة وتظهر، فلم أفهم من

الفيلم شـيئا. فلما خرجت من السـينما، وجدتُ الشارع خاليا، وأما المحال فلازالت مفتوحة. كان سـائق الباص يصرخ بصوته الفظ المزعج.

«مسجد الجمعة، ساحة بهلوي، سيدي هل تركب.. هيا أسرع أسرع!».

ولمـا وصلت عنـد الصنار، لم أجد أحدا يحيـط بها والرجل أيضا لم يكن فوق الشـجرة، رأيـت رجلين قد وقفا أمام الصنار يتحادثان، اقتربت وسألت أحدهما وهو رجل أصلع مشعر «آسف سيدي، هل انتحر؟»، حملق الرجل الأصلع في وجهي ثم قال في منتهى البرود «كم أنت سـاذج يا رجل؛ لما وجد الشارع خاليا نزل خلسة وأراد أن يذهب، ولكن..».

قاطعه الرجل الذي كان واقفا بجنبه، فلم يستطع الصبر: «لَمَ توضِّح لي، لِمَ صعد الرجل فوق الشجرة؟».

ردّ عليه صديقه «مِن أين لي أن أعرف، لعله كان يريد الانتحار، ثم تراجع عن فكرته». أخرج عامل المحل رأسه من الكشك وقال ضاحكا «أظنه كان يريد رؤية الفيلم مجانا».

قال الرجل الثاني المستعجل «لعنة الله على الشيطان الرجيم... كان لا بد وأن يلقى القبض عليه ليُزج في السـجن لفترة طويلة: كـي لا يفكر ثانية في أن يأتي لرؤية الفيلم متلصصا من دون أن يدفع شيئا».

وفـي صباح اليوم التالي: جاء عدد من عمال البلدية وقطعوا شجرة الصِّنار القديمة في شارع «جهارباغ».

محمود دولت آبادي
Mahmood D. Abadi

هو الكاتب المعروف، ولد في العام ١٩٤٠ في دولت آباد التابعة لمدينة سبزوار ضمن محافظة خراسان، من أسرة قروية. عمل في طفولته في استصلاح الأراضي الصحراوية لأجل توفير أجور دراسته. سافر إلى دولت آباد في مرحلة دراسته. مارس أشغالا عدة في صناعة الأحذية والحلاقة والعمل في المصانع وفي سن العشرين من عمره هاجر إلى طهران لأجل تحقيق آماله في الأدب والفن.

عمل في المسرح في ذات الوقت الذي كان يشتغل في إحدى المطابع، أول نتاجاته كان تحت عنوان «آخر الليل» في سنة ١٩٦٢، نشرت في مجلة آناهيتا في طهران.

وفي العام ١٩٦٩ أصدر أول مجموعة قصصية تحت عنوان «حافات الصحراء» كتب العديد من المسرحيات والروايات.

أبرز آثاره: روايته الضخمة «كليدر» والتي تتكون من عشرة مجلدات والمرشحة لنيل جائزة نوبل للآداب وقد ترجمها إلى العربية المرحوم الأستاذ إبراهيم الدسوقي شتا أستاذ الأدب الفارسي في الجامعات المصرية. وترجم إليه أخيرا رواية «سفر» من قبل الأستاذ سليم عبدالأمير حمدان في القاهرة الذي كان قد ترجم له سابقا رواية «مكان سلوج الخالي» علما بأن كتابات دولت آبادي قد ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية الحية، وهو مرشح منذ عدّة سنوات لنيل جائزة نوبل.

المرآة

ذلك الرجل الذي كان يسير في الزقاق، لم يكن واثقا من أنه فعلا قد مرّ عليه ٣٧ عاما ولم ينظر فيها إلى المرآة، ولا يرى أي سبب لأن يتذكر أنه ومنذ ما يقارب ذلك الوقت قد ضحك مرة، وبالتأكيد فإنه لن يتذكر كيف ضاعت هوية الأحوال الشخصية منه.. ولولا الإعلان الذي سمعه من الراديو الذي يدعو فيه المواطنين إلى تغيير هوياتهم القديمة واستبدالها بالنموذج الجديد وذلك عن طريق تقديم المعلومات والوثائق اللازمة عبر إدارة البريد، لتصلهم الهويات الجديدة بريديا بعد عدة أسابيع ولأن عليه الاهتمام بهذا الأمر أدرك حينها أن هويته مفقودة، أما لماذا أحسّ بأنه قد فقدها قبل ١٣ عاما، أو - ممكن أيضا - قبل ٣٣ عاما، لأن آخر ما احتاج إليها كان في ذلك التاريخ، آنذاك كان يوما تاريخيا عندما وضع الهوية في جيب معطفه المطري تلك المرة الوحيدة في عمره التي ذهب فيها إلى مركز الاقتراع حيث تم ختم إحدى صفحات الهوية كدليل على المشاركة في تلك الانتخابات. ومنذ تلك اللحظة لا يذكر أنه قد احتاجها ثانية!

ولم يعد ضروريا معرفة أين وضعها... أو أين فقدها؟ الآن جاءه حدث تاريخي آخر يحتاج فيه إليها. ولكنها اليوم مفقودة، للوهلة الأولى فكّر أنها قد تكون مازالت في جيب المعطف المطري... غير أن ذلك لم يتحقق، وتخيل أنها قد تكون في أحد الأدراج... وذلك أيضا لم يتحقق بعد أن تجاوز الزقاق استقل أحد الباصات العامة متوجها نحو إدارة الأحوال المدنية، غير

أنه لم يحظ بإجابة شـافية عمّا جاء مـن أجله، وخلال رجوعه إلـى البيت تذّكر أنه قد سـمعهم يقولون له بـأن عليه أن يجلب لهم تأييدا من محل سكناه، نعم هكذا كان الأمر، وهكذا قيل له.

لكن كيف يجب أن يكتب هذا التأييد؟

جلس على كرسيه واضعا القلم والورقة أمامه فوق الطاولة.

حسـنا... ينبغي كتابـة، إننا الموقعون أدنـاه: نؤيد بأن هوية السـيد... قد فقدت، لكنه لم يلبث أن مسح كل ما دُوّن بواسطة قلم المسـح الخاص تاركا المنزل مباشـرة نحو البقال، ذلك الذي يتبضع منه أسبوعيا مرة واحدة.

لكن البقال والذي لا يحب مشاركة الآخرين همومهم، قال إنه لا يعرفه، وهو لا يقصده كشـخص بل هو لا يعرف اسمه وللآن هو غيـر واثق من أنه يريد أن يعرف اسـمه «خاصة وأنت كنت تُبقي مكان اسمك خاليا دائما».

- نعم، هذا صحيح.

كان ينبغـي عليَّ الذهاب أولا إلى صاحـب المكوى، ففي ليلة العيد من كل عام، كنت أسلمه البذلة والقميص وتسلم منه وصلا عن ذلك.

لكن صاحب المكوى وعلى الرغم من ذاكرته الجيدة والتي من خلالها يعرف فيها زبائنه من أشكالهم وملامحهم إن لم يكن من أسـمائهم، فهو على رغم كل ذلك لم يتعـرف عليه قائلا: أرجو المعذرة فالسيد قليل التردد علينا، رجاء ذكّرني باسمك؟

- أرجو المعذرة، بالحقيقة فإن....

- علـى الأقل الوصل، لا بد أنـك تحتفظ بأحدها، أجلبه لي

وستحل المشكلة.

- نعم، الوصل.

على وصل التسلُّم يثبت اسم الزبون وتاريخ التسلُّم وعدد قطع الملابس واللون... إلخ.

ولكن لماذا على الزبون الاحتفاظ بالوصل بعد تسلُّم الملابس؟

كلا، إنه أمر غير منطقي.

والآن إلى أين وإلى من سأتوجه؟

الخباز والمخبز قريب من هنا، وكل أسبوع أشتري منه مرة واحدة ما يكفي لأسبوع بأكمله، ولكن في أي وقت من اليوم كان عندما رأيت مساعد الخباز متمددا عند الحائط وأخبرني بأنهم لن يخبزوا ذلك اليوم وعدت أدراجي بمحاذاة الحائط إلى البيت.

من وراء زجاج نافذة الغرفة وقف منجذبا إلى صوت الماء في الحوض. غير أنه لم يستطع تذكر شيء.

عند آواخر الغروب وبداية المساء يبدو أنه قد فكّر من أنه سيكون مناسبا له أن يذهب إلى إدارة الأحوال المدنية مع شيء من النقود يقدّمها كرشوة إلى موظف المحفوظات حتى يبذل وقتا إضافيا من أجله عسى أن يقتفي أثر تلك الهوية المفقودة، هل هذا ممكن... أم غير ممكن؟ لماذا؟

لماذا... لماذا غير ممكن؟

لقد توصل إلى ما يشبه الاتفاق مع ذلك العجوز الذي يدخن السجائر الرخيصة والتي تتدلى من طرف شفتيه.

كان ذلك بعد ساعة تقريبا من تناول الشاي بعد وجبة الغداء حيث نزلا معا إلى القبو لأجل البحث عن تلك الهوية.

الرجل الذي أضاع هويته كان حذقا نوعا ما، حيث اشترى وهو في طريقه علبة سجائر مع كبريت، إذن لا مشكلة إن بقيا ساعة إضافية بعد الدوام في قسم المحفوظات، ومن خلال الجدية التي نضحت عنها حركات موظف المحفوظات بعد ارتدائه عدة العمل التي تصل إلى المرفق ووضعه العدسة المكبرة خلف النظارات للتدقيق في ملفات الأرشيف، كل ذلك جعله يطمئن من أنه لن يرجع خائبا هذه المرة من قسم المحفوظات، خاصة وقد انغمر هو شخصيا في عملية البحث والتي بدأ يجيدها.

بعد أن أتم تصفح ملف حرف الألف، رفع الموظف العجوز رأسه طالبا سيجارة أخرى ليذهب بعدها إلى الدرج المقابل حيث حرف «الباء».

عندما سأل: عفوا، ماذا كان اسمك العائلي؟

أجاب الرجل: أنا، لم أقل شيئا.

- الموظف: كيف ذلك، يبدو أنك قد حدثتني عن اسمك ولقبك عندما تناولنا الشاي.

- قال الرجل: كلا، كلا.. لم نتطرق إلى ذلك

- الموظف: كيف يمكن ذلك؟

- قال الرجل: كلا، كلا...

خلع الموظف نظارته وقال:

- لا يزال الوقت مبكرا، ومازال أمامنا الكثير من الحروف، قل لي الآن؟

- قال الرجل: إنه لأمر عجيب حقا، عجيب؟

لقد استنزفت وقتك من دون مبرر، أرجو المعذرة، لقد نسيت

أن أخبرك عن أهم ما في الأمر..

أنا... كل الجهود التي بذلتها من أجل تذكر اسـمي قد ذهبت أدراج الرياح، لقد مرت فترة طويلة لم أسمع به، اعتقدت أن ذلك ممكنا، أن يحصل مثل ذلك، أن تهرب الهوية؟

وضع الموظف نظارته على عينيه وقال:

طبعا، طبعا، لا بد من وجود طريق.. ولكن لم أنت مصر بأنه لا بد..

قال الرجل: لا شيء، لا شيء، لا جدوى، يمكننا ترك الأمر... حقا ما أهمية ذلك؟

قال الموظـف: الخيار لك، لكنني أدرك معنى النسـيان، لقد عانيت من ذلك أحيانا، ولكن إن كنت مصمما في الحصول على هوية، فهناك طرق عدة لذلك.

وبلا تردد سأل الرجل: أي طرق؟

قال الموظف: لكنها تحتاج إلى شـيء مـن المصاريف، إذا لم يكن لديك مشـكلة بهذا الصدد، توجد حلول.. أعرف شـخصا متمكنا من هذا الأمر، أسـتطيع أن آخذك إليـه، المهم ما تقرر أنت، وعليك أن تقرر بسرعة قبل أن يحل الظلام.

كان الوقت نهاية الدوام الرسـمي عندما انحرف الاثنان عن الرصيف نحو زقاق يؤدي إلى الشارع الأصلي ومن هناك استقلا الباص إلـى منطقة يعرف الموظف دهاليزهـا جيدا، كان هناك دكان طويل ومتعرج يبدو بشـكل غلاف خنجر قديم، عند مدخل الغرفـة كان هناك عجوز متدثر بعباءتـه يعرف الموظف بعد رد التحية سـمح للموظف وزبونه بالذهاب إلـى قعر الدكان وعبر

آلاف الأشـــياء القديمة توجها مباشـــرة نحو ممر مغلق بواسطة ســـتارة قذرة تتدلى فوقـــه، أزاح الموظف الســـتارة ليفتح هناك صندوقـــا قديما طافحا بكم هائل من المســـتندات الشـــخصية موضوعة هناك بشكل مجاميع أشار إليها الموظف وقال:

ذلـــك يتعلق، يتعلـــق بنوع الهوية التي تريـــد اقتناءها في هذه الأيام كثيرا ما يحدث للناس أن يفقدوا أســـماءهم أو هوياتهم أو الاثنين معا، والآن ما الذي تحب أن تكون؟

ملك، أم شحاذ؟ لدينا هنا كل الأنواع، غير أن الأسعار تختلف وكن مطمئنا ســـتؤخذ حالتك بنظر الاعتبـــار، البعض يغمضون عيونهم ويلتقطون إحدى الهويات كما يحدث في سحب بطاقات اليانصيب.

وأنت إلى أي جهة تميل؟ في أي مكان تفضل أن تكون ولادتك؟ من أي مكان تتحدر؟ ما عملك؟ كيف تريد أن تكون عليه ملامحك وشكلك؟ كل شـــيء ممكن ومتوافر تستطيع أن تختار بنفسك أم تريد أن أجرب لك حظك؟

يمكـــن للحظ أن يمنـــح هوية أمير، أو تاجـــر حديد، صاحب معرض لبيع السيارات أو... أو صاحب أدوات مستعملة أو أجلب لك موافقات أصولية باسمك... لا تقلق أبدا فلا أسهل من ذلك، خـــذ مثلا هذه المجموعـــة من الهويات المؤشـــرة بعلامة X فهي مخصصة للخدمات الخاصة غير أنها غير مناســـبة لمثل عمرك وتلك الأخرى مخصصة لشـــؤون الدعاية والاعلام مثل صاحب امتيـــاز مطبوعة أســـبوعية، أو مســـؤول لأحد أقســـام البرامج التلفزيونية تتوافر لدينا كل الأنواع ولمختلف الأسماء؟ ماذا تحب

أن يكون عليه اسمك؟

حسن، حسين، بوذر جمهر أم... من أسماء ملحمة الشاهنامة؟

وأنت أي نوع من الأسماء تحب؟

الرجل الذي فقد هويته غرق في التفكير صامتا ثم قال:

لقد أخذت من وقتك الكثير، إن لم يكن صعبا عليك ابحث لي عن هوية مات صاحبها، إن كان ذلك ممكنا.

موظف المحفوظات قال:

ليس هناك شـــيء غير ممكن بل هذا الطلب سيكون أرخص من غيره.

- شكرا، شكرا

عند خروجهما، كان صاحب الدكان العجوز يسعل وهو واقف يحاول أن يجد القلاب والذي من خلاله يغلق باب الدكان، ووسط ســعاله المتواصل كان يطلب من اثنين من الزبائن الواقفين أمام دكانه العودة غدا لأن القسم الخلفي من الدكان مظلم لعدم وجود الإضاءة فيه والرجل الذي كان يســير في الزقاق ولم يكن واثقا أنه قد مر ١٣ عاما من دون أن يضحك... انفرجت أساريره الآن عن ضحكة بشكل مفاجئ فقد انتبه إلى أن أسنانه قد تساقطت واحدة أثر الأخرى... تساقطت ووقفت أمام قدميه وعلى مقدمة حذائه وشــعر بشكل تدريجي بتساقط قطعة من عظام أطرافه، وأحد رموشه وأظفاره... و...

بدأت تتســاقط جميعها؛ وأدرك أن الوقت قــد حان، فيما إذا قــدر له الوصول إلى المنزل ووطأت أقدامه عتبة الغرفة أن يذهب قرب المدفأة ويلقي نظرة - للمرة الأخيرة - على نفسه عبر المرآة.

بلقيس سليماني
Balqis Solaimani

ولدت عام ١٩٦٣ في مدينة بافت التابعة لمحافظة كرمان (وسط إيران)، حاصلة على شهادة الماجستير في الفلسفة. تكتب القصة والرواية والنقد الأدبي والدراسات. من نتاجها:

- الترنم مع طائر الفجر (حياة وشعر العلامة دهخدا).
- الفن والجمال عند أفلاطون.
- البندقية والميزان (مجموعة مقالات نقدية وتحليلية حول أدب المقاومة).
- رواية «اللعبة الأخيرة للسيدة».
- مجموعة قصص قصيرة جدا تحت عنوان «لعبة الزفاف».

لعبة الزفاف

الزهور

شـــاهد بائع الزهور الشاب رجلا يقود سيارة من نوع «برايد» لا تفارق نظراته امرأة تقود سيارة من نوع بيجو.

فطرق زجاج نافذة سيارة الرجل وقال له:

«بإمكانك شـــراء باقة زهور لهـــا وترفقها ببطاقتك الخاصة» فاستحســـن الرجل فكرة بائع الزهور الشاب، فأسرع إلى إعطاء الشاب بطاقته مع قيمة باقة الورد.

وبدوره قام الشـــاب بتقديم باقة الزهـــور والبطاقة إلى تلك المـــرأة التـــي أخذت باقة الـــورد ووضعتها بهدوء على الكرســـي المجاور، ووضعت البطاقة فوق بقية البطاقات المرمية أمامها.

وبعدها اســـتدارت عند أول تقاطع وعادت حيث كان الشاب بائـــع الزهور ينتظرها على الرصيف الآخر، عندها أرجعت باقة الورد إلى الشـــاب الذي قدم لهـــا نصف ثمن الباقة، فكانت هذه ثالث باقة ورد تبيعها إلى الشاب منذ الصباح.

الأم

قال والدي إن والدتك قد رحلت إلى السماء، وعمتي قالت: إن والدتك قد ذهبت في سفرة بعيدة وطويلة، وخالتي قالت: إن أمك هي تلك النجمة المشعة قرب القمر.

ولكن البنت الصغيرة قالت: أمي ترقد تحت التراب.

العمة قالت: أحسنت، يالك من بنت واقعية، تمكنت من تقدير الأمور بسرعة ومنذ اليوم الأول لدفن الأم كانت الطفلة الصغيرة تدعـــو أباها لأن يأخذها إلى القبر كل يوم، في البدء كانت تعمل على تسوية التراب فوق القبر، بعد ذلك بدأت برشه بالماء وبدأت بالكلام قليلا مع أمها.

في الأســبوع الثالث وعندما كانت ترش الماء كعادتها، التفتت إلى والدها وقالت: ولكن لماذا لا تزهر أمي؟

في الثانية عشرة

تزوجت أختي الكبرى في السابعة عشرة من عمرها وتوفيت وهـــي في الثانية والثلاثـــين وكان لديها آنـــذاك توأمان بعمر ٨ سنوات يشبهانها تماما.

وأختي الثانية تزوجت في سن السابعة والعشرين وتوفيت في الأربعين من عمرها وكان لديها ولد وبنت، أختي كانت تقول بأن ابنتها تشـــبهني جدا، أنا توفيت في سن الثانية عشرة من العمر، عندما لم تكن أخواتي قد تزوجّن بعد.

روح الغابة

في النهاية استطاع من خلال راتبه التقاعدي أن يبني بيتا في الغابة، كان يريد أن يحقق بعضا من أحلامه المتأثرة بقصة بطله المحبوب روبنسون كروزو، وأن يخوض غمار تلك الحياة البدائية عبر إمكانيـــات الطبيعة فقط، وكان يذهب أحيانا مع عائلته من أجل الحصول على شيء من الراحة النفسية، في أول أيام إقامته

تعرض ابنه الشـــاب للتسمم بعد أن تذوق شيئا من الفطر السام، فاضطر إلى نقله في حالة يرثى لها إلى أحد المستشفيات، وهذا كان أول وآخر عهد الابن الشاب بكوخ الغابة.

في اليوم الثاني لإقامتهم وبســـبب طبيعة هـــواء الغابة تهيج مـــرض ابنتهم القديم ثانية وذلك مـــا دفعها لأن يكون ذلك اليوم هو آخر عهدها بالغابة.

في اليوم الثالث من إقامتهم، شـــاهد هو وزوجته زوجين من الأفاعي داخل الكوخ اســـتطاعا القضاء علـــى إحداها في حين هربت الأخرى، تلك الليلة قضتها الزوجة جالسة القرفصاء على الكرسي الخشبي رعبا وخوفا وهي تراقب حركة وهياج القطط الوحشـــية حول الكوخ. وكان ذلك آخـــر عهد الزوجة في الإقامة بالكوخ في الغابة.

في نهاية المطاف انقضى الشـــتاء وبعد إجراء عملية جراحية صعبة قرر الزوج أن يقضي قليلا من الوقت في كوخ الغابة لأجل النقاهة.

وبعد مرور اسبوع جاءت العائلة برفقة مفرزة المنطقة العسكرية للبحث عنه. عندما وصلوا كان الكوخ ضاجا بالقطط الوحشية.

مذكرات الأب

قال الدكتور للرجل المســـن: لم يتبق لديك من الوقت في هذه الحياة ســـوى ستة أشـــهر، ولكنه كان يدرك تماما أن مدة الستة أشـــهر لن تكون كافية لإنجاز مـــا تبقى لديه من أعمال، غير أنه عاش ســـنة ونصف الســـنة ومات بعد أسبوع من إنجازه لما تبقى

من أعمال، وقبل سماعه مهلة الـ ٦ أشهر قام بتقسيم ثروته، وكل ما كان يشغله آنذاك هو موضوع كتابة مذكراته، ذلك الأمر الذي تطلب منه مدة السنة ونصف السنة لأجل إنجازه.

وقد أودع تلك المذكرات لدى ابنه البكر وقال له يا بني هذه المذكرات هي بضعة من التاريخ المعاصر للبلد، حافظ عليها وعندما يحين أوانها قمْ بنشرها على الملأ وحتى يحين ذلك الوقت كن حريصا عليها كحدقات العين.

حافظ الابن البكر على تلك المذكرات لمدة عامين، وكان خلال تلك المدة قد تدرج في الوظيفة حتى وصل إلى منصب المدير العام حيث رافق ذلك تغيرا في علاقاته ونوع اهتماماته، وكان على معرفة تامة بأنه كمدير أصبح تحت نظر واهتمام السلطات، فهاتفه وحركاته أصبحا مراقبين من قبل المعنيين.

وبعد شوط من الحذر والتردد وبعد سلسلة من عمليات إخفاء ونقل مذكرات الأب من مكان إلى آخر، قرر أن يضع حدا لهذا الأمر. وفي إحدى الأمسيات في فيلاته الشتوية قام بحرق تلك المذكرات من دون قراءة حتى صفحة واحدة منها.

ولو أنه قرأ الصفحة الأولى منها لوجد أن والده قد كتب فيها تحذيرا له بألا يفعل كما فعل هو بمذكرات والده من قبل.

الوطن

مدفوعا لأحضان تلك الرائحة المحببة ورؤية الوطن عاد بعد غربة دامت ٢٢ عاما، طيلة تلك المدة التي قضاها في أمريكا، كانت نهاراته مكرسة لها، أما الليالي فكانت تضج بأحلام

لا حدود لها بين حارات طهران وأزقتها.

لـــذا، فبعد أن عاد قـــرر أن يضع برنامجا مكثفا لنفســـه؛ مقدمته كرســـها لافتراس وجبات الطعـــام الإيراني التقليدي مثـــل: فتة الـــرأس والمقادم (الباجـــه)، خبز ســـنكك(*) مرقة الخضار(قرمه الشـــبزي)، ومرقة الباذنجان، الرز مع الكباب، الحساء (الآش)(**). .. الخ.

هذا البرنامج الطموح لم يتواصل سوى ثلاثة أيام، حيث انتابته بعدها أنواع من النوبات؛ إسهال، قيء، وسلسلة من الاضطرابات المعديـــة والمعوية، ممـــا اضطره إلى الاســـتعانة بمطاعم طهران الراقية ومطاعم الفاست فود.

القسم الثاني من البرنامج كان مخصصا لزيارة حارات طهران القديمة وأزقتهـــا، وخاصة ذلك الحي الـــذي كان يقطنه. ذهب إلى هناك فتلبسته الحســـرة على ما شاهد حيث توارت البيوت القديمة وأزيحت أغلبها واصطدمت نظراته ببقايا أحجار متناثرة ولكنه استرجع شيئا من الأمل عندما شاهد بقايا منزلين من تلك المنازل والتي سارع إلى الجلوس عند عتبة احداها من أجل أخذ قســـط من الراحة وبعدها قام وأمســـك بالقبضة الرجالية(***) للبـــاب وطرق عـــدة طرقات ففتـــح له الباب رجـــل يرافقه كلب ذئبي، فقال للرجل: هل تســـمح لي بإلقاء نظرة على هذا المنزل، قـــال ذلك وبدأ يحدثه عن أمور عدة، فقال الرجل: ماذا تريد أن

(*) خبز سنكك: نوع من الخبز يتم طبخه في تنور مليء بالحصى الساخن.

(**) الآش: نوع من الحساء، محتوياته الحبوب والخضار.

(***) القبضة الرجالية: كانت أبواب بيوت طهران قديما مزودة بقبضتين واحدة للنساء وأخرى للرجال ولكل منهما صوت متميز يعرف من خلاله سكان المنزل جنس الطارق.

ترى؟ وبعدهـــا فتح له الأبواب على مصراعيهـــا. فلم ير الرجل القادم أثرا من حوض البيت أو مكان اغتسال القدمين(*).

وكانـــت باحة المنزل تضج بالعلب الكارتونية المختلفة الأحجام والمختومـــة بالماركات والعلامات العالمية المشـــهورة مثل: ال جي، سامسونج، تيفال... الخ.

قال الحارس موضحا: كما ترى هنا مخزن لإحدى الشـــركات التجارية الكبيرة، وهنا تلاشت آخر ملامح ذلك البرنامج الطموح الذي وضعه لنفسه، فقام بتقديم موعد عودته، وسارع إلى شراء خمسة كيلوات من أجود أنواع الفستق لزوجته الأمريكية وسجادة تركمانية لأحد زملائه في العمل، بعد أن تســـربل قلبه بالحسرة والأسى على طهران أحلامه.

جسد الخال العزيز

نقلوا خالي من شـــيراز إلى طهران جـــوا وكان برفقته طبيبه وممرضته الخاصـــة، ولكن خالي العزيز لم يبق على قيد الحياة في طهران سوى ساعتين.

ومن أجل إعادة جســـده من طهران إلى شيراز فإن ذلك الأمر يتطلـــب منا كحد أدنـــى يوما كاملا من المراجعـــات هنا وهناك، وقـــد وصل أبناء وأصهار الخـــــال العزيز جميعهم إلى طهـــران، لا أحد يريد أن يصدق بأن الخال العزيز قد مات، نقل الجثمان من ثلاجة المشـــفى إلى مقبـــرة «الزهراء» في طهران وبعد إتمام مراســـم غســـله وتكفينه نقل إلى المطار بعدها نقل التابوت من

(*) مكان غســـل القدمين: بيوت طهران القديمة كان فيها مكان لغسل القدمين قبل الدخول إلى غرفة الاستقبال.

سيارة الإسعاف إلى قسم النقل وكان الأبناء والأصهار جميعا حاضرين منكسي الرؤوس وأياديهم على صدورهم يقفون أمام تابوت الخال العزيز، لا يريدون أن يصدقوا أن الخال العزيز قد توفي، كان جثمان الخال العزيز خلف جهاز لغسل الملابس نوع «ال جي» وبعد أن أنجز الشخص المكلف عملية نقل جهاز غسل الملابس تحول إلى تابوت الخال حيث غلفه بالنايلون والشريط اللاصق بشكل كامل ووضعه على الميزان الخاص بذلك، في تلك اللحظات حاول الأبناء والأصهار أن يحولوا أنظارهم بعيدا عما كان يجري أمامهم من أحداث، وبعد صدور وصل الاستلام، وضع عامل النقل تابوت الخال العزيز على شريط نقل البضائع المتحرك خلف جهاز غسل الملابس «ال جي»، وعندما تحرك الشريط وبدأ جسد الخال العزيز في الاختفاء، عندها فقط أدركت أن الخال العزيز قد مات.

علي أصغر شيرزادي
Ali Asghar Shirzadi

كاتب روائي وصحافي. ولد في مدينة شيراز سنة ١٩٤٢. دخل عالم الصحافة بعد إنهائه المرحلة الثانوية وبعد سنوات من العمل المتواصل في جريدة «اطلاعات» الشهيرة تفرغ للكتابة القصصية. من أعماله المنشورة: الغريب والأقاقيا (مجموعة قصصية) وطبل النار(رواية).

المغولي في المطر

كنت هـنـــاك، ولـم أكـن، مــن دون أن أقـــرر وأريـد، رأيــت، لم يسقط، كلّا. كأنّ أصبح له جناح، أي لم يكن له الوزن والحجم الــذي للقطعة النقدية أو لحصاة صغيرة أو مفتاح أو حتى لعلبةِ كبريــت خالية ومطوية عندما تســقط من يدٍ على شـــارع قذر ورطـــب، يصدر منها صوت خافـــت، لم يكن مهما أبدا، ولكن هو أيضا رأى.. من خلال أجفانه المغولية الهيئة رأى ذلك.. وتحرّك بسرعة وتلقائية.

بمرفقـــه الصلب ضـــرب أضلاعي، نظر، ســـار موازيا ولكنّه تـــردَّد، ولم يتحرّك أو يتقـــدّم حتى أنّه لم يُحرك شـــفة وانتظر وأخذ يراقب بحذر..

لا أعلــم ما أصابني، كنـــت هناك ولم أكـــن، إن لم تكن هـذه الألحـــان الحزينة والمؤلمة وهذه الهمهمة البطيئة والمملة للغروب، إذا لم ينزل المطر على وتيرة واحدة وباستمرار، والجو كان غائما فقـــط، إذا كانـــت الحافلة قد وصلت في وقتهـــا ولم يكن طابور المنتظرين قد امتدّ إلى هذا الحدِّ، وبقوا تحت المظلات الســـوداء بلا مـــأوى، لم تقع عليه عين ولم يلاحظـــه أحد، وإذا لم يقضم أطراف شاربه التتريِّ ولم يلوّح بنظرته البراقة من خلال أجفانه المتورمة في هذا الصوب أو ذاك ولم ينظر خفية وبحقد ويحدّق في كل شـــيء كان من المحتمل ألا يساورني شكّ في أمره كلا... كان ممكنا وبسرعة وبساطة التدّخل وإخبار الرجل العجوز ولكنّ الشيطان وسوس لي وقلت لنفسي: لأنتظر وأرى وبعدَها أتدخل..

المغولي في المطر

كنت هـنـــاك، ولـم أكـن، مــن دون أن أقـــرر وأريـد، رأيـت، لم يسقط، كلّا. كأنّ أصبح له جناح، أي لم يكن له الوزن والحجم الـــذي للقطعة النقدية أو لحصاة صغيرة أو مفتاح أو حتى لعلبةِ كبريـــت خالية ومطوية عندما تســقط من يدٍ على شـــارع قذر ورطـــب، يصدر منها صوت خافـــت، لم يكن مهما أبدا، ولكن هو أيضا رأى.. من خلال أجفانه المغولية الهيئة رأى ذلك.. وتحرّك بسرعة وتلقائية.

بمرفقـــه الصلب ضـــرب أضلاعي، نظر، ســـار موازيا ولكنّه تـــردَّد، ولم يتحرّك أو يتقـــدّم حتى أنّه لم يُحرك شـــفة وانتظر وأخذ يراقب بحذر..

لا أعلـــم ما أصابني، كنـــت هناك ولم أكـــن، إن لم تكن هذه الألحـــان الحزينة والمؤلمة وهذه الهمهمة البطيئة والمملة للغروب، إذا لم ينزل المطر على وتيرة واحدة وباستمرار، والجو كان غائما فقـــط، إذا كانـــت الحافلة قد وصلت في وقتهـــا ولم يكن طابور المنتظرين قد امتدّ إلى هذا الحدِّ، وبقوا تحت المظلات الســـوداء بلا مـــأوى، لم تقع عليه عين ولم يلاحظـــه أحد، وإذا لم يقضم أطراف شاربه التتريِّ ولم يلوّح بنظرته البراقة من خلال أجفانه المتورمة في هذا الصوب أو ذاك ولم ينظر خفية وبحقد ويحدّق في كل شـــيء كان من المحتمل ألا يساورني شكّ في أمره كلا... كان ممكنا وبسرعة وبساطة التدّخل وإخبار الرجل العجوز ولكنّ الشيطان وسوس لي وقلت لنفسي: لأنتظر وأرى وبعدَها أتدخل..

كـــان قـــد رأى ذلك لـــذا تصـــوّر أنه هو الوحيد الذي رأى ذلك ولا أحد غيره..

تنفس بعمق وأخرج بقوة بخار فمه، رفع قبعته الجلدية السوداء القديمة من على رأسه المحلوق ومسح جبينه الضيق الباهت اللون كلون الإدمان وتفحّص مـــا حوله وأصبح مطمئنا.. كأنَّ الآخرين لم يروه، ربما يكون المطر الهادئ المتســـاقط على وتيرة متناسقة، أو اثر الانتظار الملّ وانشـــغال الفكـــر والقلب والتعب والارهاق، والأســـوأ من كلّ ذلك قد يكون نور السماء الممطرة وقت الغروب هو المانع..

لا.. لـــم يرَ أحد شـــيئا.. نحـــن فقط.. أنا وهـــو الذي أغرق «حنكه» الأملس في الياقة المقلوبة لجاكيته القطنيّ القديم.. كان مثلـــي بلا مظلة واقفـــا تحت المطر رأيته، اهتـــزّ وتحررّ من بين أصابع العجوز المرتعشة، طار وبكل خفة وهدوء، استقر في الظل الغامـــق لحافة معطف العجوز العريض الرماديّ اللون، وســـقط علـــى أرضية الخطوط الغامقة الفاقدة للونها الأصلي واســـتقر على حافة حفرة صغيرة مليئة بماء آسن قرب قدم وحذاء جندي في القوة الجوية..

كان واقفا في الطابور الطويـــل قرب العجوز، واضعا منديلا قطنيا كبيرا على أنفه وفمه ويضغط عليهما بالمنديل، اســـتقرت على الأرض، كانت من فئة عشـــرين تومانا أو خمسين، ففي تلك الحالـــة وذلك الجو وذاك النور الملـــوث وتحت المطر الذي يهطل بهدوء واســـتمرار ومن المســـافة التي تفصلني وإيّاه عن العجوز، لم يكن ســـهلا معرفة نوع ومقدار القطعة النقدية، معدنية كانت

أم ورقيـــة، ولم تعد في يد العجوز، هذا كل ما في الأمر، العجوز الـــذي أخرج إحدى يديه من قفازه الصوفي الأســـود اللون، ربما كان يريـــد أن يجـــد بطاقة ركـــوب الحافلة، بقايا ســـند، بطاقة الحصة التموينية من الســـكر أو الصابون، أو أنّه كان يحاول أن يجـــد عنوان أحد أقربائه أو أيّ شـــخصٍ من بـــين قطع الأوراق المطوية في محفظته الجيبية، كان جســـمه النحيل ضائعا داخل معطفه العريض الرمادي اللون، كان ممســـكا بمظلةٍ كبيرة على رأســـه وتحت إبطه كيس نايلون مليء باللفت، أعقاب ســـيجارة مطفأة بين شفتيه المتدليتين ومع ارتعاش خفيف في حنكه البارز إلـــى الأمام، لا، لم يكن حائرا أو مضطربا ولكنّه في تلك الحالة لم ير طيران قطعته النقدية..

كنت هناك ولم أكن، كنت أرى ولم أغفل حتى عن رؤية شعيرات لحيتـــه، والآن لايتفحـــص المكان بتلك النظـــرة الحاقدة الباردة، الرائحة المنتشـــرة والشهيّة مع انتشـــار الدخان الكثيف والثقيل لشواء اللحم الذي يأتي من المأوى الصفيحي لبائع اللحم المشويّ على حافة طريق المارة، ولم يحرك مرة أخرى الشعيرات الموجودة علـــى أنفه العريض الكبير، إذ عندما رأيت الارتعاش المقزز لتلك الشعيرات الصفراء على أنفه قبل أن تسقط تلك القطعة النقدية مـــن الرجل العجوز جنـــب حفرة الماء الآســـن أصابني دوار ولم أتمالك نفسي فأخذت بالتقيؤ..

هـــو الآن مُنحن واضعا يديه في جيب جاكيته الكتاني الطويل وهـــو يراقب العجوز بكل حواســـه، لو أني لـــم أكلمه قبل ١٠ أو ١٥ دقيقة قبل أن تســـقط القطعة النقدية للعجوز على الأرض،

كنت أسرع ولأضع حدا للمســألة، ولكن تذكّرت حديثه القصير الذي قُذِف كبصاق وذلك الصوت المبحوح الخشــن المحقَّر وذلك اللمعــان البارد لنظرتــه الحاقدة التي تتبثق مــن خلال أجفانه المتورمة المغولية كأنها جعلتنا ننتظر، ونراقب ونرتقب خلســة... ولأجل أنّ أقول شيئا بلا هدف ولا قصد معين سألته: «أجئت من ديارك لأجل العمل؟».

كان طرف جفن عينه اليســرى المتورم قد تجمّع، وقد قضم بعض شعيرات شاربه الخفيف وبنظرته التي كان يتفحصني بها جيدا.. نظر إليّ وقال: «آه.. آه.. عجبا من الإنسان الفضولي، شــيء لا يخصك..» خجلــت ولم أنبس بكلمة أخــرى، والآن، يترقب.

كنت متأكدا من أنني سأنتقم منه دون أن أجعله يشعر بشيء، كنت أترقب نظرته، لم يرفع عينيه عن الرجل العجوز كأنما علقتا بالكيس الذي تحت إبط العجوز«يو.. و.. و..

يذهب الآن إلى بيته ويتمدد على فراشه جنب المدفأة ويطلب أن يُطبــخ له اللفت ويتناوله ســاخنا وهو ينظر إلى لهيب المدفأة بهدوء يتشــهق ويخرج روائح كريهة ويشــعر بالراحة.. أفٍ عجبا من إنسان شره.. عجبا..»

امرأة ســمينة متوســطة العمر قصيرة القامــة واقفة جنبه، نفضت عباءتها الســوداء المبللة في الهواء وبعدها جمعت بهدوء وتأنٍ ماء فمها ولســانها وبصقته بقــوة« إذن متى يصل هولاء.. ليفنيهــم الله.. تعبنا والله..» أمّا هو فلم يســمع أبدا ومن أعلى رأس المــرأة التي تلبس عبــاءة كان ينظر إلى العجوز.. كان ينظر

إلــى العجوز وإلى حذاء الجندي الواقف جنب العجوز.. صككت أسناني «أنت في قبضتي أيها الحقير»..

تحــرك الطابــور إلى الأمام تحــت المظلات الســوداء ببطء وبصعوبة.. وإلى الطابور الطويل وصلت إحدى الحافلات اللعينة ذات الطابقــين وهي تُخــرج أصواتا مزعجــة.. وقطرات المطر التي تتســاقط على وتيرة واحدة وبهــدوء، تتخلل أعمدة الضوء الدائريــة الصفراء المتذبذبة الصادرة من ضوء الســيارة.. تقدم الطابــور إلى الأمام، وأنا كنت خلفــه، أتقدم خطوة خطوة، كنت متهيئا، وعضلات أقدامي قد أصابها التشــنج وأســناني تصك على بعضها، انحنى وأغرق راحة يده العريضة بنشــاط وسرعة في الماء الأســن وفي الظلام جمع يده واعتدل بسرعةٍ، أمسكت بيده وضربته بقوة، حاول التخلص.. «هِي.. ها.. ما.. ماذا؟»

قلت: «أعدّ مال العجوز المســكين.. هيــا.. أَعده أيها الحقير اللقيط».

فجأة أحسست بالألم في وجهي، بقبضته اليمنى المكورة ضربني وصرخ «ابن الكلبة». رميتها، ابتعــدت عنه قليلا وركلته في بطنه، انحنى، لويت رأســه ورقبته، ارتفع عن ســطح الأرض، كان هَشــا وضعيفا وعندما سقط علىالارض خرجت منه صرخات متقطعة.. وللحظة استغلها وأخذ يشتم ويده اليسرى مازالت مسدودة. أغلقت المظلات وظلّ العجوز حائرا: «سيدي نقودك سُرقت..»

العجوز مندهش وحيران ينظر إلينا، أعقاب السيجارة المطفأة بين شفتيه المتدليتين المرتعشتين.. قلت: «نقودك سُرقت.. النقد الذي سقط من محفظتك».

اضطرب طابور المنتظرين وبعضهم هجم باتجاه الحافلة ودون أن يغلقوا مظلاتهم لأجل الإسـراع في الركوب.. كانوا يتدافعون فيما بينهم.. مـرة أخرى ناديت الرجل العجوز«سـيدي نقودك سـرقت، أخذها هذا السـارق القذر»، وكنت أشـير إلى المغولي الهيئة الذي سقط على ظهره على الشارع القذر الرطب.

ومـع أني كنت قابضا علـى عنقه إلا أنه كان يشـتم بصورة متقطعة.. سرى الألم في أنفي حتى ملأت الدموع عيني وضغطت بقـوة بركبتي على بطنه وبصعوبة فتحت قبضة يده اليسـرى.. قطعة من فئة العشـرين تومان متسـخة ومطوية بقوة كانت في يـده. قلت للعجوز:«أبـي العزيز، هذه القطعة النقدية سـقطت مـن محفظتك»، انحنى الرجل العجوز، كان ينظر إلينا بدهشـةٍ وحيرة، عقب السـيجارة المطفأة بين شـفتيه المتدليتين يرتعش. قلت:«نقودك سرقت، النقد الذي سقط من محفظتك».حدّق في راحة يده ورفع رأسـه مبتسما ابتسـامة باهته وغـمز لي وقـال: «حـدث خطـأ ما.. أعتـقد أنك مخـطئ يا عزيزي.. أنا لا أملك أيّ نقود.. أنا مطمئن من هذا.. دعه وشأنه يا عزيزي...».

تركتـه ونهضت، الجندي في القـوة الجوية الذي كان مبهوتا حائـرا حتى تلـك اللحظة وأفرغ مـا في أنفه مـن مخاط في منديله القطنيّ الكبير، أحدث جلبة وقال:«ما المقصود.. حقا ما المقصود؟».

الحافلة اللعينة ذات الطابقين امتلأت بالركاب وبقينا حيارى تحت المطر الذي كان مازال يتساقط على وتيرة واحدة وبهمهمة متناغمةٍ..

زويا بيرزاد
Zoya Pirzad

كاتبة ومترجمة. ولدت في العام ١٩٥٢ في مدينة عبادان جنوب إيران. تكتب القصة القصيرة والرواية وتترجم أحيانا. حصلت على عدة جوائز قيمة. من أعمالها: ككل المساءات، أنا أطفئ المصباح وغيرهما.



فردة وفردة

في بعض الصباحات عندما أستيقظ من النوم أودُّ أن أبقى في ثياب نومي القديمة مع شعر غير مصفف وجوربيَّ المختلفين، أحبُّ أن أجلس أمام التلفاز وأشاهد أفلام الصور المتحركة كوالت ديزني التي أحبّها كثيرا، أحبُّ أن أضع أمامي صحنا من العنب من دون نواة واغرق في قصة الأميرة النائمة أو قطر الندى والأقزام السبعة... كنت أتمنى أن أكون بطلة الأميرة النائمة والإنسان الثلجي، وأنا أنتظر فارس أحلامي وهو يستبدل قرعي القديم بعربة ملكية جميلة ومزينة، ويثير فيّ كل مشاعر الحبّ ويهيأ لي قصرا فخما جميلا لا ذكر للطبخ والتنظيف فيه. قصر يكون كبيرا لدرجة لا أسمع فيه صوت بكاء طفلي ليلا ولا أرى عملية تبديل حفاظته التي تعكر عليّ أحلامي..

أتمنى أن يعود أمير أحلامي ظهرا من عمله بسيارته البيضاء النظيفة، وأسمع صوت مفتاحه في باب شقتنا الصغيرة وأنهض بلهفة لاستقباله.. أغمض عيني وأفتحها لأرى مائدة الطعام جاهزة بمرقة الخضار التي تفوح رائحتها وهي تمتزج بعطر الزعفران على الأرز الفاخر مع سلّة الخضراوات الطازجة المزينة بحبات الفجل الحمراء وقطع الخبز الحار، أتقدم بوجه مبتسم لاستقباله وأنا أسأله عن أخبار يومه وأقول: عزيزي ما الأخبار؟ وفارس أحلامي بيده باقة من ورد القرنفل يقول لي آه، عزيزتي أحبكِ. نذهب نحو طفلنا الجميل النظيف وهو بملابسه الزرقاء اللون كزرقة السماء الصافية وهو جالس على كرسيه الصغير

ويقول: آ..آ..آ... أشعة الشمس تدخل خلسة لتشرف على أزهاري الجميلة، صوت الموسيقى الهادئة يملأ فضاء غرفتنا وأنا أنظر إلى قصري الجميل النظيف وأقول «آه.. ما أسعدني!»

كلما أسرح شعري أعثر على بعض الشعرات البيضاء، تقول أمي «اصبغي شعرك لأن زوجك شاب وكثيرات هنَّ الفتيات غير المتزوجات» كنت أنظر إلى زوجي ويتغلب عليّ الضحك وأنا أفكر «أي فتاة شابة تطمع أو تفكر بأميري المرهق السيئ الأخلاق المتحطم منذ سنين، أنا سرقت من أميري رائحته العطرة الزكية وبريق عينيه وبسماته الحنونة العاطفية، أنا ساحرة مدينة الزمرد، الخبيثة، السيئة، الأنانية، أيّ امرأة تعشق أميري الذابل الباهت اللون..»

بين صبح وآخر، وأنا بثوب نومي القديم، وشعري غير المصفف أتجول في المنزل، لأجمع الملابس القذرة من على الأرض والكراسي ومن على سرير النوم ومن داخل الحمام، كنت أجمعها لأضعها في الغسالة، كنت أضغط على زر أخضر أو أحمر لتشغيلها، يداي تشكران زوجي دائما لأنه ابتاع هذه الغسالة التي لولاها لكانتا دائما تعانيان من فرك ملابس طفلي والشراشف والمناشف وملابسنا، الآن أستطيع أن أمسك بيدي سيجارة خفيفة. أنظر إلى الملابس وهي تدور في الغسالة: أصفر، أخضر، أبيض، سمائي، ملابس داخلية، بنطال، خرق التنظيف، أغطية الوسائد والمنضدة، قطعات حياتي المعاشة..

أمي كانت تقول «يجب أن تفصلي الملابس عند غسلها، الشراشف مع بعضٍ، الملابس الداخلية مع بعضها وملابس

الأطفـــال..» ولكنـي كنت أخلطها غير آبهة. أمي كانت تقول: «إن طريقتك ليست صحية» كنت أضحك باستهزاء..

أمي تقول «اشكري الله أنك لست مضطرة لاستخدام العصا الصغيـــرة والماء البـــارد لتنظيف الملابس كما كنـــا في زماننا..» وفكرت «ليتني أملك دائما شـــيئا أغـــرس فيه اصابعي، الملابس أو شـــباكا ذهبيا لأحد الأضرحة، عملا في إدارة، أملا في ترقية وهديـــة عيد وزيادة راتب، دفتر توفير فـــي بنك، أملا في منزل أكبر وطقم اســـتقبال مـــن النوع الفاخر، ســـيارة، خاتم برليان، ســـاعة رولكس، حفل زفاف في الفندق الفلاني، أطفال يشعون نظارة ونتائج امتحانات زاخرة بأعلى العلامات، أصدقاء يمكنني أن أتبـــادل معهـــم أحاديث حول طبخ أكلة «الفســـنجون» بصورة جيدة، أو الذهاب إلى صالون التجميل أو.. أو..

أشعر بالدوار منذ مدة، سواء كنت واقفة أو جالسة أو نائمة، كنـــت أحسُّ بأني أفقد توازنـــي وأن الأرض تدور تحت اقدامي، أمد يدي كي أستند على شيء ما لئلا أقع، لا أجد شيئا.

أمي تقول: «لقد أصبت بالبرد» وكل يوم كانت تهيئُ لي شرابا ســـاخنا كي أحتســـيه، أمي وزوجي نظرا إلـــى بعضهما دون أن ينطقا بشيء.. بعد أيام زارتنا أمي واحتضنت طفلي، زوجي قال: نذهب. فذهبنا.

غرفـــة الانتظار في عيـــادة الطبيب النفســـيّ قبيحة وكئيبة، بســـاط قهوائي منتفخ الجوانب يغطي الأرض، تعثرت به وكدت أن أقع على امرأة شـــابة كانت جالســـة على أريكة بنية اللون من الجلد الاصطناعي وتحدق في مزهرية تحوي ثلاث ورود قرنفل

صناعيـــة.. زوجي شـــدَّ على يدي وأنا بـــدوري اعتذرت من تلك المرأة، كان ظهر أحد أيام الصيف.. كنت أدري أن الجو مشـــمس في الخـــارج. ولكن غرفة الانتظار كانت شـــديدة الظلام بحيث اضطروا إلى الاستفادة من الإضاءة السقفية..

قلت لزوجي: «إن المكان شبيه بمكان غسل الموتى»

ابتسم زوجي، ضغط على ساعدي وقال: «اهدئي يا عزيزتي».

وأدركت أنه يعني أن ألتزم الصمت..

جلســـت على أحد المقاعد قبال تلـــك المرأة التي كدت أن أقع عليهـــا.. بعد دقائق أحسســـتُ بأن ظهري وقدمـــي قد تعرقتا.. جوربي النايلون الطويل التصق بقدميَّ.. بدأت أتحرك كالدودة، الجلد الاصطناعي بدأ يُخرج أصوات الاصطكاك به.. نظر إليّ زوجي.. قلت «إني أكـــره الجورب النايلون».. قال زوجي: اهدئي يا عزيزتي.

جلست صامتة وفكرت لماذا ألبس جوارب النايلون وأنا أكرهها ولم أعلن بأني أكره.. جاء دورنا ودخلنا غرفة الطبيب.

كان زوجي يمسك بساعدي ويضغط عليه.. أحسست بالألم..

الطبيب النفســـي يجلس وراء منضـــدة كبيرة، كان نحيلا وذا لحية بروفسورية ونظارات مقعرة..

قال: كيف حالك؟

قلت: أنا بخير ولكن ساعدي يؤلمني.

قال: ساعدك يؤلمك؟ متى بدأت الآلام؟

قلت: منذ ثلاثين ثانية.

سَعَل وحرّك نظاراته وقال: ماذا ترين السبب؟

قلت: أنا أظن أن سببه زوجي إذ ضغط على ساعدي.
نظر زوجي إليّ باضطراب وتراجع إلى الوراء..
قلت: لم يعد ساعدي يؤلمني..
كان الطبيب يدوّن شيئا على قطعة ورق.. أحسست بأنه يضحك، لم ألحظ ذلك على وجهه ولكني أحسست بأنه يضحك.
أردت أن أقول: أعلم أنك تضحك.. ولكني قلت في داخلي «اهدئي يا عزيزتي» أردت أن أنظر لأرى ماذا يكتب، سحب الورقة بسرعة ولكني لاحظت أنه قد رسم أشكالا مضحكة.
أردت القول: لا تنزعج، لا ضير في ذلك، أنا كذلك في أغلب الأحيان أرسم أشكالا مضحكة على القصاصات التي تحت يدي..
قال الطبيب النفساني: ماذا تحبين؟
قلت: أفلام كارتون والت ديزني والعنب الخالي من النواة.. وفي بعض الأحيان أوّد أن أرسم الأشكال المضحكة..
فتح فاه برهة من الزمن.. وأخذ يسعل عدة مرات وقال: ماذا تكرهين؟
قلت: الجورب النايلون والذي يضغط دائما على ساعدي..
كتب الطبيب شيئا على ورقة أخرى.. أحسست أنه دفع بالورقة إلى جهتي كي ألاحظ أنه لم يرسم صورا مضحكة وقال: استفيدي من هذه الأقراص ثلاث مرات يوميا وسيتحسن حالك..
قلت: أيعني ذلك ألا أحبّ الكارتون.. كارتون والت ديزني بعد الآن..
نظر إليّ، وحدق فيَّ بإمعان، وقال: كلا إنه يمنعك من رسم

الصور المضحكة. ضحكت، وضحك الطبيب، زوجي كان ينظر إلينا باضطراب وهيجان.

لا أدرى كم مضى من الوقت وأنا أجلس مع الطبيب النفسي ونشاهد كارتون والت ديزني في قصر جميل وكبير ومرتب وبلا غبار.. طبيبي النفسي يعتاش على العنب الخالي من النواة وأنا لا أصفف شعري أبدا .. لحيته طويلة جدا، لقد رميت كل جواربي النايلون بعيدا، وهو لا يطلب مني أن تكون جواربه متناسقة، إنه دائما يلبس جوارب متنافرة الألوان وعلى أيِّ شيء يقع تحت يده يرسم الصور المضحكة.. ويسرد لي أحاديث عن تلك التي تجلس في غرفة الانتظار وتحدق في مزهرية تحوي ثلاث ورود من القرنفل الصناعي.

أحمد غلامي
Ahmad Gholami

ولد عام ١٩٦٣، كاتب وناقد أدبي ويعمل في الصحافة الثقافية. له كتابات قصصية متعددة للأحداث والكبار، وقد نال عدة جوائز أدبية. من مجاميعه القصصية المنشورة: العشيرة، نواح في الريح، بلا عنوان... حاليا.

بلا عنوان... حاليا

جلس على مصطبة المتنزه.. أول ما يلفت النظر فيه وجهه النحيف وعيناه الناعستان. الكاتب، وهو أنا، كان جالسا أمامه تماما. رجل آخر كان يغسل ثيابه في طست قرب كشك الحراسة. كان حارس المتنزه. يستطيع الجلوس في ظلام الليل تحت الشجرة يصارع أدران ثيابه وليس عليه سوى قميص قديم.. يتمتم أشياء مع نفسه أو ربما يتململ. تململه هذا هو الذي جعلني أركز السمع. لكنني لم أفهم شيئا مما يقول.. يتكلم بالتركية.. حتى حين يتحدث مع نفسه لا تبدر منه أي كلمة فارسية، إلا الكلمات القليلة المشتركة. وكذلك الرجل الجالس أمامي.. واضح أن سمرته من صنع أنامل الشمس.. ينظر إلى الأمام دون أن يزيغ بصره هنا وهناك. هو الآخر لم أفهم شيئا مما قاله مع نفسه، لكن موسيقى كلامه التركي تشي بالتبرم والشكوى من الزمن. لو كنت كاتبا يجيد التركية لاستطعت إبداع قصة إنسانية. صحيح أني أستطيع قراءة ذبذبات القلوب وسماع اصواتها الدبيبة، لكنني لا أفهمها حين تتكلم بالتركية. لابد لي من مترجم حتى أعثر على خيوط الصلة بين تململ حارس المتنزه وشكاوى الرجل الأسمر، فأستطيع صياغة قصتي. ليس من الصعب أن أجد المترجم. كثيرون ينتابهم الأرق ليلا فيقصدون المتنزه لقضاء الوقت. ها هو قد جاء أسرع مما كنت أتوقع. طويل القامة بشاربين كثيفين طويلين من تلك التي يعشقها صديقي روزبه. روزبه هذا شخصية واقعية هربت من القصة.

لولا خشـــيتي أن يغضب لكتبت لكم عنوانه ورقم هاتفه. إذا كان هذا القادم الطويل ذو الشـــارب الكثيف يجيد التركية فسينتهي كل شيء بسلام.

- معذرة سيدي، هل تجيد التركية؟

- نعم، لمَ تسأل؟

- أريد أن تترجم لي ما يقوله هذان الرجلان مع نفسيهما.

- وكيف تستطيع سماع ما يقوله الناس مع أنفسهم؟

- أستطيع لأني كاتب.

- آها...

- هل تترجم لي؟

- اهه.

هنـــا تقع قصتنا في مشـــكلة بســـيطة، هي أننـــي أنا فقط، باعتباري كاتبا، أســـتطيع ســـماع أصوات السرائر والقلوب ومع أني لا أفهم ما تقول لكني أكررها لصاحبي الطويل وهو يترجمها لكم! لا بأس ببعض التسامح مع كاتب مبتدئ.

- تســـامح؟! أنتم الكتاب أنانيون حقـــا. تريدون من الآخرين أن يتفهموكم ليل نهار. ويتســـامحون معكم، ويغضون الطرف عن هفواتكم. ولا يردون عليكم إلا باللطف واللين مهما هذرتم.

- ســـيدي، بالله عليك دع هذا الشـــجار الآن. كن كريما معنا لدقائق... مشكلتنا الآن هي الترجمة.

- لا يكـــف عن طلب العطف والتســـامح! لا بـــأس، لنرى هل ستحل الترجمة مشكلتك؟

ستطول القضية لو ألقمته حجرا، وسأبتعد طبعا عن قصتي.

مازال الحارس يدعك ثيابه في الطست... لكنه انتهى الآن.. نهض بصمت وسكب ماء الطست في جزرة المتنزه. غسل يديه بماء الماسورة وبدأ يسقي منها الزهور والعشب. ذبذبات.. صوت.. تململ.. سأبدأ الآن رواية أقواله للرجل الطويل وهو يترجم، ولكم أن تقرأوا:

«السخيف يظن أننا هنا في دار عجزة. سأبلل كل مكان لكي لا يستطيع النوم ويذهب إلى حيث يريد.

تركي مثلي؟! وإن يكن. ما أكثر الأتراك في هذه البلدة التعيسة. هل ساعدنا أحدهم؟ هل أخذ بيدنا أحدهم؟ بل لم يتورعوا حتى عن أن يرجمونا مع الراجمين دون أن نقترف ذنبا.. يالسوء الحظ، أصبحتُ جلاد المشردين والمتسولين... يا لها من مهنة؟! أصيح في النهار على الأطفال ألا يقطفوا الزهور، وأهشُّ ليلا على الشحاذين والمساكين ليتشردوا أكثر. يظنون أني لا أسمع أصواتهم حين يشتمونني: تركيٌّ...، هم وآباؤهم وأجدادهم وعشيرتهم. لديَّ مسؤوليتي هنا. من يعول ستة أطفال؟ لكن هذا... وما شأني أنا؟!.. هل نُزعت الرحمة من قلبك؟ ألستُ إنسانا مثله؟ أليس لي زوجة وأطفال؟ لمَ لا أنام على العشب؟ إذا تسامحتُ معه امتلأ العشب والثيل بالشحاذين.. هذا مستحيل.. لاعليك أبدا... سيجد له مكانا آخر ينام فيه.

قطرات الماء تنزلق على الثيل وتثير أريجا طبيعيا يسكر الخيال. خيالي أنا والمترجم طبعا. الرجل الأسمر لا يزال على أزمته... يئن ويستغيث. لكن شيئا لاح من قعر صوته ينم عن استئناسه بمحنته. أنا أروي والمترجم يترجم وأنتم تقرأون:

«لا بأس عليك يا صاحبي. امنع عنّا هذين الشبرين من أرض الله.. أدري أنك تود مساعدتي ولا تستطيع.. تخشى أن تفقد عملك... أنا ضيفك ليلة أخرى. تركتني أنام على الثيل ليلتين. بل جئتَ وألقيتَ عليَّ بطانية. تصّورتَ انني لم أشعر؟ بلى، شعرتُ وشكرتك بصمت. سأبقى الليلة جالسا على المصطبة حتى الصباح. أنام جالسا. لكنني سعيد.. لأن الإنسانية لم تمت بعد.. تركتني أنام هنا ليلتين.. ليلتين كاملتين.. أنا راض ومسرور.. أنا راضٍ حتى لو نمت الليلة على المصطبة. زهراء مكانها جيد في المستشفى... بجوار ابنتي.. أنا في راحة تامة إذا كانت هي في راحة. أستطيع النوم حتى على الصخر. أنا راضٍ حتى عنك.. جزاك الله خيرا.

ترش الماء الليلة لكيلا أنام.. لابأس.. ستنقضي هذه الليلة كما انقضت سابقاتها لا بأس عليك».

رشَّ الحارس كل الثيل بالماء.. وصل إلى شجرة الصفصاف. حاول أن يرش البقعة المحيطة بجذعها فلم تطاوعه نفسه. ارتعشت الماسورة في يده. الرجل الأسمر كان قد ولّاه ظهره. أنا أروي والمترجم يترجم، وأنتم تقرأون:

«دعه ينام الليلة أيضا. الله كريم. إذا جاء المفتش فلن يحكم عليك بالإعدام للجواب أمامه. لا بد أنه إنسان مثلك. وهذا الأسمر يبدو عليه أنه شخص محترم، لا أظنه شحاذا أو متسوّلا.. لينم الليلة أيضا. لكنني سأطرده شر طردٍ إنْ جاء غدا أيضا.. الليلة فقط يا رجل.. الليلة فقط».

ألقى الماسورة على الأرض وأغلق حنفية الماء وعاد إلى كشكه.

جلس وهو يحملق في الرجل الأسمر.. الرجل لا يتحرك.. أسند ظهره إلى المسند الحجري للمصطبة وحاول أن ينام.

نهضتُ، أنا الكاتب، لأقول له إنّ تلك البقعة من الثيل ليست مبللة ويستطيع النوم فيها، لكن المترجم الطويل القامة ذا الشاربين الكثيفين قبض على ساعدي:

- لا تتدخل..
- دعني أخبره أن الحارس عطف عليه...
- هو أدرى منك.. أنت الذي لا تدري.
- أنا لا أدري؟! لكنني أنا أخبرتك بكل شيء وأنت ترجمت فقط!

لا، لاتدري. أنت كاتب صغير لا تعرف الناس. تصورت أنني لم أفطن إلى أنك اختلقت من نفسك كل ما قلته بالتركية لتكون قصتك أكثر إنسانية؟ أنت كاتب مبتدئ بائس. أنا أتجول كل ليلة في هذا المتنزه، وهذا الرجل ينام كل ليلة هنا، والحارس لا يسقي شجرة الصفصاف كل ليلة، بل يلقي عليه البطانية كل ليلة، ولا يخاف من المفتش. يأتي بالبطانية ويغطيه بها. هذا هو الصواب الوحيد الذي قلتَه... ثم إنك تجيد التركية، وتكلمت بالتركية على أحسن مايمكن.

قبضتُ بكلتا يدي على ياقته: لولا روزبه.. أنتم طبعا تعرفون روزبه؟ صديقي الذي يحترم أصحاب الشوارب العظيمة، للطمته على فمه. لكن صاحب الشوارب الكثيفة قال شيئا تهادى كالندى البارد على اعصابي الحامية:

روزبه؟ منذ متى أصبح روزبه صديقك؟ روزبه صديقي...

إنه يقرأ ما في نفســـي. يسمع صوتي. يجب أن أسكت تماما.
قد يسرق قصتي..
أنا أسرق قصتك؟! وهل أنت قاص أصلا؟! أنت شخصية في قصة كاتب تركي. أورهان أوزول... أنا الذي ترجمتك. هل نسيت أنـــي كنت آتي كل ليلة إلى المتنزه بعد الترجمة لأدخّن ســـيجارة؟ منذ متى أصبحت كاتبا ورحت تلفق الأكاذيب عن أهل بلدي؟
لَمَ ناديتُ عليه يارب؟ يريد ســـرقة قصتـــي. هذه كلها حيلة. يريد نشر قصتي باسمه.
نشر؟! ومن سينشر هذه الترهات؟!
طفـــح بي الكيل، أنا الكاتب. ليتني لـــم أنادِ على هذا الطويل اللجوج. أرأيت؟ أرأيت؟ أين تذهب؟ شغلي معك لم ينتهِ بعد...
سار الرجل الطويل.. ركض الكاتب وراءه، أقصد أنا. أريد أن أركض وراءه. أنا كتبت هذه السطور، يجب أن أحمي هويتي قبل أن أخســـر كل شيء وسط هذه المعركة. أنا كتبتُ الرجلَ الأسمر. أنا ابتدعتُ حارس المتنزه.

جيستا يثربي
chista yathrebi

ولـدت فـي طهـران ١٩٦٨، تكتـب الشـعر والقصـة القصيـرة والمسـرحية والنقد، وتعمل في الإخراج المسـرحي، ومحاضرة في الجامعـة. تحضّـر للدكتـوراه فـي علـم النفس. نشـرت أكثر من ثلاثـين كتابـا وقد فـازت بجوائـز تقديرية في مجال نشـاطاتها المتعـددة. مـن كتبهـا: سـبع نجـوم، سـبعة شـعراء، السـلام على المستحيل... إلخ.

صور فورية

في معهد تعليم الرسم، طلبوا من الطفلة صورا. سوّت الأم شعر ابنتها وصنعت لها ضفائر رفيعة كذيل الفأر وشدّتها بشريط كانت نهايته على شكل رأس أرنب. أمسكت بيدها وخرجت إلى الشارع القريب حيث كان محل للتصوير الفوتوغرافي.

أجلس المصور الطفلة على مقعد مرتفع وطلب منها أن تنظر إلى صورة الطير التي أمامها. وأوصاها بألا ترمش وخرج من الغرفة. اتكأت الأم على الباب وبعد لحظات شعّ بريق أضاء الغرفة وخفت بسرعة. عاد المصور وقال إن عمله قد انتهى. سألت الأم: كم يستغرق تحضير الصور، قال لها: عشر دقائق فقط.

بعد عشر دقائق تسلمت الأم الظرف وفتحته. لكنها لم تر شيئا فقد كانت الصور بيضاء تماما، أدخلا الطفلة إلى الغرفة ثانية. تكرر ضوء الفلاش. انتظروا عشر دقائق أخرى. لكن الصورة الثانية كذلك لم تكن تعكس شيئا إلا مساحة من البياض.

قالت الأمّ: لعل الكاميرا فيها عطل؟ قال المصور اجلسي أنتِ لنرى. جلست الأمّ شعّ الفلاش وأضاء وجهها. بعد عشر دقائق كانت صورة الأم جاهزة لا نقص فيها. قال المصور:

لا أدري لم لا تطبع صورة ابنتكِ. لم يحدث هذا معي من قبل. هل التقطت لها صورا قبل هذه المرة؟

لم تجب الأم، أحكمت ذيل الفأر وأدخلت ابنتها إلى غرفة

التصوير. شعّ الفلاش، انتظروا عشر دقائق ولكن الصورة الثالثة كانت بيضاء أيضا والرابعة كذلك... ارتعبت الأم وقالت للمصور:

يكفي، حتما في جهازك خلل!

قال المصور:

لكن الجهاز سليمٌ.

أمســكت الأم بيد ابنتها بعصبية وخرجت من محل التصوير.

واتجهت إلى معهد الرسم، قالت المربية مبتسمة:

هل أتيتم بالصور؟

أجابت الأم:

لا. لم تتهيّأ.

قالت المربية:

لا يهم. حاليا صورة عن البطاقة الشخصية تكفي!

أخرجت الأم بطاقة ابنتها من الحقيبة وقالت:

لكنني لم أهيئ صورة عنها.

قالت المربية:

حسنا. لدينا جهاز استنساخ هنا.

أخذت البطاقة منها واتجهت نحو الجهاز سائلة:

هل هذه المرة الأولى التي تأتين بها إلى المعهد؟

قالت الأم:

نعم. فقد بلغت الثالثة من عمرها فورا.

قالت المربية تخاطب الطفلة والابتســامة على شفتيها: أهلا بكِ يا عزيزتي. ولكن لم تقولي لي ما اسمك؟

كانت الطفلة صامتة وعيناها تشبه عين الأرنب المرسوم على

شريط ضفيرتها. عينان سوداوان لا حركة فيهما.

قالت الأم: إنها خجولة قليلا اسمها سحر...

نظرت المربية إلى بطاقة سحر. تأملتها للحظات ثم تصفحتها وأمعنت النظر فيها ثانية، كانت كمن أصابه الدوار قالت منزعجة:

هل هذه البطاقة لابنتك؟

أجابت الأم واثقة:

نعم...

رمقت المربية التي اعتلاها الشحوب الأم بنظرة والابنة بأخرى. وقالت:

ولكن يا سيدتي هنا قد كُتب... أعني لعله ناتج عن خطأ... فقد كتب أنها قد توفاها الله منذ ثلاث سنوات...و هي في الشهر السابع من عمرها...

مسدت الأم شعر ابنتها الفاحم ولاطفت شريط ضفيرتها الشبيه برأس الأرنب. حدجت المربية بنظرة واثقة وقالت:

نعم ولكنها ترسم ببراعة.

أخذت الأم ورقة بيضاء ووضعتها أمام ابنتها وأعطتها قلما وقالت:

ارسمي يا سحر.

كانت المربية تنظر بحيرة واندهاش. أخذت البنت الصغيرة القلم من أمها بصمت وبدأت ترسم على الورقة البيضاء. بعد لحظات وضعت القلم جانبا. أمسكت الأم بالورقة أمام عيون المربية وكانت على شفتيها ابتسامة تفشي بالغرور، كانت سحر قد رسمت صورة طفلة. وضعت لها بدل العينين نقطتين سوداوين

وأنفا وشفتين صغيرتين. كان شعرها مقصوصا من على الجبين وعلى رأسها شريط ينتهي بشكل أرنب.

كانت البنت الصغيرة المرســـومة على الورقة تعلوها ابتسامةٌ ممزوجة بالغرور تشبه تماما تلك الابتسامة المرسومة على شفاه الأم...

كيومرث صابرى
Keumarth Saberi

كيومرث صابري الملقّب بـ «كُلْ آقا أي سيد الورد» من أشهر كتّاب النقد السياسي الساخر المعاصرين في إيران. ولد عام ١٩٤٢ في إحدى قرى «صومعه سرا» شمال البلاد. بدأ منذ الثامنة عشرة عمله كمعلم والتحق بالجامعة ودرس في فرع العلوم السياسية سنة ١٩٦١م.

في عام ١٩٦٦ بدأ بنشر قصائد ساخرة يوقعها بلقب «مكسور الرقبة الفومني» نسبة إلى فومن المنطقة التي ينحدر منها. حقق له عموده الساخر «دو كلمة حرف حساب، أي كلمتان لوجه الحق، في صحيفة «اطلاعات» شهرة واسعة وقد جُمِع بعد ذلك ليكوّن أربعة مجلدات.

كان يؤكّد أنه لا ينحاز إلى أي تيار سياسي ويحاول التعامل مع الجماهير والثورة بصدق. أسس مؤسسة «كُلْ آقا» الثقافية الذائعة الصيت والتي أصدرت أسبوعية «كُلْ آقا» و«كُلْ آقا للأطفال».

توفي في الأول من مايو ٢٠٠٤ م.



شروط الزواج

حينمـــا خرجت من مكتبي، بدأ الثلج ينهمر حبة حبة. وصلت إلى الرصيف، كانت الأرض قد اكتســت ثــوب البياض على مد البصـــر. رفعت ياقة معطفي، وســلكت الطريــق أمامي. لايزال أمامنا من الشـــتاء الكثير. قلت لنفســي إذا استمر البرد هكذا فسوف نرى الويل حتى آخر الفصل.

حينما دخلت البيت شاهدت والدتي في الباحة تجمع الغسيل عن الحبل. منذ عدة أعوام، وأنا أمازحها عند هطول الثلج:

- أماه، جاءنا برد يقتل العجائز!

واليوم حينما هممت بأن ألهج بهذه العبارة، بادرت هي للقول: يبدو أنه برد يقتل العزّاب، أليس كذلك؟...

لم يكن في بيتنا عازب غيري. أطلقت الوالدة مزحتها بعد عدة ســنوات، ذهبت مباشـــرة إلى غرفتي. أوقدت المدفأة ورحـــت أتملـــى بالصقيع من خلــف النافذة. ســئمت النظر للصقيــع. في عالم الأخيلــة المجنحة، ســـافرت نحو فتيات الأقارب:

- زري؟ سيمين؟ عذراء؟ مهوش؟ بروين؟...

علـــى فكرة، ربما جالت فتاة فـــي خاطر أمي، دفعتها لمزحتها هذه...

نيران فتيات الأقارب لم تسخِّن لنا قدح الماء. في عالم الأخيلة المجنحة أيضا هششت بعصاي على غربان فتيات المحلة:

- سوسن؟ مهري؟ مرضية؟ ابنة تقي؟ ابنة...؟

لو لم تدخل والدتي الغرفة، لما علم إلا الله كم كنت سأسافر مع هذه الأوهام. قالت وهي تدفئ يديها:

- قل لي، ما رأيك في زينب، ها؟ ابنة آقا بالاخان؟...!

يقولون إن القلوب سواق تلتقي. ولكن ثبت لي يومذاك أن الأدمغة أيضا سواقٍ تلتقي...

يبدو أن والدتي شعرت بأني أفكر بهن...

قلت لها: اسمعي يا أماه، لحد الآن لم أقل أي شيء. ومن الآن فصاعدا لك أن تفعلي ما تشائين... ولكن بالله عليك لا تلقي بنا في البئر.

قالت: أي بئر يا ولد... أنا التي ابيضت جدائلي في هذه المحلة، لا أعرف بناتها؟ ابنة أقا بالا خان أنسبهن لك. كلما رأيتها في الزقاق تخيلت يداها في يدك. لقد خلقتما لبعضكما!

- لا اعتراض لدي. ولكن ماذا عن والدها؟ هل يزوج أقا بالاخان ابنته لموظف مسكين مثلي؟

- ولم لا؟... إنها ابنة آقا بالا خان على كل حال ليست ابنة السلطان - ولكن آقا بالا خان ليس بالقليل. أولا هو «آقا»(*) وثانيا«بالا»(**) وثالثا «خان»(***)... أليس ثريا.. ماذا يعوزه إذن؟

لا داعي للتفكير في هذه الأمور. دعني أتصرف أنا... هل أذهب؟

- نعم، اذهبي وأعدي لنا الغداء... أنا جائع جدا!

- أذهب لأعد الغداء؟

(*) بمعنى السيد.

(**) بمعنى الأعلى أو الرفيع.

(***) بمعنى الإقطاعي.

- نعم ماذا إذن؟

- أردتُ أن أذهب لبيت آقا بالا خان لأتحدث في الأمر مع زوجته زرين(*) خانم!

- بهذه السرعة؟

- ليس بهذه السرعة طبعا... انتظر حتى العصر وأذهب.

تريثت قليلا ثم قلت:حسنا، لا بأس!

انصرفت أمي فرحة نحو إعداد الغداء. تمددت أنا على السرير لأفكر في زوجتي القادمة...

البرد يشتد لحظة بعد أخرى.. برودة السرير تستفزني أكثر... حقا كأن البرد قاتل العزاب الذي تحدثت عنه أمي!

حينما عادت أمي من بيت آقا بالا خان كان الليل قد أرخى كل سدوله. ولكن حتى في هذا الظلام، يمكن رؤية فكها الأسفل ساقط لحاله وفمها فاغر من الوجوم.

- ها ما الخبر؟ وقفت في الغرفة كأنها ملك الموت أو من شاهد ملك الموت.

- ألم أقل لك إن آقا بالا خان ليس من طبقتنا؟... ماذا قال؟

قالت بصوت مرتجف:

لم يكن في البيت، تحدثتُ مع زوجته... وابنتها كانت أيضا.

- لم يوافقوا؟

- لا يمكن القول إنهم لم يوافقوا... ولكن قالوا يجب على العريس أن يغير أصدقاءه.

(*) بمعنى: المرأة الذهبية.

يرعى نفســـه ومظهره أكثر، ويعود في المساء باكرا إلى البيت، ليتعود على ذلك من الآن.

- ماذا قالوا أيضا؟

ســـألوا هل عنده بيت وسيارة؟ قلت لهم: لديه ماكينة حلاقة، وسيشتري السيارة لاحقا إن شاء الله! والبيت أيضا يمكن التفكير فيـــه. أودع مائتي ألف تومان في المصـــرف ليضيف إليها قريبا. والبيت أيضا سيشتريه فيما بعد إن شاء الله!

- ثم ماذا؟

قالوا إن شـــهادته الدراســـية جيدة لكن راتبه قليل! وعليه أن يقدم قطعة أرض وعقارا ضمن مهر العروس حتى لا يتحدث عنا الأقرباء بسوء.

- ثم ماذا؟

- ثم إن ابنتي لا تجيد أعمال البيت، لذلك عليه أن يســـتأجر لها خادمة وخادما!

- ثم ماذا؟

- قالـــوا: فضلا عن هذا اســـمحوا لنا بـــأن نفكر في الأمر، ونتحدث مع والدها، ونعلمكم الجواب بعد ثلاثة أشهر...!

- ودعتهم ورجعت...

وأنـــا أيضا ودعت أمي وذهبت لأقضي ليلتي مع الأصدقاء في لهو الشـــباب حتى لا يبقى اللهو حســـرة فـــي النفس إذا تزوجت.

لم يخبرونا بشيء خلال الأشهر الثلاثة... كانت الأيام الأخيرة من مهلة قانونية ســـبقت حكما وزاريا بنقلي إلى الجنوب. حينما

كانت والدتي تحـــزم الأمتعة، أوصت أقدس خانم زوجة جيراننا مرتضى خـــان بأن تتصل في رأس نهاية الأشـــهر الثلاثة بزرين خانم وتكتب لنا النتيجة.

وصلتنا رســـالة أقـــدس خانم ونحن في الجنـــوب. علمتُ أن زوجة آقا بالا خان بعثت في اليوم الأخير من الشهر الثالث خبرا «إذا لم يغيِّـــر العريس أصدقاءه فلا ضيـــر، ولكن عليه أن ينفذ باقي الشروط».

بعد أشهر وصلت رسالة أخرى تقول:

«قالت زوجة آقا بالا خان: لا ضير إن لم يرع نفســـه ومظهره، لكن عليه أن ينفذ سائر الشروط».

وبعد أشـــهر أخرى وصلت رســـالة أخرى «لا مانـــع أن يعود متأخرا فـــي الليل، ولكن لا يتأخر كثيرا فتبقى ابنتي لوحدها... وعليه طبعا تنفيذ الشروط الأخرى!».

الوقت ينقضي بسرعة، بعد كل خمسة أو ستة أشهر تصل رسالة من أقدس خانم تعلن عن إلغاء أحد الشروط السابقة:

زوجة آقا بالا خان جاءت الى بيتنا بنفسها وقالت:

- لا داعي للســـيارة أيضا، لأن زحام الشـــوارع لا يشجع على اقتناء ســـيارة خاصـــة!... ولكن يجـــب أن ينفـــذ العريس باقي الشروط!

قالت لي زرين خانم فـــي الحمام: قال آقا بالا خان البارحة: لدينـــا بيت ولا ضرورة لأن يفكر فيه، لكنه يجب أن ينفذ ســـائر الشروط.

آقا بالا خان وزوجته أخبروني البارحة:

يمكــن التنازل عن قطعة العقار في مهر العروس، لكن الأمور الأخرى مهمة!

اليوم رأيت زينب نفســها في الزقاق، المسكينة تملكها الهزال بشدّة... قالت: أعيش حتى براتبه القليل، ولكن لابد أن يستأجر لي خادما وخادمة!

لا أدري بالضبط كم من الســنين انقضت، لكنني أعلم أن ابنة آقا بالا خان بلغت السن الذي تسمى من تبلغه «عانسا».

العوانـــس إذا كـــن واقعيات يجب ألا يفكـــرن في الزوج لكيلا تتقبض قلوبهن كلما رنّ جرس البيت!

شيئا فشيئا، كدت أنسى الموضوع... خصوصا أن أقدس خانم قطعت رسائلها...

حياتي كانت تجري في سياقها الطبيعي إلى أن وصلتني ذات يوم رســالة لم يكن لي عهد بالخط الــذي طرز بياضها. فتحت المظروف على عجل. كتب فيها:

السيد برهان بور

بعد التحية، وددت أن أخبركم، لأجل استئناف قضية زواجنا، لا حاجة حتــى للخادم والخادمة، لأنني طوال هذه الفترة أتقنت في مدرســة بيتنا كل الأعمال المنزلية من طبخ وخياطة وتجميل وحلاقة وتطريز، وحزت فيها شهادة دبلوم.

«أنا بانتظار جوابكم، الجواب، الجواب الجواب... زينب».

فـــي اليوم التالي، حينما أفرغ ســـاعي البريد صندوق حارتنا كانت رسالتي ذات الأسطر المعدودة من جملة ما فيه من رسائل. كتبت لها:

السيدة الفاضلة زينب خانم!

قرأت الرسالة التي بعثت بها، لكنني لم أفهم بالضبط من الذي تقصدينه من «السيد برهان بور»، إن كان قصدك أحمد برهان فهو يدرس حاليا في الصف الأول الابتدائي ولا شأن له بهذه الأمور، وأنا والده... ولا أعزب غيره في البيت!

أبلغي سلامي للوالد والوالدة... (قربان علي برهان بور)

على فكرة نسيت القول إنني بعد شهرين من نقلي إلى الجنوب تعرفت على فتاة شيرازية سوداء الشعر والعينين، لم يكن لديها أي تحفظ على أصدقائي أو مظهري أو تأخر عودتي إلى المنزل، ولم تطالب بمنزل وسيارة وراتب ضخم أو قطعة عقار لمهرها... فضلا عن هذا كانت بارعة في الطبخ وأعمال المنزل... والأهم من كل هذا أن والديها لم يكونا لا «آقا بالا خان» ولا «زرين خانم)».



جمال مير صادقي
Jamal Mirsadeghi

قاص وروائي وباحث أدبي، ولد في طهران سنة ١٩٣٣، درس الأدب الفارسي في طهران وعمل لسنوات طويلة معلما وأمينا لمكتبة الجامعة. أصدر العديد من الكتب، أربعة منها روايات والبقية مجاميع قصصية.

يلاحظ في ملفه أيضا إنجازه بحوثا حول عناصر الأدب القصصي وترجمات وكتب للأطفال. ترجمت بعض قصصه إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والروسية والهندية والهنغارية والعربية.

من أعماله: مسافرو الليل، عيناي أنا المتعب، لا أنسٌ ولا صوت، الفزع، وغيرها.

المحرقة

دخلت المخبز، امرأة كانت تخرج منه مع طفلتها:

أسرعي يا بنيتي لا تحترقي. الشمس كأنها تنور خباز.

الدكان مزدحم. امرأة عجوز تصرخ. قال لها رجلٌ ملتح:

ما وراءك؟ وأنا مثلك أريد قرصين فقط، مالك تضجين هكذا؟

أمسك قميصه من جيبه وراح يهفهف على نفسه.

ياله من حر عجيب، يكاد المرء يشتعل من الحر.

قـــال العامل علـــى الميزان: وما نقول نحـــن إذن... نقف أمام الفرن من الصباح إلى المساء.

مسح الأسطى عرق جبهته بظاهر ساعده العاري وقال: خذي هذا واذهبي.

لا تضجي هكذا.

قال الرجل الملتحي: أنتم اعتدتم على هذا.

قال عامل الميزان: اعتدنا على ماذا؟ جلودنا تتساقط يا رجل. أيمكن أن يعتاد الإنسان على النار؟

قلت: الحر شديد هذه السنة. قال الملتحي: نعم ياله من زمان. ذلك من شتائها. وهذا من صيفها. وكأن الإنسان يجب ألا يذوق طعم الراحة. إما أن يرتدي عدة ثياب على بعضها لكي لا يرتعد وإمـــا أن ينزعها كلها لكي لا يحترق. ما إن تبدأ الفرحة من عدم الارتعاد، حتى تجد نفســـك تحترق. إما أن يرتعد أو يحترق. ياله من زمن.

رجـــل نحيـــل القوام يقف بجانـــب عامل الميـــزان وتلوح عليه

سيماء الحكمة، أقحم نفســـه في النقاش دون أن يحول أحداقه إلينا: الإنسان يحترق دوما.

قال الملتحي: في الشتاء يرتعد الإنسان، وفي الصيف يحترق.

مســح الرجل النحيل حبات العرق عن وجهه وقال: حتى في الشتاء يحترق. دائما يحترق.

قلتُ: كلام أخينا لهوجه من الصحة. ليس اعتباطا قول الناس نارُ البرد.

قال الملتحي: نار البرد تختلف عن نار الحر. يا أخي تلك...

قطــع الرجل النحيل كلامـــه: لا فرق بينهما أبدا. الإنســـان يحترق. يحترق دائما...

صاح الأسطى: سيد عبد الله كم قرصا تريد؟

قال الرجل النحيل: نار... نا... سته...

قال الرجل الملتحي: الفرق بينهما كبير يا سيدي. في الصقيع حينما يرتجف الإنسان لا يمكن القول إن...

قصَّ الرجل كلامه مرة أخرى: يحترق دائما، في الصقيع، في الحر، صيفا، شتاء، ربيعا، خريفا. دائما يحترق. دائما...

رفع الرجل الملتحي كتفيه: لا بأس، لك أن تفترض كما شـــئت لكنهم إن سألوني أنا فسأقول...

أخذ الرجل النحيل أقراص الخبز من الأســـطة وألقاها على اللوح الخشـــبي. انتزع عنها الحصى الســـاخن ورماه على أرض المخبز بعنف وهو يزأر:(*)

(*) هذا النوع من الخبز يُسمى «سنككي»، وهو خبز الحصى في إيران. تفرش أرض التنور بالحصى وتمدد اقراص الخبز فوقه لذلك تبقى بعض الحصيات عالقة بكل قرص حينما يســتلمه الشـــراة، فينتزعونها في المخبز عادة ويرمونها أرضا ليجمع الحصى تارة أخرى ويغسل ويعاد إلى التنور.

(دائما دائما يحترق)

طوى أقـــراص الخبز قبل أن تبرد ودســـها تحت إبطة وقال: سيد عباس، سجِّلها في الحساب.

قال عامل الميزان:

«حسنا يا سيد عبد الله. صحبتك السلامة»

امتـــدت نظرته وراء الرجـــل النحيل وهو يخـــرج من الدكان ليغوص في أنوار الشمس المحرقة.

قال الرجل الملتحي: أما أنا فأقول إن هناك فرقا كبيرا...

قال عامل الميزان: المسكين توفيت زوجته عند المخاض وتركت له أربعة أطفال صغار.

بيجن نجدي
Bijan Najdi

ولد عام١٩٤١ في مدينة لاهيجان (شمال إيران)، عمل لسنوات طويلة معلما في مسقط رأسه، وبعد ثلاثين عاما من الكتابة قرر أخيرا إصدار قصصه وقصائده. ولكن الأجل لم يمهله فقضى نحبه سنة ١٩٩٧ بعد إصابته بمرض عضال.

صدرت له مجموعتان قصصيتان، وأخرى شعرية:

النمور التي راكضتني، وفازت بجائزة العام كأفضل مجموعة قصصية.

أخوات هذا الصيف

من هذه الشوارع مرة أخرى.

اعتبر النقاد أسلوبه فريدا من نوعه، وقد حقق سمعة مميزة في أروقة الأدب القصصي الإيراني بعد وفاته.

ضيف التراب

أنهى طاهر أغنيتـــه في الحمام، وطفق يصغي لخرير الماء. نظر للماء وهو ينزلق بقطرات مسرعة على ذراعيه النحيفتين. رائحة الصابون تفوح من شعره. هواء مضبب يحوم حول رأس الرجـــل العجوز. الماء كان يعانق طاهرا. حينما ألقى المنشـــفة على عاتقيه شعر بأن شيئاً من شيخوخته ألتصق بتلك المنشفة الطويلـــة الحمـــراء، وأن روماتيزم أقدامه لم يعـــد يؤلمه. دس وجهـــه في المنشـــفة ووقف عند باب الحمـــام إلى أن جزع من البرد. وقف أمام مرآة الغرفة. رأى فيها أنه قد شاخ فعلا. في المـــرآة، كان هناك جانب من مائدة الفطور ومنظر جانبي لوجه مليحة. والسماور[*] كان يغلي بغرغرة في الغرفة، وبلا غرغرة فـــي المرآة، وبهذه كلها، كان طاهـــر ووجهه الملص ق على المرآة يشعران معا بالدفء.

قالت مليحة: إن كان الشباك مفتوحا فسوف تصاب بالبرد.

الجمعة كان خلف النافذة... بشبهه المذهل لكل جمع الشتاء. أحد أسلاك الكهرباء انتفخ تحت ســـواد الطيور. ستائر الغرفة منتصبة، ومدفأة الحطب تتأجج بصوت العصافير.

قعد طاهر قرب المائدة وشغّل المذياع «... بإحدى عشرة درجة أشد مناطق البلاد بردا».

رفع فنجان الشـــاي. أشـــاحت مليحة بوجهها نحـــو النافذة: «اسمع، يبدو أن شيئا حدث في الخارج»!

(*) أداة لصنع الشاي متداولة في إيران.

للغرفة شـــرفة تطل على الشـــارع المعبّد الوحيد في القرية.
شـــرفة تروي لهم مرتين في الأسبوع أهازيج قطار مسرع. أغنية تمر عبر النافذة وتموت عند كسر الجص في سقف الغرفة.

حينمـــا لا يكون لطاهـــر رغبة في قـــراءة الصحف القديمة، وروائـــح الأوراق الباليـــة تصيبه بالغثيان، ومليحة لا يســـتفزها شيء لأن تسرح من بين أسنانها الصناعية ترنيمة منسية للمغنية «قمر» كانا يقصدان الشرفة ليسمعا صوت قطار لا يرى أبدا.

- ألستُ معك؟ انظر ما الذي حدث في الخارج.

أعـــاد الفنجان إلى المائدة وقام إلى الشـــرفة بفم ملؤه الخبز والجبن. جماعة من الناس يتراكضون إلى نهاية الشارع.

قالت مليحة: ماذا هناك؟

في الستين من عمرها. نحيفة. على شفتيها انحناءة من اختنق بعبرته. ما عادت تستطيع استذكار آخر مرة حفّت زغب وجهها.

قال طاهر: لا أدري.

قالت مليحة: لعله جســـد آخر!... لابد أنهم عثروا على جسد آخر.

حتـــى لو لـــم تقل مليحة «جســـد آخـــر...» كانا ســـيتناولان فطورهما باســـتضافة ذكـــرى يوم صيفي لـــزج، ويتجادلان على اختيار هذا الاســـم أو ذاك. يوم تخطت الشمس تخوم خراسان، وتوقفـــت هنيئة عند مدينة «كنبد قابـــوس»، وانطلقت من هناك إلى القرية لتنشر صباحاً حليبي اللون على حبل غسيل مليحة...

اســـتيقظ طاهر في فراش مترع بشمس الأحد على موسيقى يومية تعزفها مشـــية مليحـــة. كاد الباب الخشـــبي يفتح بأيدي

مليحة، وقد فُتـــح. قالت مليحة قبل أن تضع الخبز على المائدة: انهض يا طاهر، انهض.

قال طاهر: ماذا هناك؟

قالت مليحة: قالوا في المخبز إن هناك جثة تحت الجسر.

قال طاهر: ماذا تحت الجسر؟

قالت مليحة: ميت... الكل يذهبون للتفرج عليه، هيا انهض.

سارا نحو الجسر بلهفة، لم تستطع تسريع خطاهما العجوزة. البعض وقفوا فوق الجســـر يتفرجون إلى الأسفل. همهمة الناس أدنى من حشـــدهم. نســـائم تلقيـــح التوت تتهادى نحو أشـــجار التوت. عدد من الشـــباب اليافعين جلســـوا على حافة الجســـر وعلقوا أرجلهـــم المتذبذبة فوق الماء المتدفق. شـــرطة الجندرمة تحلّقوا حول ســـيارة الجيب. قبل أن يصل العجوزان إلى الجسر كان الجندرمة قد وضعوا الجثة في السيارة وانطلقوا.

سألت مليحة فتاة شابة: من كان يا ابنتي؟

قالت الفتاة: لم أعرف.

مليحة: هل كان شابا؟

الفتاة: لم أعرف.

مليحة: ألم تري شيئا؟

ابتعدت الشـــابة عن العجوزة.. أجاب رجل توكأ على ســـياج الجســـر: أنا رأيته. كان منتفخا. كان مسودّ الجلد، كان طفلاً يا أمّاه، كان صغيرا.

أمســـك طاهر بعضد مليحة. استدار الجسر والرجل والنهر وغابـــوا معا عـــن أحداق مليحة. ولم يبق من ســـيارة الجيب في

البعيد سوى شبح غامض.

ذلك الرجل قال لي يا أماه، هل سمعت يا طاهر؟ قال لي...

انحدرت الشـــمس، رسم العرق مثلثا صغيرا على قفا قميص طاهر. قالت مليحة: أين سيذهبون بذلك الطفل الآن؟ هل قتلوه؟ وربما ذهب للعب بالماء وإذا به...

عادت نســـائم تلقيح التوت دون أن تجد لها شجرة توت، وها هي الآن تذبذب الملاءة على صدر مليحة.

قالت مليحة: لم أعرف كم عمره! امسك يدي يا طاهر.

قال طاهر: هل تريدين أن نقعد للحظة؟

ليت إحدى الأشجار كانت ابنا لطاهر (تخطّرت مليحة)

قالت: اسأل أحدا أين ذهبوا به؟

قال طاهر: إلى المخفرطبعا، أو المستوصف...

- ليتني أستطيع أن أراه (قالت مليحة).

قال طاهر: ماذا ترين؟ إنه طفل فقط.

قالت مليحة: نعم، وأنا أقصد الطفل.

قال طاهر: هل نذهب عند ياوري؟

باب المســـتوصف كان مفتوحا. عدة شتلات صنوبر اصطفت حتى ممر البناية. كانت يابســـة لا يُـــرى الصيف حولها. صافح الدكتـــور يـــاوري طاهرا وســـأل مليحة: هـــل تتناولين أقراصك بانتظام؟

قالت مليحة: نعم.

سأل الدكتور طاهرا: هل تنامُ لياليها جيدا؟

قالت مليحة: دكتور، عثروا على طفل، هل سمعت به؟

قال الدكتور: نعم.

قالت مليحة: أين هو الآن؟

قال الدكتور: وضعوه في المخزن.

قالت مليحة: في المخزن؟ الطفل؟ وضعوه في المخزن؟

قال الدكتور: إننا لا نمتلك برادا للجثث هنا.

قالت مليحة: ثم ماذا يفعلون به؟

قال الدكتور: ينتظرون حتى الغد. إن لم يأت أحد ليسأل عنه فسيدفنوه.

قالت مليحة: إن لم يأتوا، إن لم يأت أحد وراءه هل تعطونه لنا؟

قال الدكتور: ماذا؟

قال طاهر: يعطوننا الطفل؟ ولماذا يعطوننا الطفل؟

قالت مليحة: لندفنه، ندفنه بأنفسنا. ثم قد نستطيع أن نحبه. بل الآن أيضا، يبدو، يبدو أنني أحبه.

دست نفسها في ملاءتها، وتحررت الدموع التي حبستها من الجسر إلى المركز الطبي. اهتزت الملاءة على أكتافها وتبلل الجزء الذي يغطي وجهها.

ملأ طاهر قدحا من الماء. مدد الدكتور مليحة على سرير خشبي. إبرة دقيقة غُرزت تحت جلد يدها. سقطت قطعة قطن عليها بعض الدم في سلّة صغيرة تحت السرير، ولم تفتح مليحة عينيها حتى غروب ذلك اليوم، إلى ما بعد عدم مجيء القطار، ولم تتفوه حتى بكلمة واحدة.

إنه الجمعة. ستائر الغرفة، والمدفأة تتوهج بصوت العصافير.

شتاء أبيض خلف النافذة يزجي بردَهُ المشاغب.

قالت مليحة: كل هذه الأسماء، ولا من نتيجة.

قال طاهر: سنجد له اسما في النهاية.

قالت مليحة: إن لم نستطع في اليوم نفسه فلن نستطيع أبدا، أي يوم كان

يا طاهر؟

قال طاهر: يوم ذهبنا إلى الجسر؟

قالت مليحة: كلا، اليوم الذي بعده ذهبنا إلى المستوصف.

في اليوم التالي، لم يأت أحد ليسأل عن الجسد، يوم الاثنين لفوه في قماش خام وأخذوه بزنبيل من المستوصف إلى المقبرة. خارج فناء المستوصف وقف طاهر ومليحة من دون أن يرتديا السواد. تحت سماء لا تطلق سراح الشمس من وراء الغيوم، ولا تبعث رسل الأمطار إلى البشر. الزنبيل يستبدله من يد إلى يد أحيانا، ويضعه على الأرض أحيانا، ويركزه على جذع شجرة مقطوعة أحيانا أخرى. استداروا حول ساحة القرية الصغيرة ودخلوا الشارع الوحيد فيها. أمام المقهى وضع الرجل الزنبيل لصق عمود كهربائي وقف بطول شجرة فارعة من دون أن يكون له أدنى شبه بالشجرة. سكب صاحب المقهى الماء من الدلو. غسل الرجل يديه ثم وقف وشرب قدحا من الحليب الساخن. أشاحت مليحة بوجهها ومرت بالقرب من الزنبيل... شعرت بأن شيئا يرشح من صدرها إلى ثوبها. خفف طاهر وقع خطواته. وقفا أمام منزلهما حتى يصل الرجل ويتقدمهما فيصونا بذلك حرمة التشييع الصامت. بل إنهما وقفا ورمقا شرفة البيت. ما زالت

نافذتها مشرعة بانتظار صوت القطار، وفيها مليحة شابة انحنت لتسقي المزهرية. حينما رفعت رأسها كانت مليحة عجوزا تنضد مزهريات خاوية على بعضها. أزاحت الستار فبانت بقوام بضّ وشعر كث تراخت خصلاته السوداء على كتفيها. مشت مليحة خلف المطر بوجه ممتقع صغير وشعر مخضب هطل المطر بزخات عدة ودخل الرجل المقبرة يحمل الزنبيل. طاهر وزوجته يمشيان فوق العشب بين الأحجار من مغسل الأموات. مراسم الدفن بدت رمادية متربة، وقد طالت حتى تهالك العجوزان على العشب البليل. حينما غادر حفار القبور، كان صوت المسحاة لايزال يوافي الآذان.

قال طاهر: انهضي لنذهب، هيا... قالت مليحة: ساعدني لأنهض.

التصقا ببعضهما. لا يدري من يراهما أيهما ساعد الآخر. ما إن نهضا حتى قالت مليحة: إنه لنا منذ هذه اللحظة، أليس كذلك؟ الآن لدينا طفل مي... حفت بهما شواهد احتضنت أسماء وتواريخ ولادة و..

قالت مليحة: علينا أن نصنع له شاهدا.

قال طاهر: لا بأس

قالت مليحة: علينا أن نختار له اسما.

قال طاهر: ....

قالت مليحة: كان يوم الجمعة. مدفأة الحطب تشتعل بصوت العصافير، ومن الشرفة يوافي صوت همهمة الناس وهم يعودون من آخر الشارع. ضجيجهم حرم طاهر ومليحة من سماع أهازيج القطار تقتربُ وتنأى.

مصطفى مستور
Mostafa Mastoor

ولد سنة ١٩٦٤ في مدينة الأهواز (غرب إيران) وهو مهندس مدني يعمل باختصاصه الهندسي، لكنه حائز في الوقت ذاته شهادة الماجستير في اللغة والأدب الفارسي. خاض في عالم الكتابة سنة ١٩٩٠م وظهرت له أعمال عديدة في التأليف والترجمة، وقد نال عدة جوائز أدبية. أبرز نتاجاته رواية «قَبِّلْ وجه الله المقمر» التي أعيد طبعها سبع مرات خلال أربعة أعوام، تم اختيارها قبل سنتين كأفضل رواية لنيل جائزة القلم الذهبي.

من أعماله الأخرى:

الحب على الأرصفة، مجموعة قصصية، ١٩٩٧

مرتكزات القصة القصيرة، بحث أدبي، ٢٠٠٠

الفاصلة وقصص أخرى، ترجمة قصص كارفر، ٢٠٠١

الظروف وقصص أخرى، ترجمة قصص كارفر، ٢٠٠٣

عدة روايات معتبرة، قصص قصيرة، ٢٠٠٤

وتطبع له حاليا رواية أخرى عنوانها «عظام الخنزير والأيدي المجذومة».



المجزرة

إنني لا أجيد السـحر. لم أفعـل إلا أن مددت روحي الكبيرة الثقيلـة. إنني لا أجيد السـحر. قلت إنك اصبحت شـتاء، ورق قلبـي لك، فسـحبت روحـي التي غـدت كبيرة وثقيلـة عليك كالعبـاءة، ولهجت بأذكار الحب إلـى أن دب إليك الدفء. إنني لا أجيد السـحر. أنفاسك كانت قد تقطعت وروحي كانت تخفق بأنفاسـك. قلت إني أحبك فلم تعودي تتنفسين، وتوقفت روحي عن الخفقان. قلت لنفسـي لعلي قتلتـك أو قد أكون أنا المديت، لذا حسـرتُ روحي عنك، لكنك لم تكن تحتها. كنت قد اختفيت. قلت لكأنني لا أجيد السحر.

حضرة المحترم السـيد يوسـف سـرمدي، الكاتـب والفنان الإيراني القدير...

بعد التحية والاحترام...

لا أزال أعيش الهياج والبهجة لأنني استطعت قبل أسبوعين أن أرى عن قرب كاتبا وأتعـرف عليه. قلت لكل زميلاتي في الصف إنني حينما عدت بصحبة عائلتي من مدينة مشهد إلى طهران كنت معكَ في مقصورة واحدة بالقطار. أيا كان، أرجو أن توفق دوما في حياتك، وأن تسـتطيع إتمـام الرواية التي ذكرت في القطار أنك بدأت كتابتها، بأسرع ما يمكن.

الحقيقة أن سـبب كتابة هذه الرسـالة هو أن أطلب منك كتابا أرجو أن يكون متوافرا في مكتبتك الشخصية.

قال أستاذنا إننا حتى نهاية الفصل الدراسي يجب أن نعد قراءة نقدية تحليلية حول قصص قصيرة منشـورة في كتاب عنوانه «حسرات رسـام الشارع رقم ٤٨» تأليف جروم ديفيد سـالينجر. بحثت عنه في كل المكتبات هنا فلم أجده. اتصلت الأسـبوع الفائت بأخي يونـس، يدرس فـي جامعة طهران، ليبحث لي عن هذا الكتاب في طهران، لكنه هاتفني بعد أيام ليقول لي إنه سـأل كل المكتبات المواجهة لجامعة طهران من دون أن يعثـر للكتاب على أثر. يقـول أخي إن أحد أصحاب المكتبات قال له لا تبحث عن هذا الكتاب لأنه طبع قبل عشرة أعوام وقد نفد.

فجأة خطرت أنت ببالي، أردت أن اكتب لك هذه الرسـالة الأسبوع الماضي، لكنني لم أكن أعلم أين وضع أبي عنوانك بعد أن سجله على علبة سجائره. وقد عثرت عليه أمس في طيات مفكرته الصغيرة. على كل حال أتمنى أن تمتلك الكتاب.

أكرر احتراماتي

مونس فردوس

شيراز، ١٩٩٥/١٠/٤

حضرة السيد يوسف سرمدي، الكاتب والفنان العزيز

أشكرك جزيل الشكر على ارسالك كتاب «حسرات رسام الشارع رقم ٤٨»، ساعي البريد جاءني صباح اليوم بالكتاب. سأحاول قراءته بسرعة وإعادته إليك. ماذا عن الرواية التي قلت إنك أنهيت ثلثها؟ هل يسعني أن أعرف اسمها؟

مونس فردوس

شيراز، ١٩٩٥/١٠/١١

حضرة السيد يوسف سرمدي، الكاتب والفنان العزيز

اعتذر لأنني سآخذ شيئا من وقتك الثمين مرة أخرى، الحقيقة أن استيعاب قصص سالينجر بدا صعبا بالنسبة إلي ولباقي الطلبة، وأستاذ الأدب لا يجيب عن أسئلتنا بل يقول إن هذا عمل بحثي، عليكم أن تذللوا صعابه بأنفسكم. معظم الذين أعرفهم في شيراز لم يسمعوا حتى باسم سالينجر، فضلا عن قدرتهم على فهم المُشكِل من قصصه. في كل الأحوال أبعث إليك جملة من الأسئلة مع هذه الرسالة، وأتمنى أن أحظى كالسابق بمساعدتك وعونك.

م. فردوس

شيراز، ١٩٩٥/١٠/٢٥

الآنسة مونس فردوس المحترمة

بعد التحية

تسلمت أسئلتكِ حول قصص سالينجر. وقد بعثت الإجابات طي هذه الرسالة، لم أكن قد قرأت قصص سالينجر منذ أمد بعيد، لكن أسئلتك شجعتني على اقتناء نسخة من الكتاب من المكتبة الوطنية، وقراءة قصصه مرة أخرى. على كل حال، أنا دوما على استعداد لمساعدة آنسة محبة للأدب مثلك.

اسم الرواية التي أعمل على إتمامها «أسبح في عينيك، أموت في يديك»، مضمونها ملابسات استحالة الحب إلى كراهية. شخصيتها الأولى شاعر يفقد توازنه النفسي بسبب تعرضه لعنف مرير فجائي. ينقلب من شاعر تطفح أشعاره بالحب والعاطفة إلى مجرم محترف. أتمنى أن أستطيع إتمام الرواية في خريف العام المقبل طبقا للبرنامج المرسوم وحسب العقد الذي وقعته مع الناشر.

مع تمنياتي لكِ بالتوفيق

يوسف سرمدي

طهران، ١٩٩٥/١٠/٣٠

حضرة السيد سرمدي

بعد التحية، برؤية خطك تجددت لدي ذكريات الصيف الطيبة، ولاسـيما الطريق الذي قطعناه في جناح القطار من مشهد إلى طهران. استمتعت بإجاباتك القصيرة والدقيقة في الوقت ذاته. أيا كان، سررت جدا لما جاء في الرسالة من سماحك لي بمواصلة المراسلة. هل من الممكن أن أبعث لك رسالة بين الحين والآخر، وأعرض معها كتاباتي عليك؟ أريد أن أستثمر هذه الفرصة التي سنحت لي إلى أقصى حد ممكن.

المحبة لقصصك

مونس

١٩٩٥/١١/٥

حضرة السيد سرمدي

تحية وسلام

انتظرت إجابتك فترة من الزمن ولكن لم يصلني شيء. للأسف، كنـت قد اعتذرت في غرفة القطار عن إعطاء رقم هاتفك، لهذا أراني مضطرة لمتابعة اتصالي بك عن طريق الرسـائل. سـلمت رسـالتي السـابقة قبل ١٤ يوما أي بتاريخ ٥/١١/ ١٩٩٥. كنت قد سألتك فيها هل من الممكن أن أبعث لك بعض كتاباتي لتبدي رأيك فيها؟

علـى كل حال، حيث إن جوابا منك لـم يصل، أبعث لك هذه

الرســـالة مع نموذج من كتاباتي بعنوان «خاطــرة صيفية» تتعلق بلقائنا في القطار، أرجو أن تبعث إلي تقييمك لها إن أمكن ذلك.

خاطرة صيفية

في المدرسة التي كنتُ فيها، كان أول موضوع للإنشاء يطلبونه منا أول الخريف هو: كيف قضيت فصل الصيف؟ معظم الطلبة كانــوا يكتبون صدقا أو كذبا أنهم ســافروا، ويبدأون بشــرح تفاصيل سفراتهم وأحداثها. كتابات أغلب الطلبة كانت تشبه بعضها. والواقع أن كتابات كل ســنة كانت تشــبه بعضها. ومع أن ســنوات طوالا مضت على ذلك العهد، غير أني أشعر لأول مرة بأنني تواقة من أعماق قلبي لأن أكتب ذكرياتي عن عطلة الصيف. الواقع أن ما حدث لي الصيف الماضي لم يختلف عن الســنوات الماضية إلا في شــيء واحد، شيء بسيط جدا، إنه لقائي بأحد الكتاب المغمورين في بلادنا خلال عودتنا بالقطار من مدينة مشــهد إلى طهران، حينما دخلت مقصورة القطار ووقعت عيني على شــاب دون الثلاثين يقرأ صحيفة، هبط له قلبي بشــكل عفوي. شــعرت بأنني أعرفه منذ سنوات طوال. لم أكن قد ســمعت باســمه من قبل إطلاقا، لأنه لم يكن كاتبا مشــهورا، طبع له كتاب واحد فقــط، ويعكف الآن على وضع اللمســات الأخيرة لكتابه الثاني. تحدثنا ساعات عن الحياة، والدين، والفن، والمفاهيم الإنسانية الرئيسية كالحب، والحزن، والتوحد. كلماته كانت تخترق قلبي بقوة عجيبة. شــعرت بأنه يعبر عن أفكاري، وأحاسيســي، وطموحاتي بأفضل ما يمكن.

شفني الوجد لمشـــتركاتنا الروحية، كلماته كأنها مطر تساقط علـــى صحراء روحي الجرداء. شـــعرت بأنني أتذوق لأول مرة في حياتي لغة روحية جد مركّزة. لذة توقفت مع توقف القطار في آخر محطة.

مونس

١٩٩٥/١١/١٩

السيد سرمدي

تحية طيبة

بعثت لك منذ أســـبوعين بإحدى كتاباتي، ولم أتسلم منك أي جـــواب. فؤادي يغلي كالأتون، ربما ســـاءتك كتابة تلك الخاطرة، هل ترانـــي أخطأت؟ إنك أنت تلك الرســـالة، إذا أغضبتك فانا آســـفة جدا واســـتميحك العذر. أرجوك أن تجيبني عن رسالتي هذه وإن ببضعة سطور عسى أن أتحرر من القلق. أنتظر جوابك بفارغ الصبر.

مونس

١٩٩٥/١٢/٣

السيد سرمدي

سلام عليكم

منذ ٤٢ يوما بالضبط لم أتســـلم منك أي رســـالة. لعل هذه الرســـالة الأخيرة التي أكتبها إليك. إن لم ترغب فـــي مراســـلتي فلا أستطيع إجبارك على ذلك. لكنني أستطيع أن أبوح لك بسر،

ربما كان ســماعه ثقيلا عليك بعض الشيء، لكنه سيخفف عني أعباء كالجبال. هل حدث لك أن أحببت شــخصا من أول نظرة ألقيتهــا عليه؟ تماما فــي اللحظة التي رأيتك بهــا في القطار، ضجَّ فؤادي بصخب مــروع، كأنني أضعت عزيزا منذ أمد طويل وعثــرت عليه الآن. قــد لا تصدق، لكنني منــذ أن رأيتك ولحد الآن لم أستطع نسيانك حتى لحظة واحدة. للأسف، أكاد أنسى ملامح وجهك شــيئا فشــيئا، بيد أن صوتك لا يــزال مدويا في مســامعي. ربما كنت قد فطنت بدورك إلى أن كتاب ســالينجر وتلك الاسئلة لم تكن إلا ذريعة للاتصال بك. التعرف عليك كان فرصة وهدية منَّ الله بها علي. أتمنى عليك ألا تبخل عليَّ بهذه الهدية.

مُحبتكَ مونس
١٩٩٥/١٢/١٥

تحية طيبة يا مونس

ليســت كل خاطرة خاطــرة، ولا كل ألم ألمــا ما لم يكمِّش الروح كالورقة. على الخاطرة أن تكون لها روح لكي تبقى حية. عليها أن تكون لها روح لتبقى خالدة إلى الأبد. على الخاطرة أن تحرق وتحيل إلى رماد كما فعلت بي رسالتكِ.

بعد لقائك والتحدث إليك في ذلك القطار اللعين - وليت ذلــك لم يحدث أبدا - اعتراني أنا أيضا شــعور غريب. في

البداية ظننته ضربا من الضيق النفسي الطبيعي الذي يزول مع الوقت. تصورته من تلك المشاعر العابرة التي ينسفها مرور الوقت. حاولتُ أن أنساك، حاولت أن أدس رأسي في الكتب والصحف عسى أن أنسى تلك الساعات التي يبدو أنها تجمدت في دماغي، ولكن دون جدوى. ماذا كان في وجهك البريء حتى اختطف معه قلبي هكذا؟! ماذا كان في عينيكِ الغريبتين حتى سحرتاني في تلك الغرفة اللعينة وفصلتا روحي عن جسدي وأخذتاها معهما إلى شيراز؟ تلاحظين أن حالي ليس أفضل من حالك. الشعلة التي اندلعت في مقصورة القطار شب لهيبها في صدري أيضا. لا أرغب في أن تستمر هذه الحال. فقدت خطيبتي في حادث سير قبل عامين، ولا أريد، أي أنني لا أستطيع أن أخوض بعدها تجربة حب ثانية. كأن هاتفا يقول لي إن خاتمة هذا الحب مهما كانت فلن تكون وصالا. شعور غامض يهيب بي أن أقلع عن هذا الحب. علي الآن تحديدا أن أترك هذا الحب الغريب اللامفهوم. ربما استطعت في وقت لاحق أن أكتب عن هذه التجربة ولكن ليس الآن. يلوح لي أن احتمال أعباء هذا الحب فوق طاقتي.

يوسف

١٩٩٥/١٢/٢٢

تحية طيبة يا يوسف

أود أن أجهش بالبكاء. تستبد بي الرغبة في أن أخرج إلى صحن الدار، أقف تحت شجرة النارنج وأصرخ بأعلى صوتي. كأن شيئا تحول في حلقومي حجرا، ولا يخرج إلا بالصراخ. أريد أن أخبر الجميع أنني أعشق إنسانا لا أعرف شكله بوضوح. حينما أطالع دروسي، أخطّ اسمك دون شعور في أطراف صفحات كتبي ودفاتري. الله كم أحبك يا يوسف. لو علم أبي أنني أكتب هذه السطور إليك، لو علم أنني عشقتُ... ويلاه.. كلا.

يوسف، لا تطلب مني أن أنساك، لا تطلب مني أن أكون مونس التي كانت قبل رؤيتك. أعلم جيدا أن هذا ليس حبا بسيطا. أشعر بكل خلايا جسمي أنني عشقتُ روحك، روحك القريبة الكبيرة. أتوسل إليك ألا تتركني وحدي. لن أتركك وحدك أبدا.

أحبكَ، مونس

١٩٩٥/١٢/٢٩

تحية طيبة يا مونس

مونـــس، مونس، مونس... أود أن أملأ الرســالة كلها بهذا الاســم العزيز الزاخر بالعاطفة، فكلما كررته أكثر همت به أكثر، كأن هذا الاســم يطرق مســامعي لأول مرة. يا له من اسم طافح بالمعاني! أحب أن ألهج بحروفه على عدد اللحظات. أحب أن أكتــب حروفه واحدا واحدا وأســمر العــين عليها: م ون س. كتبت قصة اســم بطلتها مونس. انفجــرت القصة في أعماقي فجأة، ولم أفعل ســوى أن دونتُها. والآن أشــعر بأنكِ ســتظلين خالدة في ثنايا كلماتها. ألا يكفي هذا؟ أبعث لك القصة مع هذه الرسالة. أتمنى أن تروق لك.

نســيت ملامح وجهك تقريبا. مونس الآن بالنسبة إلي هي كل الوجــوه، وليس أيــا منها. أحيل كل وجــه جميل إليها من دون أن أعلــم من أنت وما أنت. هــذا الجهل هو الذي يجعل هذا الحب مفزعا بالنســبة إلي. الشيء الوحيد الذي أشعره مــن أعماق الروح هو أن عليَّ إنهاءه بأســرع ما يمكن. أود أن أنهيــه وهو في هذه الــذروة والجمال والطهــر. أعلم أننا إذا تقدمنــا خطوة واحــدة إلى الأمام فسنخســر كل طهارة هذا الحب وصدقه. أدري أنها مهمة عســيرة. عســيرة على كلينا ولكن يجب أن ننهيها.

أحبكِ، يوسف

١٩٩٦/١/٤

تحية طيبة يا يوسف

ربما كان هذا قدري أن أعشق من لا يريد أن يعشقني، إن كنت أنت الذي تريد هذا، إنْ كان هذا ما ترغبه حقا، فلا مانع لدي. سأحاول، لأنك أنت الذي تريد إنهاء كل شيء. ربما كان بوسع وداع بسيط أن يختم كل شيء. التحدث بهذا يسيرٌ طبعا. إن كان المقرر أن ينتهي الأمر إلى هذه الخاتمة فلماذا بدأ أصلا؟ ليتنا لم نر بعضنا منذ البداية. ليت ذلك الأربعاء ما كان. أي حدث هذا الذي وقع لنا؟ حينما لا أفكر فيك كأنما أضعت شيئا، وحينما أفكر فيك كأن غصة تعلق في حنجرتي. البارحة خرجت إلى صحن الدار تحت المطر، كنت ألهج باسمك مع نفسي. أبتل شادري حتى كأنه نُقِع في حوض الماء. عنَّ لي أنني سأموت ولن تسمع أنت بالخبر. ماذا لو تزوجتُ رجلا آخر؟ ليتني أستطيع ألا أحبك. ليت طوفانا يهب ويأخذ معه كل شيء.

مونستكَ

١٩٩٦/١/١٠

سلاما يا مونستي..

هذا أفضل، وأجمل، وأعظم، وأرقّ، وأشف، وأعشق، وأحزن شيء قرأته في حياتي. حتى لو لم تكوني قد كتبتِ لي أي شيء من قبل، فحسبي هذه إلى الأبد، أمتلئ بقراءتها من محبتك. أمتلئ بمعاني الوداد الطاهرة. هذه أقرب كتاباتك مني. كأنني أنا الذي انتقيت كلماتها بمنتهى الدقة، صقلتها، جلوتها وكتبتها. حتى لو كانت هذه نقطة النهاية لكل ما كان بيننا، فهذه أبهى وأجلّ نهاية يمكن أن تكتب لأي حب طاهر. كلماتها مقدسة بالنسبة إلي لدرجة أنني لا ألمسها من دون وضوء.

مونستي، هذه آخر رسائلي. سأتركك، بيد أن منزلي يحمل أريجك. أكذب لو قلت أنني أطيق فراقك. أريد أن أرويك في قصة. أريد أن أرويك كلّك بأي أسلوب تحبين، متكلم، حكيم علّام بكل شيء، أو أي نمط آخر. قصصي الآن مفعمة بعطر روحك. أنك أنفس فكرة كلما أمعنتُ في كتابتها ازدادت جوانبها غير المطروقة. لقد حرتُ في روايتك. كأنك أنتِ التي تكتبين القصة لا أنا. تأخذينها حيث تشائين، وتغرقين نهايتها بالأحزان. تظهرين دائما وسط سجال الشخصيات في القصة، ثم تعقدين نظرتك في عينيَّ مباشرة، وفي غمرة ذلك الضجيج حيث لا يسمع أحد صوت الآخر، تقولين وأنتِ تبتسمين: أحبكَ، أحبكَ. وفجأة تنتهي القصة.

أحبكِ إلى الأبد، يوسف

١٩٩٦/١/١٧

تحية طيبة يا يوسف

صباح اليوم أحرقتُ رسـائلك. خوفا من والدي. حفظتها من كثرة ما قرأتها. لن أنسـاك أبدا. أمـس أخبرت أمي بالموضوع، فقالـت لي إن الحق معكَ، الأفضل أن ينتهي هذا الحب المتزلزل الأركان. قالت إن الحب في عائلتنا عار على الفتاة. ماذا لو علم أبـوك بالأمر؟ عاهدت والدتي أن أختم المسـألة، لكنني لا أدري إن كنت أستطيع أم لا. أتلِفّ إن شئت الرسائل التي بعثتُها إليك.

سأبقى أحبك إلى الأبد، مونس

١٩٩٦/١/٢٤

حضرة السيد يوسف سرمدي، الكاتب والفنان العزيز

بعد التحية وتمنياتي لك بالتوفيق

أرجـو أن تكون دوما بصحة وسـلامة، حصلت على عنوانك من ناشـر كتبك السـيد كامياب. قال إن أخبارك مقطوعة عنه منذ فترة طويلة ويرجو ألا يكون عنوانك قد تغيّر. أوصى والدي بأن أكتب إليك هذه السـطور مع بطاقـة الدعوة للعرس وأدعو حضرتك للمشـاركة في مراسم عرسـي. تقام المراسم في نادي (مهر) بشيراز على العنوان المدرج أسفل الرسالة. بعثت إليك مع الرسالة بطاقة ذهاب وإياب. لا ريب أن حضورك سيكون مدعاة فخر واعتزاز لي ولعائلة فردوس.

مع الشكر الجزيل – مونس فردوس

شيراز، ١٩٩٩/٤/٢٢

السيدة المحترمة مونس فردوس

تحية طيبة

أعطانـــي الدكتور كيمرام أمس رســالتك. كنا واقفين في طابور الحمام حينما وضع كيمرام الرسالة في جيب قميصي. يقول كيمرام إذا لم نأخذ دشّــا فإن شــياطين رؤوســنا تبدأ بالعربدة. يقول إن ســبب معاناتنا هي عربدة الشياطين. في الليل نســمع صوت القطار.. تــي كوب تي كوب.. تي كوب تي كوب...

لا أزال أتذكرك كلما سحبت فتاة خمار رأسها إلى الأمام. كلما ضحك إنسان انفتح في خديه انبعاجان صغيران. تذكرت خديك. حينما تســتعمل الســيدة الممرضة مــن نفس العطر الذي كنت تستعملينه، أتذكرك. قال كيمرام: «تحرك... واحد اثنان... واحــد اثنان... واحد اثنــان...» دخلنا إلى الحمام. أشــكــرك وأشــكر والــدك الجليل على دعــوتــي. للأســف لا أستطيع الحضور في مراسم عرسك. الدكتور السيد كيمرام لا يسمح لأحد بالخروج من هنا. الدكتور كيمرام انسان طيب جدا. يعطينا كل يوم الشــوكولاته والملبّس. البارحة بكيتُ لأن القطار لم يأتِ...

يقــول كيمــرام إننا محمومون ورؤوســنا تؤلمنــا. يقول إن الحمّام والماء الســاخن فقط يقتل الشــياطين. يقول لابد أن نعمل مجزرة للشــياطين حتى نســتطيع النجــاة. يقول يجب ذبح كل شــياطين رؤوسنا كما تذبح أغنام المسالخ. يقول فقط حينما تذبح كلها، ســوف نكون بحال جيدة ونستطيع الذهاب

حيث نشـــاء. يقول كيمرام: ربما عادت حالنا جيدة بعد مائتي عام. على كل حال اطمئنّي أن تكوني دائما سعيدة وموفقة في حياتكِ.

وقت الغروب - يوسف سرمدي

بـرويز دوائي
Parviz Davaee

ولــد برويــز دوائــي وترعــرع في طهــران. شــرع بالكتابــة منذ أوائل شــبابه، فالتحق بلفيف كتاب الصحف الأسبوعية الصادرة فــي العاصمــة الإيرانيــة، وأبــدى ميــولا واضحــة نحــو الكتابــة الســينمائية. صدرت معظم كتاباته وترجماته خلال تلك الفترة في صحف «نجوم الســينما» و«الأبيض والأسود» وكان لها قراؤها المتابعون.

«الحديقــة» عنــوان قصــة ومجموعــة قصصية لبرويــز دوائى صــدرت عام ١٩٨١ في طهران وتضمنــت أعماله التي أنجزها بين ١٩٧٥ و١٩٨١، ورغــم أن النقاد لم يولوا هذا الإصدار أهمية تذكر، إلا أنه حظي بإقبال واسع من القراء وهواة السينما.

من أعماله الأخرى بعد انتصار الثورة:

- قاموس المصطلحات السينمائية، تأليف، ١٩٨٥.
- السينما برواية هيتشكوك، فرانسوا تروفو، ترجمة، ١٩٨٦.
- فن السيناريو، يوجين اونيل، ترجمة، ١٩٨٦.
- عودة فارس، مجموعة قصصية، ٢٠٠١.
- الحورية الخضراء، مجموعة قصصية، ٢٠٠٤.



الحديقة

في البدء، كان شارع ترابي له على جانبيه ساقيتان عريضتان تجري فيهما الماء دوما. نبتت الطحالب في مياههما. وعلى الجانبين أيضا طابوران من الأشجار المتراصة: أشجار الصنار، أشجار المرّان، والاقاقيا. تمددت أغصان الأشجار وظللت الشارع. ينظر المرء من بعيد، فيبدو الشارع دهليزا طويلا محاطا بالخضرة من كل جوانبه. عصر كل يوم يغسلون الشارع ببراميل ماء كبيرة. ترتفع المياه دلّة دلّة وتهبط على الأرض كالشلال. يثور التراب. تثور رائحة التراب. يتفرع عن الشارع زقاق يمتد إلى زقاق آخر اسمه شهاب أو سروش، مهما كان اسمه فأحد طرفيه مسدود، وطرفه الآخر يمتد إلى الزقاق الواقع خلف المسجد. أحد جانبي هذا الزقاق وهو طويل جدا لم يكن سوى الجدار المحيط بالحديقة. كان زقاقا معزولا مفروشا بالأحجار. ليس فيه دكاكين وأسواق. نادرا ما يمر فيه الناس. أوقات العصر، حينما تغلق المدارس أبوابها كنا نلعب هنا لعبة العجلات والأسلاك. جدارالحديقة كان مرتفعا. من طين وتبن. يرتفع عموديا شامخا إلى الأعلى. في الصيف حينما نمر بجواره كان الجو يبدو ألطف وأطيب.

تطل من فوق الجدار أغصان القوطة، والجوز، والصفصاف الباكي، وأحيانا ورود بيضاء كبيرة. يحدث أن يصعد الأطفال على أكتاف بعضهم ليصلوا إلى أعلى الجدار. ذات مرة سقط حسين (حسين زقاق شيراز) من الأعلى وانكسر رأسه.

بيت زيبا (*) وعائلتها كان داخل الحديقة. ليس داخل الحديقة نفسها. كان للحديقة بوابة حديدية كبيرة ذات مصراعين، خلفها ممر عريض وقصير، ثـم تأتي الحديقة بعده. بجوار هذا الممر، وفـوق البوابة هنالك عدة غرف تسـكنها عائلـة زيبا. أحاطوا الغرف من داخل الحديقة بسور قصير يفصلها عن الحديقة، إلا أن الحديقة كانت بادية من شـبابيك الطابق الثاني. كأنها القمح حـين يخضّر في موائـد النيروز. كانت الحديقة شـدّة خضراء ارتفعت إلى السـماء من دون أن يظهر أصلها على الأرض. فيها ألف نوع من الأشجار: التبريزية، وأشجار الصنار، والأرز وأشجار الفاكهة، التفاح، الكمثـرى، الخوخ، الرمان، التين، العنب الكبير، التـوت، الكرز، القوطة، التفاح. وسـط الحديقـة هناك حوض دائري كبير في وسـطه نافورة تقذف مياهها إلى اخدود محيط بالحـوض. نمت على الحوض أوراق عريضـة لها أوراد بيضاء. الضفـادع كانت تقف عليها وتنقنـق، لكنها تقفز إلى الماء مع أي حركة حولها. عطر الزهور في صحن الدار يلعب برأس الإنسان أوقات العصر: ورود المحمدي، وورود الراسـقي، وورود الآس. ثمة متسـلقات صعدت الجدار إلى الصحن. وورودها صفراء تشـبه الأجراس الصغيرة.

زيبا كانـت زميلتي في المدرسـة. أخوها صديـق أخي. في البداية كنت أذهب إلى المدرسة التي كانت تذهب إليها شقيقتي. كانت مدرسـة مختلطة. فـي آخر زقاق «درختي» بعد مسـجد «سادات». أختي كانت في الصف الرابع. كنا نذهب ونعود سوية.

(*) اسم فتاة فارسي بمعنى: جميلة.

لم أكن مجدا في الدراسة. لم أستطع التعلم مهما حاولت. خلطوا بين الطلاب الكسالى والطلاب المجدين لتتحسن حال الكسالى ويتعلموا من زملائهم شيئا. كنت أجلس آخر الصف. طلبوا مني أن أذهب وأجلس بجوار زيبا في أول الصف.

لم أفعل ذلك أولا، قلت إنني مرتاح هنا. لكنني انتقلت بعد ذلك. فتحت كتابي. درسنا «المنجل - السلة». أملت عليَّ زيبا. كتبتُ: ذلك الرجل لديه منجل. ذلك الرجل لديه سلّة. لم أكن أجيد كتابة «ل». كنت أكتبه كمنقار طائر. كتبته لي زيبا بخط فاتح جدا عدة مرات، وكتبت على كتابتها. بعد ذلك أمسكت بيدي وتحركت بها على مهل من الأعلى إلى الأسفل. كتبتُ «ل» كتبت منجل. كتبتُ ذلك الرجل لديه رمان في السلّة. ثم قالت: اكتب بنفسك الآن. كتبتُ رمان. قالت اكتب منجل. قلت لها لأتعلم كتابة «رمان» أولا. ضحكت زيبا. حينما تضحك تصغر عيناها بشكل محبب. عيناها كانتا بُنيّتين الصقت على كتابها صورا طباعية لارنب، وفراشة، وقطة صغيرة حمراء في عنقها جرس صغير. أريتها ريشة بيضاء في طيات كتابي. ريشتي كانت نائمة وسط الكتاب. لمستها زيبا برفق. ثم قالت يجب ألا نمسها لكي لا تستيقظ. أغلقنا الكتاب. كتبتُ سلّة. كتبتُ ذلك الرجل. كتبت زيبا منجل. كانت ظفرت شعرها وشدت ظفائرها بشريط أحمر. سلة. رمان.

شقيق زيبا كان زميل شقيقي في الصف. عيناه مثل عيني زيبا. أوقات العصر كان يأتي مقابل بيتنا ينادي على أخي بالصفير. أنا وأخي نذهب عصر بعض الأيام إلى بيت زيبا. بابهم مستقل

عن باب الحديقة. كان بجوار باب الحديقة. كان هناك ممر ينعطف لينتهي إلى صحن الدار. ومن الجهة الأخرى يفضي إلى درجات تصعد إلى فوق حيث توجد غرفتان أو ثلاث.

إلى جانب الجدار في الصحن وضعوا سريرا يلقون فوقه تورا يقي من الحشرات في الأمسيات. مدوا سلكا ينتهي بمصباح فوق الحوض. أرضية الحوض مرصوفة بالكاشي الأزرق. مياهه صافية كدموع العذارى. في وسطه نافورة. في رأس النافورة كرة منضدة. وضعوا داخل الحوض شدات من الخس وتفاحا. نذهب أنا وزيبا عند الحوض. كنت أنقر في الماء لأثير صوته. قُلُّب قُلُّب. تتقدم السمكات على أثر الصوت. رصفوا في الأخدود المحيط بالحوض طابورا من الليموناد. ليموناد الكرز، ليموناد أبيض، ليموناد أصفر. في رأس بعض الليمونادات دوائر بلورية (تيله) من تلك التي نلعب بها. كانوا قد ألقوا تفاحا داخل الحوض. أمها كانت تقشر لنا الخيار. تقتطع من الخيار قشورا سميكة. تشق كل خيارة أربعة أشطر وتضعها أمامنا.

زرعوا في حديقتهم الخضراوات. هنالك نوع من الورد اسمه «ورد الزعل» ينكمش حينما نرش عليه الماء. هنالك شجرة رمان تشققت رماناتها. حباتها تتلألأ تحت ضوء المصباح. جدة زيبا كانت لها شوارب. تتوضأ في الحوض. وتصلي على السرير. يغلبها النوم على سجادتها، فيمددون عباءة الصلاة عليها. شدت زيبا أرجوحة لدميتها في حديقتهم الصغيرة. اسم دميتها السيدة فرخُنده (*). عيناها زرقاوان. كنا نحمِّر خديها بورد الشقائق.

(*) اسم نسوي فارسي بمعنى مباركة.

كان لي قلم خشبي نصفه أحمر ونصفه الثاني أزرق. نرسم به بيتا بمدخنة وشجرة.

في بيت زيبا قطة بيضاء في عنقها شريط أحمر. ولدت لتوها. صغارها كانوا في زاوية المطبخ. أحيانا تأتي إلى حضن زيبا. نضع أيدينا على عينيها ونأتي لها بالحساء. تنام ويرتفع صوت شخيرها. لتتفتح عيون صغارها بعد. كانوا في المطبخ. كان لزيبا سماور وأكواب وصحون صغيرة. زرقاء اللون. بلون جفان شرب الماء. كانت تخدر الشاي. شايها كان باردا. تكسر لنا السكر الجامد حبات صغيرة نأكلها مع الشاي. ونأكلها أحيانا بلا شاي.

قد نصعد في بعض الأحيان إلى الطابق الثاني. الحديقة بادية من الشبابيك. الأشجار من الكثافة حتى إننا لا نرى لها نهاية. تمتد مع امتداد البصر. أشجار عالية، أشجار الحور، أشجار الصنار، كل أنواع الشجر. ما بين الأشجار كانت هناك حدائق وزهور، مئات الأنواع من الزهور بما لا يحصى من الألوان. ورد الجوري، ورد المحمدي، ورد الآس. بجانب الجدار من أقصاه إلى أقصاه شيدوا مشبكة خشبية للعنب. عناقيد العنب متدلية منها كالمصابيح. صاحبها ينصب السلم أحيانا ويصعد ليقتطع العناقيد بالمقص ويجمعها في سلّة. صاحبها كبير السن ناعم القوام نحيف الجسم. شعره كله أبيض. يلقي على كتفيه عباءة، وعلى عينيه نظارات. ويتجول في الحديقة باستمرار. ينحني دائما في الحدائق الصغيرة ليقوم بشيء ما. يقتلع الأدغال. يقلم الأغصان. يمسك الورود أحيانا بين أصابعه ويشمها. يبدأ تجواله

فــي الحديقة مـــن الصباح الباكر. كان له عــدة دجاجات وديكة يتبعونـــه بأصواتهم أينما ذهب. في آخر الحديقة عدة غرف: له ولفلاح الحديقة ولعائلة الفلاح. يقولون إنه من الأعيان القدماء. أبناؤه لا يعيشون معه. لهم بيوتهم في مكان آخر. لم يرغب في أن يعيش معهم. لم يســتجب للإقامة عندهم رغم إلحاحهم. أبناؤه يأتون لزيارته أحيانا. أحدهم ضابط له سيارة شخصية.

يطلقـــون الماء في الحدائق الصغيـــرة عصر كل يوم. أنا وزيبا نتفرج من الشباك. الرجل الكبير يأتي أحيانا ليجلس على حافة الحـــوض. يرش الماء على الأوراق والزهـــور. أحيانا يمد يده في الماء وينقر ســطحه، تتقدم إلى الأمام. نضحك أنا وزيبا. يلتفتُ فنختبئ لكـــي لا يرانا. يبعث الزهور لبيـــت زيبا أوقات العصر: ورد الجوري، ورد الآس. نخيط أنا وزيبا ورود الآس ونصنع منها قلادة، تلبســـها زيبا في عنقهـــا. والدتها تضع الورد الجوري في مزهرية على المدفأة. في غرفتهم صورة مؤطرة للملاك جالس على أرجوحة. ذلك الرجل عنده منجل. كنت أكتب واجباتي في بيتهم أحيانا. بعدها نرســـم مناظر للأشجار، والشمس، والقطة. رسم القطـــة كان صعبا. تبدو أحيانا كأنها خـــروف. بعد ذلك نجلس إلى الشباك ونقذف رسومنا في الهواء. حينما نترك الأوراق في الهواء تنحدر إلى الأسفل قليلا. ثم تهب النسائم أسفلها فترتفع وتطير إلى الأعلى وإلى الأعلى. تعلو حتى الأشجار. ترتفع وتبتعد إلـــى أن تغدو نقطة صغيرة كالخال. كان عندي قطعة بلور أنظر من خلالها لشـــيء فأراه فيها مائة شيء. نديرها فتتغير ألوانها. أعطيتها لزيبا. كانت لزيبا صفّارة خشبية أعطتها لي.

حينما تهب الرياح نسمع حفيف الأشجار. كقصة الغول الصحراوي التي ترويها جوهر. تدور الأوراق في الهواء وتتساقط إلى الأرض تتلوى عند أقدام الأشجار. أوراق صفراء، أوراق حمراء. يجمعها الفلاح في بعض الأيام بالمذراة. يصنع منها تلا ويحرقه. يتصاعد الدخان بين أغصان الأشجار. رائحته طيبة جدا. يستمر تساقط الأوراق. تتعرى الأغصان. كانوا قد قطفوا الثمار. لم يبق منها إلا بعض التفاحات في الأعالي. كأشجار الحكايا القديمة تمتد كل يوم يد لتقطف ما تيسر منها.

أصبح الجو باردا أوقات العصر. تعذر الجلوس في الصحن. نقلوا الأسرة من هناك. كانوا ينامون في الغرف. تتشح أعالي الأشجار بالسواد وقت الغروب من كثرة ما يحط عليها من الغربان. نعيبها يملأ الفضاء. صغار القطة بدأت تدب على الأرض وتكبر. في الأمسيات حينما نكتب واجباتنا يقفز بعضها ويخمش رأسا لقلم فتجري خطوط عبثية على دفاترنا. زيبا كانت تحب قطة خالصة البياض من هذه الصغار. قالت والدة زيبا حينما تكبر سأعطيك إحداها. لكنها ما زالت ترضع اللبن. قالت والدتها إذا فصلنا الصغار عن أمها الآن فستزعل وتغادر وتموت الصغار.

بعد ذلك اشتدت برودة الجو جدا. حينما أخذ الصقيع بالهطول مرضتُ وشعرتُ بألم في حنجرتي. قالوا يجب ألا أذهب إلى المدرسة لأن المرض معد وسائر الأطفال سيصابون مثلي. مكثت في البيت مدة من الوقت وإذا بزلزال يضرب مدينة جرجان. شقيقتي وزوجها كانا في جرجان. أخذتني أمي إلى

جرجـــان وبقينا هناك فترة من الزمن. حينما عدنا لم يســـمحوا لي بالرجوع إلى المدرســـة. قالوا إنك تأخرت كثيرا. نقلوني إلى مدرسة أخرى. طريقها بعيد. في الجهة الأخرى من العالم. قلت إنني أريد العودة إلى مدرســـتي الســـابقة. قالوا لا بأس في هذه المدرســـة أيضا. تذهب وتأتي مع أخيـــك. كانت في أماكن بعيدة ومحلات غريبة. ألحقونا بهذه المدرسة وحلقوا رؤوسنا. في اليوم الأول كان عندهـــم اختبار. أخذوني إلى الســـبورة. لم أكن أجيد الـــدرس. وضعوا قلما بين أصابعي ثـــم بعثوني إلى المعاون. قال المعـــاون: لماذا لم تحفظ الـــدرس يا ولد؟ قلت له أريد العودة إلى مدرستي. صفعني بقوة على وجهي.

لـــم نبـق فـــي هـــذه المدرســـة. طريقها بعيد. ساحتها ضيقة. لا أشجار فيها. يضربون الطالب على أبسط شيء. إن لم تحفظ الدرس ضربوك. إذا طيّـــرت غربانا ضربوك. إذا رفعت صوتك ضربوك. لا يسمحون لنا بأن نلعب لعبة الحيوانات. ولا يسمحون بـــأن نلعب فـــرق إنقاذ. خلال فترة الاســـتراحة بين الدرســـين يقولون اجلســـوا طابورا إلى الجـــدار. ومن كانت لديه حاجة، إن أراد شـــرب ماء أو الذهاب للمرافق، فعليه أن يســـتأذن أولا. إذا ذهبنا بلا استئذان ضربونا. ذات مرة لا أدري من صفّر في فترة الاستراحة. أوقفونا جميعا في طوابير، وفتشوا جيوبنا. أخرجوا مـــن الطوابير كل من عثروا على صفّـــارة في جيبه. جاء المعاون وضرب الجميع بعصاه. كان نصيبي ســـت ضربات. يشتعل باطن الكف نارا. المعاون يمســـك بعصاه في يده دائما. يسب الطلاب سبابا مقذعا.

حينما انتهت الامتحانات في تلك السنة. خربوا الشارع في الصيف. خربوه من أوله إلى آخره. قطعوا كل الأشجار. أشجار الصنار، أشجار التوت التي كنا نلقي أوراقها أمام دود القز. قطعوها كلها. قالوا نريد تبليط الشارع. والحديقة باعوها. أصيب صاحبها بالجنون في أواخر أيامه. تقول أمي دسوا له شيئا في طعامه. ذهب أولاده وأخذوا شهادة جنونه. انتزعوا الحديقة منه وباعوها. ثم خربوها قطعة قطعة. قطّعوا أشجارها كلها وشيدوا مكانها بيوتا بجوار بعضها. تغير شكل الزقاق إلى غير ما كان عليه. جاء أناس آخرون فيه.

الرجل المسن صاحب الحديقة يظهر في المحلة إلى الآن بين حين وآخر. أصبح الآن كبيرا جدا. يمشي ببطء شديد وظهر محدودب. يهيم على وجهه على غير هدى في الشوارع والأزقة. أحيانا يقف ويحدج في الجدران والأبواب بنظرات غريبة. الأطفال يضحكون عليه. الكسبة يعاكسونه. يحدث أن يُوقفَ العابرين أمام باقي الناس ويقول لهم بحيرة: كانت هنا حديقة. أين هي؟ ألم تصادفوا حديقة في هذه الحوالي؟.

منصورة شريف زاده
Mansoreh Sharifzadeh

ولـدت عام ١٩٥٣ في العاصمة طهران. حصلت على إجازة في اللغة الإنجليزية وماجستير في الأدب المقارن. تعمل حاليا في مركز دراسات العلوم الإنسانية. تدور كتاباتها في عالم القصة والرواية وتكتب في مجال أدب الأطفال كذلك وتترجم أحيانا من الأدب الإنجليزي.

من أعمالها المنشورة:

المولود السادس(مجموعة قصصية - ١٩٨٤)، مكحلة البلور (مجموعة قصصية - ١٩٩٥) عشرون قصة لعشرين كاتبة إيرانية، قصص الأشباح لكتّاب عالميين (ترجمة)، عطر النسكافيه (مجموعة قصصية - ٢٠٠١)، شجرة الصنار(رواية - ٢٠٠٢، فائزة بجائزة بروين اعتصامي للإبداع الأدبي)، قاموس المصطلحات الأدبية في اللغة الإنجليزية، قصص للأطفال والناشئة في عدة كتب.

شتلة ورد الحرير

وقفت مهرآسا عند باب الغرفة: «لو كانت فيك ذرة من الحميّة، لما تركت ذلك الصعلوك يتجرأ على الظهور ها هنا... يا رجل، إنها ابنتك الوحيدة التي تكاد تموت بغصتها».

مسح مشكور زاده المنديل على أخمص البندقية. تابعت مهرآسا: «لا تبالي أبدا، لا تزال كما كنت في شبابك لا تفكر بغير الصيد...».

رفع مشكور زاده رأسه، وحدج مهرآسا بنظرة ثاقبة من عينيه الصغيرتين. لكنه لم يقل شيئا. قالت مهرآسا: «طبيعي ألا تبالي، لست أمّا على كل حال...».

أوقف مشكور زاده المنديل على البندقية: «ألا يمكنكِ إغلاق فمكِ لحظة؟»

«كلما تكلمتُ بالحق، لم تجد غير هذا تقوله».

«الحق... الحق... لقد كررت هذا الحق حتى صرت طائر الحق (أم اويق، الخبل، طائر يشبه البوم).

لوت مهرآسا عنقها لترى وجهه أفضل. لم تصدق. كأن عيني مشكور زاده دامعتان. قالت: «طيب، أعلم أنك كافحت أكثر من أي شخص آخر. ولكن لو ذهبت أنت إلى المحكمة بدل ذلك المحامي، ربما أجداك ذلك نفعا... لا أدري، ربما أشترى ذلك المحامي الصعلوك... هل من العدالة أن يأخذوا طفلة عمرها سبع سنوات من أمها ويعطوها لزوجة الأب؟».

ضربت الرياح مصراعي الشباك بقوة. ركضت مهرآسا وسحبت الستائر إلى الداخل وأغلقت الشباك. في الحديقة،

كانـــت شـــتلة ورد الحرير ترتجف بشـــدة. التفتت مهرآســـا إلى مشـــكور زاده: «كم مرة يجب أن أقول. ضع خشبة طويلة بجانب وردة الحرير هذه... ألا تحبها؟».

كأن مشـــكور زاده لم يســـمع قولها. كان منحنيا على بندقيته ينظف أنبوبها بســـيخ حديدي. يبـــدو أنحف من أي وقت مضى. لكن وجهه كان هادئا.

سُمع صوت باب العمارة يُفتح ويُغلق. بعد هنيئة دخلت نادرة. ســـلّمت وســـارت إلى غرفتها. قبضت مهرآسا على طرف ثوبها المورّد بعصبية: «طفلتي ذاب نصفها خلال هذه المدة».

ســـمعت صوت بكاء نادرة، رفع مشـــكور زاده رأسه: «بدل أن تقفـــي هناك وتولولي، اذهبي وقولي لهذه الطفلة لا تولولُ هكذا قبل أن يموت أبوها».

أمسكت مهرآسا بمقبض الباب «اووه، لِمَ تتكلم هكذا، تقذف الفزع في القلب».

سمر مشكور زاده عينيه البنيّتين عليها للحظات دون أن ينبس ببنت شفة. كانت مهرآسا تسمع صوت أنفاسه. قالت بهدوء: «أنتَ كل أملي... عليك أن تصبر وتقاوم... عليك أن تمنح الشـــجاعة والجرأة لهذه الطفلة أيضا... هل تفهم؟».

لم يعد صوتها حادا ولامعنِّفا. كان هادئا. نكســـت رأسها إلى الأسفل. وسارت بخطوات بطيئة إلى غرفة نادرة.

كانـــت نادرة قد خلعت حجابها، وارتـــدت ثوبها المقلم بالنيلي والرمادي الذي خاطته توا. قالت مهرآسا: «لا تلوثي دمكِ، شيء قد حصل».

رفعت نادرة رأسها: «هل تريدينني أن أعطي طفلتي؟ بهذه السهولة؟»

سمع صوت باب الكراج يُفتح. نظرت نادرة من الشباك إلى الخارج: «أبوها يهم بالذهاب».

رفعت مهرآسا كتفيها إلى الأعلى: «لايفكر في غير الصيد. وبعد كل هذه السنوات التي لم يلمس فيها بندقيته».

سمعتا صوت محرك السيارة ثم صوت باب الكراج يُغلق.

جلست نادرة على طرف السرير، تقدمت إليها مهرآسا ووضعت يدها برفق على كتفها: «لا بد أنك تتذكرين معارضتي لهذا الزواج منذ البداية».

«لكنك لم تذكري ذلك صراحة يوما ما».

«من أول مرة رأيته أدركت أنه مغرور أكثر من الحد الطبيعي. حينما لم ينهض لوالدكِ، كنت قد تيقنت من ذلك».

«أماه... أماه... لقد عملنا معا في شركة واحدة أربع سنوات... وما يدريني أنه سيتغير هكذا بعد الزواج».

«اسمعي، الرجال يحبون المرأة المغناج المتدللة. تتظاهر بأنها تحتاج إليهم... انظري إلى زوجة عمكِ، تختلف عني اختلاف الأرض عن السماء... طيب، هي محظوظة جدا. ما الذي يجعل عمكِ يحبها هكذا، لأنها لا ترد عليه كلمته».

«البنات المدللات لم يكنَّ قليلات في المكان الذي عملنا فيه. كان بوسعه أن يختار واحدة منهن. لماذا جاء نحوي مباشرة؟... لأنني على حد تعبيره لم أكن أقل من الرجال».

قالت الأم وهي تفرقع أصابعها: «أراد أن يتزوج فتاة طاهرة

ويضعها في علبة المرآة. هذا ليس إلا».

«كلا أبدا... حينما عيّنني المدير العام مشـــرفة على القسم، بدأ معارضاته».

نظرت مهرآسا إلى عينيها السوداوين تتحركان بسرعة. قالت: «بالله عليك لا تدمري نفســـك هكذا، ليتك نظرت لنفســـك في المرآة. ها قد عاودك مزاجكِ العصبي... كوني صبورة، ســـنجد حلا بالتالي».

اتجهت إلى الشباك: «ستأتي ياسمين الآن... قومي واغسلي وجهكِ...».

«أمـــاه، إنني لم اتجرأ بعد على إخبار ياســـمين... قولي أنت بربك ما عساني أقول لها؟».

سحبت حقيبة سوداء كبيرة من تحت السرير. مسحت وجهها بيدها، وفتحت صوان ياسمين ووضعت ثيابها الحمراء والزرقاء في الحقيبة واحدا واحدا. قالت مهرآسا: «كل من كان مكان هذا الرجل لحطّم له أضلاعه».

قالـــت نادرة: «لو أظهر أبي نفســـه مرة واحدة فقط، لما تجرأ ذلك الصعلوك أن يتقدم».

جلست مهرآسا على حافة السرير ووضعت يديها في حضنها. رصفت نادرة كل ملابس ياسمين في الحقيبة. ولفت صورة مؤطرة لياســـمين في طفولتها داخل كيس بلاســـتيكي وأرادت دسها في الحقيبة، وإذ بمهرآسا تقول: «ولماذا تضعين هذه أيضا؟».

قالت نـــادرة: «لا أريد أن أراها، ســـيتجدد مأتمي كل يوم... كأنها تقول لي كل يوم... لماذا تركتموني يا جبناء»...

وانفجـرت عبرتها، أخـذت مهـرآســا الصـورة وأخرجتها مــن الكيس: «لو لــم يكن شــعرها أحمر لكانــت كطفولتك بالضبط».

قبّلت الصورة ووضعتها على الرف: «أعطيك أقراطي الياقوت هذه، ضعيها في أُذني ياســمين، ليكن لطفلتي ذكرى من جدتها على الأقل».

وقفــت أمام المــرآة: «انظري كيف امتــلأ حاجباي. أصبحت كالأرامل... ذلك الصعلوك لا يدعنا نعتني بحالنا».

مســحت نادرة دموعها بظاهر يدها. قالت مهرآســا: «سوف تهلكين نفســك... الطفلــة تتكيف مع الآخرين بســرعة. قومي واغسلي وجهك. عيناك أصبحتا جفنتي دماء... ستأتي ياسمين الآن... إذا رأتك هكذا ستفزع».

مســحت نادرة أصابعها الطويلة الظريفة على ثوب الدانتيل الأبيض الذي خاطته لابنتها لحفــل عيد ميلادها، والتفتت إلى والدتها: «ليس لها من العمر غير سبع سنين».

لــون وجهها كان مخطوفا أكثر مما كانــت عليه في الصباح. قبضت مهرآسا بغضب على طرف ثوبها وزمّت شفتيها.

فجأة سُمع صوت باب الكراج يُفتح. قالت مهرآسا: «ما أسرع ما عاد أبوك».

اتجهت نادرة إلى الشــباك: «عاد أبي، ولكن يبدو أنه لم يصد شيئا... لا، أغلق باب السيارة، لكن يديه خاليتان».

«كنت أعلم... عيناه ما عادتا تسعفانه... سيكون نار الجحيم علينا»... وخرجت من الغرفة.

أسند مشكور زاده بندقيته إلى الجدار وخلع جزمته البنية من قدمه. كان يصفر كما في شبابه. قالت مهرآسا: «بخ لك على برودة أعصابك!».

نادرة كانت تبكي وهي تسحب الحقيبة الثقيلة من غرفتها إلى الصالة. خلع مشكور زاده جزمته الأخرى وانتصب واقفا. انتزع منديلا ورقيا ومده نحو نادرة: «خذي يا ابنتي... امسحي دموعك.. خذي يا حبيبتي».

أعرضت بوجهها المحمر من البكاء، وتابعت سحب الحقيبة من دون أن تنبس بكلمة. هز مشكور زاده رأسه وقال «لا تبكي يا ابنتي. يجب ألا تبكي بعد الآن».

ضحك وهو يقول كلماته. لكنه سرعان ما ابتلع ضحكته، وأمسك مقبض الحقيبة. نظرت مهرآسا إلى نادرة. رفعت نادرة كتفيها إلى الأعلى وجففت وجهها بالمنديل. وضع مشكور زاده الحقيبة في جانب من الغرفة. انحنت مهرآسا وأخذت الجزمتين.

صرخ فيها مشكور زاده: « دعيها هناك».

سقطت إحدى الجزمتين من يدها، سألته: «أين تريد أن تذهب أيضا؟».

«إلى الجحيم».

محمد شريفي
Mohammad sharifi

ولـد عام ١٩٦١ فـي قرية بهرمان، من توابع مدينة رفسنجان التابعة لمحافظة كرمان(جنوب شرق إيران) حاز ماجستير في اللغة والأدب الإنجليزي. يسكن مدينة كرمان ويعمل في مجال التأليف والترجمة. ويكتب القصة والرواية والشعر وقصص الأطفال كذلك.

تحتوي قائمة أعماله الإبداعية على:

حديقة الرمان (قصص).

جندي أول آمين (رواية).

سقوط الريش في المطر (شعر).

صمت الإله (شعر تحت الطبع).

أساطير الهنود الحمر في أمريكا (ترجمة).

أما مؤلفاته في مضمار الطفل فهي:

مذكرات قطة فنتازية.

القطية ودمية سارا.

أحلام الجنة.

الأحوال

عندما دخل المعلم العجوز إلى الصف، صاح التلميذ الوحيد النائم بين الرحلات (*) : «قيام!».

وبعد لحظات عاود الكرَة فصاح بصوت ناعس: «جلوس!».

وضع المعلم العجوز دفتر الحضور والغياب خلف النافذة الخشبية لبس نظارته الطبية نظر في قائمة الأسماء ونادى: الأبنوسي. صاح التلميذ الوحيد في الصف:

- غائب.

- على براتياني!

- حاضر!

- جلال الدولئي»!

- أستاذ! من هنا إلى آخر الأسماء كلهم غائبون.

أمعن المعلم العجوز في دفتر الحضور وسأل:

- إلى أين ذهبوا!

كان في صوته جفافا وامتدادا. تثاءب علي براتياني، التلميذ الوحيد في الصف، وقال:

- ومن يدري!

أغلق المعلم العجوز دفتر الحضور واتجه نحو السبورة، كتب وسط قسمها الأعلى «درس اليوم».

لم يكن في ساحة المدرسة أي تلميذ ليقف قرب سارية العلم المصنوعة من خشب الشجر ويصيح بأعلى صوته «جميعنا نعرف

(*) المقاعد التي يجلس عليه طلاب المدرسة.

أن المعلم هو أبونا الثاني والمدرسة هي بيتنا الثاني»!

خرج التلميـــذ الوحيد علي براتياني من بين الرحلات وجلس على المصطبة الأولى مركزا انتباهه. كان المعلم يلعب بالطبشـــور الأبيض بين أصابعه. اقترب من النافذة وألقى من خلال الزجاج المتكســـر نظرة على الســـماء، ثم حول نظره إلـــى علي براتياني وقال:

- لا أعتقد أن السماء ستمطر اليوم.

كان علي براتياني قد فتح دفتر واجباته وكتب أعلى الصفحة « درس اليوم» والآن أخذ يكتب في الســـطر الأول: «لا أعتقد أن اليوم ستمطر».

اقتـــرب المعلم العجوز ثانية من اللوحة وكتب تحت درس اليوم عبارة «لا أدري ماذا دهاني اليوم»!

كتب علـــي براتياني في دفتر واجباتـــه «لا أدري ماذا دهاني اليـــوم». بعد هنيهة من التفكير قال المعلـــم العجوز مخاطباعلي براتياني التلميذ الوحيد:

- في أيّ صف أنت؟

كتب علي براتياني في دفتر واجباته «في أي صف أنت؟»

قال المعلم العجوز:

- أعتقد أن اليوم هو الاثنين، ولا أظن أنها ستمطر اليوم.

اقتـــرب من النافذة، رأى من خلال الزجاج المتكســـر شـــجرة تتوسط ساحة المدرسة وكانت تنحني أمام الريح الصباحية. على مقربة من الشـــجرة الوحيدة لو نظر أحد ما بإمعان لكان سيرى صبيـــا وضع يده في جيـــب معطفه الطويل بين شـــفتيه صفارة

الشـــرطة يطلقها باستمرار، بالقرب من الصبي كانت سلة مليئة بـــالأوراق المبعثرة كتب عليها التلاميـــذ واجباتهم وأبعد من ذلك بقليل، ومن مكان كانت تبدأ منه جدران المدرســـة، كان يتســـنى للمرء رؤية طائرة ورقية تبتعد في السماء الدخانية اللون يتعقبها صـــوت بكاء طفل يأتي من الأزقة البعيدة. عاد المعلم العجوز إلى اللوحة وكتب عليها بالطبشـــور الأبيـــض «لا يوجد كلام للتحدث به».

كتـــب علي براتياني التلميذ الوحيد في الصف «لا يوجد كلام للتحدث به».

لم يكن يُسمع من الممر صدى لأقدام المعاون العبوس، ولا حتى صوت الضحكات الوضيعـــة للمدير، تذكر المعلم العجوز أنه كان دائما يصـــف المدير بصاحب الضحـــكات الوضيعة. والأكثر من ذلـــك، لم يكن يأتي لا من الممـــر ولا من أجواء الصفوف الأخرى صوت تلميذ يقرأ فـــي كتاب القراءة وصوت المعلم يصيح بتلميذ «أيها الحمار اجلس مكانك واصمت» نظر المعلم العجوز إلى باب الصـــف المغلق. ذكر أنه هو الذي أغلق الباب خلفه عند الدخول. اتجه نحو النافذة وضـــع التلميذ الوحيدعلي براتياني قلمه على دفتر واجباته وبـــدأ يتمتم بصوت خافت تهويدة تقول «نـــم، نـــم، يا وردة البطنج».

نظـــر المعلم العجوز من خلال شـــقوق الزجاج المتكســـر إلى ســـاحة المدرسة ثانية: كانت الســـماء دخانية اللون. كان الصبي الواضع يـــده في جيبه يطلق صفارته باتجـــاه الصف وكان بكاء الطفل في الأزقة البعيدة ما زال يتعقب طائرة الورق. إضافة إلى

ذلك، فالشجرة الوحيدة الظمآنة مازالت منحنية بأغصانها أمام الريح. عاد المعلم العجوز! وقف قرب السبورة أراد أن يكتب شيئا ولكنه سأل مرة أخرى:

- في أي صف أنت؟

كتـــب علي براتياني في دفتــــر واجباته بلا تلكؤ «في أي صف أنت»؟!

كان هنـــاك صمت جنوني يســتولي على أجــواء الصف. كان المعلم العجوز يعتقــد أن الصمت هذا قد أحاط الآن بكل أجواء المدرسة. وفي لحظة طغى الغضب عليه فصاح بصوت عال «أيّ مكان هذا»؟

وكتب علـــي براتياني من دون أن ينبس ببنت شـــفة في دفتر واجباته «أيّ مكان هذا؟».

فكر المعلم العجوز في نفسه «هذا سؤال مبهم» فصاح موضحا «أعني هل هنا مدرسة أم مكان آخر؟».

كتب علي براتياني في دفتر واجباته موضحا الســؤال «أعني هل هنا مدرسة أم مكان آخر؟».

كان المعلـــم العجوز محرجا. اتجه ثانيـــة نحو دفتر الحضور، فتح الدفتر وقرأ أسماء التلاميذ من جديد:

- الأبنوسي

وضع علي براتياني قلمه على دفتر واجباته وقال:

- غائب.

- علي براتياني؟!

قال علي براتياني:

- حاضر!

- جلال الدولئي؟!

قال علي براتياني بسكينة:

- من هنا إلى آخر الأسماء كلهم غائبون.

سأل المعلم العجوز ثانية:

- إلى أين ذهبوا؟

قال علي براتياني بسكينة:

- ومن يدري؟!

أغلق المعلم العجوز الدفتر واقترب من اللوحة. أخذ المسحة التي صنعها التلاميذ من قبعات والد أحدهم ومسح بها السبورة. فأخرج علي براتياني المسّاحة من جيبه فورا ومسح بها كل ما كتبه في دفتر واجباته ببطء. لم يكن يُسمع أي صوت من أي مكان من المدرسة. فكر المعلم العجوز في نفسه أنه استيقظ كالعادة بدقات ساعته صباحا إذن إلى هنا لا يوجد أي خطأ. بعدها مارس بعض التمارين الرياضية الصباحية. أخذ فطوره وسلك الطريق نفسه الذي يأتي منه كل يوم. المهم أن عينيه لا تخطئان وعلى أي حال حتى وإن أخطأ هو فعلي براتياني لا يمكن أن يخطئ. وبغض النظر عن كل هذا إذا لم تكن هنا مدرسة فما هذه السارية والعلم؟

صرخ فجأة:

- هنا مدرسة!

كتب علي براتياني في دفتر واجباته «هنا مدرسة».

صرخ المعلم العجوز:

- إذا لم تكن مدرسة، إذن ما تلك السارية؟

كتب علي براتياني في دفتر واجباته «إذا لم تكن مدرسة، إذن ما تلك السارية؟».

لم يكن يُسمع صوتٌ. كان الصمت مخيما. صمت مدهش ومحرج. عاد المعلم العجوز إلى النافذة. القى من خلال شقوق الزجاج المتكسر نظرة على السماء. كانت السماء ما زالت دخانية اللون ولكن الطائرة الورقية كانت قد توقفت عند الشجرة الوحيدة الظمآنة. وكان الصبيّ قد علّق صفارته في رقبته وجلس بالقرب من السلّة. كان يأخذ الأوراق المبعثرة لواجبات التلاميذ منها وينثرها في الجو. وكان صوت بكاء الطفل في الأزقة البعيدة قد انقطع. رجع المعلم العجوز. كان محرجا. كتب على السبّورة:

«لا يوجد كلام للتحدث به، لا أدري ماذا دهاني!»

علي براتياني لم يكتب. كان قد وضع رأسه على دفتر واجباته واستسلم لنوم عميق. كان المعلم العجوز محرجا، يقطع عرض الصف ذهابا ومجيئا.

بعد لحظات طويلة كان يسميها هو سابقا لحظات أليمة وقاتلة، عاد مرة أخرى إلى النافذة. ألقى نظرة من خلال الزجاج المتكسر على الخارج: كانت السماء ما زالت دخانية اللون. كانت الشجرة الظمآنة قد أطلقت الطائرة الورقية في الجو. كان العلم على السارية الخشبية يرفرف والصبي الذي كان يصفّر قد غاب أيضا وكانت الأوراق المبعثرة لواجبات التلاميذ الطائرة في الجو قد أخذت مكانه.

رجع المعلم العجوز إلى السبورة. كان الشخير الهادئ لعلي

براتيانـــي، التلميذ الوحيد في الصف، قد اقتحم الصمت المخيم علـــى الصف وأحدث فيه أجواء موهومة مدهشـــة. ارتعد المعلم العجوز، فتح الباب واجتاز الممر مســـرعا. دخل الساحة وعندما أراد أن يخرج من باب المدرســـة همّت الفراشـــة بالدخول وكانت الريح تداعب عباءتها. رأت الفراشة المعلم العجوز فقالت تخاطبه:

- يا سيّد! المدرسة مغلقة في أيام الجُمَع.

قال المعلم العجوز متحيرا:

- أليس اليوم هو الاثنين؟

قالت الفراشة:

- اليوم هو الجمعة.

قال المعلم العجوز:

- إذن لماذا قد حضر علي براتياني؟!

حدجته الفراشة باندهاش وقالت:

- ولكن علي براتياني قد أعطاك عمره من أسبوعين؟!

المعلم العجوز أصيـــب بالرعب تراجع خارجا من الباب قاذفا بنفسه في الزقاق. وكان متمتما:

- ... !

خسرو شاهاني
Khosro Shahani

ولد في مدينة مشهد وتوفي سنة ٢٠٠٣ في طهران. كل أعمال هـذا القـاص الإيرانـي ذات صبغـة فكاهيـة وسـاخرة، حيث قدم بقلمـه اللاذع الدقيق أعمالا جيدة فـي النقد الاجتماعي منها: بهلـوان الحارة، الأعمى اللعين، وحشـت آبـاد، كوميديا الافتتاح، سيارة الدكتور بقراط وغيرها.

معاون، توقيع، مكتب، ختم.

مـــن أجل إنجاز عمل مـــا، أي أخذ ورقـــة تأييد من دائرة إلـــى دائرة أخرى، راجعت الدائـــرة الأولى وحصلت على تلك الورقة بشـــكل من الأشـــكال. ثم ذهبت للدائرة الثانية حيث كانت مهمتي الأصلية. نظر المســـؤول إلى الورقة وقال إن هذا التأييـــد ناقص، يجب أن توقعه الدائـــرة الفلانية وتؤيد ختم الدائرة الأولى.

قلت له لمـــاذا لم تقل لي هذا قبل البارحـــة إذن، حتى أتوجه لتلك الدائرة بعد حصولي على هذه الورقة؟

قال المسؤول:

تصوّرت إنك ستفهم ذلك من نفسك.

وجدت رده قويا، فلم أقل شيئا، أي إنني خفت أن أقول شيئا. اســـتعدت الورقة منه وقلت له هلاّ تفضّلت بإعطائي عنوان تلك الدائرة.

قال بنبرة أمر جافّة: اسأل الاستعلامات.

أخذت الورقة وسألت عن قسم «الاستعلامات«الى أن وجدته، فقال الموظف هناك ثلاث كلمات لم تزد ولم تنقص:

اذهب للقسم الرابععشر!

وكأنني ترعرعتُ في أحضان القســـم الرابع عشر وأعرف كل أقســـام هذه المدينة الصاخبة. لم يعطني اســـم شارع ولا زقـــاق ولا رقـــم. بـــكل تواضع ومرارة من أن اللـــه خلقني جاهلا عديم الفهم إلى درجة أنني لا أعلم أين يقع القســـم الرابع عشـــر في

عاصمة هذه البلاد، سألته: هل يمكن أن تتفضل بإخباري في أي شارع يقع القسم الرابع عشر؟

حدجني من رأسي إلى أخمص أصابعي بنظرة بددت كل ما كان يساورني ربما من شكوك حول غبائي وجعلتني موقنا بأن الله خلقني مختلفا عن بقية البشر ذوي العقل والإدراك، ثم قال لي:

ألا تعلم أين يقع القسم الرابع عشر من طهران؟

قلت له: لا، لكنني أدري أنني أسكن في القسم السابع.

من تقسيمات البلدية والقسم الثالث من تقسيمات التربية والتعليم، وفي القسم الخامس عشر من تقسيمات الشرطة، وفي القسم الحادي والعشرين من تقسيمات الخدمة العسكرية، وفي القسم الثامنعشر من تقسيمات ضرائب وزارة المالية، وفي القسم الرابع والثلاثين من تقسيمات الإحصاء والسجلات والأحوال الشخصية، إلا أنني لا أعرف أين يقع قسمكم في طهران.

هزّ رأسه بأسف وسأل: ما هو عملك؟

قلت له إنني صحافي.

قفز من مكانه فجأة كمن رأى عفريتا من الجن وقال: أنت صحافي ولا تعلم أين يكون القسم الرابع عشر؟

قلت له: والله لقد أخبرتكم أنني صحافي ولست موظفا في دائرة الإحصاء والبلدية والمناطق والأحوال المدنية!

زمّ شفتيه وقال وهو يتوجه بأنظاره صوب مراجع جديد:

حسنا اذهب إلى شارع ميرداماد.

ها قد حلّت البركة، كانت القضية معقدة ولا أمل في وصولها، وقد حلها رئيس الاستعلامات لتصل. قلت له بخوف وقشعريرة:

سمعا وطاعة... ولكن أين يقع شارع ميرداماد؟

غضـــب هذه المرة وقـــال: هل جئت من خلـــف الجبل يا رجل؟ شـــارع ميرداماـــاد فـــي مكانه في شـــارع ميرداماـــاد... ضحكت، قلت: معذرة ســـيدي الرئيس ظننت أن شـــارع ميرداماد في شارع العروسة. سمعا وطاعة. ومشيت ولم أنتظر إجابة أو توجيها لاذعا آخر من السيد الرئيس. بألف مصيبة حصلت على تاكسي وبقيت واقفا طرف الشارع أصرخ: ميرداماد... ميرداماد، إلى أن صارت رجـــلاي خيوطا تكاد تتقطع، ولأدع هذه التفاصيل لفرصة أخرى. أخيرا وصلت إلى شارع ميرداماد والقسم الرابع عشر، وسألت عن الدائـــرة المعنية إلى أن وصلت إليهـــا، فعرضت الورقة على رئيس دائرة الاستعلامات وسألت: أين يجب أن يتم تأييد هذه الورقة؟

أخذ الورقة من يـــدي، نظر إلى كل زواياها بعد ما قرّبها من عينيه وابعدها، ثم أعادها إليّ وهو يشـــير إلى رجل على رأســـه قبعة يذرع الممر بخطوات طويلة وقال:

اسأل ذلك الرجل.

ركضت خلف الرجل وأريته الورقة وقلت: ســـيدي معذرة أين يؤيدون هذه الورقة؟ أجاب بكل برود: أنا مراجع مثلك... اســـأل ذلك الخادم المسك بصينية الشاي في يديه.

قطعـــت طريق الخـــادم الذي يحمل صينية الشـــاي في يديه وبحت له بمشـــكلتي ولكنه كان كمن اختبأت عقرب في بنطلونه ولا يستطيع الوقوف، قال وهو يمشي:

اذهب إلى آخر الممر!

لا إلــه إلا الله. من المكان الذي أنا واقف فيه حتى نهاية الممر هنالك في الأقل عشرون غرفة على الجانبين. أي غرفة يجب أن أفتح بابها حتى لاتنهال عليّ اللكمات؟

وحيث إنهم قالوا قديما "ماخاب من استشار" بقيت أستشير هــذا وذاك إلى أن وجدت الغرفــة التي يجب أن يوقعوا ويؤيدوا فيها ورقتــي. رصفت الطاولات أطراف الغرفــة، ربما أكثر من عشــر طاولات، أربع منهن خاليات لا يجلس أحد خلفها، واثنان من الموظفين جالســان خلــف طاولة واحدة يمــلآن معا جدول كلمات متقاطعــة واثنتان من الموظفات كانتــا تحيكان الصوف، وأحــد الموظفين يبدو أنه يعمل. الأفضل أن أســأل الرجل الذي يعمــل. تقدمت إليه وعرضت عليه مأســاتي، أشــار عليّ برجل يجلــس خلف طاولة في صدر الغرفة، يحتســي القهوة ويتحدث لرجل بجواره واضح أنه من أصدقائه.

تقدمت أمام طاولته ووضعت الورقة بمتناول يده وبقيت واقفا أنتظر الجواب. ســمعته يتحدث مع صاحبه عــن لعبة (البوكر) الليلــة الماضية، ولأن القصة كانت قد بلغــت محطتها الطريفة، وعمّا قريب ترتطم أوراق الرجل الفائزة بأوراق منافسه الخاسرة عــزّ عليّ أن أقطــع حديثهما، فبقيت واقفا هكــذا عدة دقائق، ولحســن الحظ كانت نشــوة الانتصار مازالت باديــة في محيّا السيد الرئيس فنظر إليّ بعين الفاتحين وسأل:

أي خدمة نقدمها؟

فرحتُ لأنه فاز البارحة وشــكرت الله على ذلك. فمن المعلوم

أنه لو خســـر السباق لا سمح الله لما كان من المعلوم ماذا سيكون مصير ورقتي اليوم.

قلت له بارتباك: أيّد هذه الورقة من فضلك.

أخذ القلم عن الطاولة وجرّ بعض الخطوط على الورقة وهو يروي بقية أحداث الليلة الماضية، ثم مدّ الورقة نحوي وقال:

معاون، توقيع، مكتب، ختم.

ظننـــت أن عبارة «معاون، توقيع، مكتب،ختم» من مصطلحات «البوكـــر» فبقيت واقفا أمام الطاولة. انقضت بضع ثوان فالتفت إليّ السيد الرئيس وسأل: لمَ أنت واقف؟

أخبرته أنني لم أفهم ما قاله.

قـــال بكل هدوء: قلت لك... معاون، توقيع، مكتب، ختم... ثم تابع روايته... نعم في الدور الثاني. نظرت فوجدت أني حصلت علـــى أوراق جيّدة فلم أتأخر، كان أمامـــي أكثر من ألف تومان، فدفعت به إلى وسط الطاولة فتراجع الكل إلا أكبر لأنه...

عدّلت من وقفتي بعض الشيء وقلت: سيدي الأجل لم تتفضل أين يجب أن أذهب الآن بهذه الورقة؟

توهّج وجهه نارا وقال بغضب:

هل أنت أطرش؟ قلت لك... معاون، توقيع مكتب، ختم.

أدركتُ إنني لم أطرح ســؤالي في الوقت المناسب. كان عليّ أن أنتظـــر إلى أن ينهزم الســـيد أكبر أمـــام صولات وجولات الســـيد الرئيس وحينها أطرح سؤالي، ولا أطرحه في مثل هذه الظروف المتأزمة. ولكن فات الأوان ومَرَقَ الســـهم من القوس. ســـحلت أقدامي وخرجت من الغرفة إلى حضـــرة الرئيس أو

موظف الاستعلامات وشكوت له أمري. ضحك وقال: يعني اذهب لغرفة السيد المعاون ليوقع ورقتك، بعد ذلك اذهب للمكتب كي تُختم. حينئذ فقط فهمت معنى العبارة التلغرافية للرئيس السابق «معاون، توقيع، مكتب، ختم» ورحت أسأل تارة أخرى عن غرفة المعاون إلى أن وصلتها في الطابق الخامس. حينما دخلتها وجدتها غاصة بنساء ورجال يجلسون على الكراسي وفي أيديهم أوراق. لم تكن غرفة، إنما هي صالة طولها عشرون مترا وعرضها عشرة أمتار، وفي أقصاها طاولة كبيرة خلفها رجل يتحدث في الهاتف. وبما أنني لا أفهم شيئا من الاتيكيت الاجتماعي، توجهت نحو الطاولة من دون مراعاة الدور، ووضعت الورقة أمام يد المعاون، وبقيت واقفا بكل احترام أمام جلالته. فجأة تنبهت إلى أن المعاون يشير إليّ وهو يتحدث في الهاتف ملمحا بإبهامه إلى الجدار خلفه. تصورت أن القضية تتعلق بطريقتنا نحن الإيرانيين أثناء الكلام حتى في الهاتف، إذ نستعين بحركات أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا وأعناقنا لننقل الأفكار بأحسن ما يمكن إلى عقول من نتكلم معهم، وأن السيد المعاون يشير بيده وابهامه لينقل مشاعره إلى من يتحدث معه في الهاتف.. مضت لحظات وإشارات السيد المعاون الإبهاميةلا تنقطع، إلى أن انتهت المحاورة الهاتفية لحسن حظ المراجعين أو لسوء حظي أنا، ووضع المعاون السماعة، وانفجر على حين غرة كأنه مدفع الإفطار فدوّى صوته في كل أرجاء الغرفة:

قلت لك اقرأ هناك!

ارتبكت، وانهزمت نفسـيا وتلعثم لسـاني. لـم تكونوا هناك لتسمعوا مدفع السيد المعاون كم كان قويا، قلت بارتباك وتلعثم:

أقرأ ماذا يا سيدي؟

هناك... هل أنت أعمى؟

أين؟ سيدي المعاون؟

هناك... هناك... فوق رأسي.

ها قد تمّ البدر علينا، كنت عديم الفهم، وأصبحت أطرش، ثم هاهــو المعاون يجعلني أعمى ولا يبخل عليّ بألطافه ألقيتُ نظرة من فوق العوينات إلى الجدار فوق رأس جلالته فرأيت ورقة كتب عليها بخط رديء:

لا تتوقفوا أمام الطاولة، وراعوا الدور رجاء.

أدركـت لتوي أي خطأ لا يغتفر قد اقترفته. أردت أن أسـأل المعـاون هل ارتطمـت أوراقك أنـت أيضا باوراق السـيد أكبر البارحـة؟ لكنني قدّرت أن الأمور سـتتعقد أكثر وقد أخرج من الدائرة من دون توقيع الورقة. سـحبت الورقة باحتياط من على طاولـة المعاون وتراجعت بكل هـدوء إلى الوراء من دون أن أولّي ظهري لطاولة حضرة المعاون، بالضبط كما يفعل خدم الفراعنة في مصر كما رأيناهم في الأفلام. ولأن كل الكراسي في الغرفة قـد احتلها المبكّرون والأشـطر منّا، وقفت إلـى جانب الجدار، وعـاد المعاون يتحدث في الهاتف. صدقونـي، بقيت واقفا على أقدامي نحو ثلاثة أرباع السـاعة بل أكثر كالطلاب المشاكسـين في الصف إذا سخط عليهم المعلم، أنتظر أن يصل دوري، وباقي المراجعين جالسـون وأوراقهم بأيديهم. وأخيرا وصل دوري وجرّ

السـيد المعاون خطا علـى ورقتي في أقل من ثانيـة، ولم أفهم هل وقع الورقة أم أنه شـطب عليها، ولم أطرح أي سـؤال حول هذه القضية. الحقيقة أنني خفت حينما تفضّل السـيد المعاون بتسليمي الورقة قال أيضا بعبارة تلغرافية: مكتب، ختم!

كنت مسرورا لأن خمسـين بالمائة من المهمة قد أنجزت حتى الآن، وانخفضت عبارة «معاون، توقيع، مكتب، ختم» إلى (مكتب، ختـم). لا أطيل عليكم، أخذت الورقة إلى «مكتب،ختم»... ولابد أنكم تقولون الآن يا لسعادة «شاهاني» الذي انقضت حاجته بهذه السرعة والسهولة، ولكن يجب أن اقول إن الأمر ليس كذلك، فأنا لا أزال في أول الطريق.

جلال آل احمد
Jalal Al Ahmad

ولد الكاتب والباحث والمترجم جلال آل أحمد في طهران عام ١٩٢٣ في عائلة دينية فقد كان والده وجدّه لأبيه من علماء الدين المشهورين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي.

بدأ الكتابة القصصية في بداية شبابه وأخذ صيتا بين الأوساط الثقافية وهو لم يزل في العشرين من العمر. اعتنق جلال الأفكار وصار يكتب عن الطبقة المسحوقة. تنقسم أعمال جلال آل احمد إلى قصص وبحوث اجتماعية ومشاهدات سفر وترجمات. فقد كتب عن رحلاته إلى بيت الله الحرام وأمريكا والاتحاد السوفييتي التي تعتبر من الكتب المقروءة دوما. لجلال آل أحمد أسلوب مميز في الكتابة يعتمد الجمل القصيرة والدقة المتناهية في التفاصيل.

كان هذا الكاتب في صدام دائم مع السلطة السياسية والثقافية بحيث أدت وفاته المبكرة (في عام ١٩٦٩ وهو في السادسة والأربعين من العمر) إلى التساؤل هل تمت تصفيته جسديا؟

صدر له الكثير من الكتب ومنها: مدير المدرسة، امرأة إضافية، زيارات متبادلة، حجر على قبر، التقييم السريع، عن معاناتنا.



وما كان بمقدوري أن أفعل؟ لم يكن زوجي مستعدا أن يُبقي عليّ مع طفلي. لم يكن الطفل طفله كان لزوجي السابق الذي طلقني. ولم يكن مستعدا لأخذ الطفل معه. ماذا كانت ستفعل أي امرأة غيري لو كانت مكاني؟ كان عليّ أن أعيش. ماذا سأفعل لو طلقني زوجي هذا أيضا؟ كنت مرغمة على التخلّص من هذا الطفل بشكل من الأشكال. امرأة لا تعي شيئا مثلي ماذا بوسعها أن تفعل سوى هذا. لم أكن أعرف مكانا ولا أرى أمامي حلا أو طريقا للخلاص. لم أكن أجهل كل شيء طبعا، أدري أن بالإمكان أن أضع الطفل في دار حضانة أو أي مكان آخر. ولكن من أين لي أنهم سيقبلون طفلي؟ وكيف لي أن أطمئن إلى أنهم لن يؤخروني ولن يريقوا ماء وجهي ولن يصموني وابني بألف وصمة ووصمة؟ من أين لي بكل هذا؟ لم أكن أرغب في أن تنتهي القضية بهذا الشكل. عصر ذلك اليوم بعدما انهيت الأمر وعدت إلى البيت واخبرت والدتي وباقي الجيران بما فعلت، قالت إحداهن: «يا امرأة، كنت تستطيعين أن تضعي طفلك في دار حضانة، أو تأخذيه إلى دار أيتام و... » ولا أدري أي أماكن أخرى ذكرتها. لكن أمي قالت لها: «وتظنين أنهم سيقبلونه؟ هه» مع أني كنت قد فكرت في هذا، ولكن حينما قالت تلك المرأة قولتها هبط قلبي بألم وقلت لنفسي: «يا امرأة، وهل ذهبتِ به إلى هناك ورفضوك؟» ثم قلت لوالدتي: «ليتني كنت قد فعلت هذا» ولكنني لم أكن أعرف شيئا، ولست واثقة من أنهم سيقبلونني.

ثـــم إن الأمر قد فات. كأنّ كلام تلك المرأة أمطر قلبي بالأســـى والغم. تذكرت كل حلاوة كلام طفلي. لم أستطع صبرا وأجهشت في بكاء شديد أمام كل الجيران. وما أسوأ هذا! سمعت إحداهن تتمتم «وتبكي أيضا، عديمة الحياء... » أنقذتني أمي مرة أخرى وروّحـــت عنّي. وكانت على حق. كنتُ في أول شـــبابي فلم أحزن كل هـــذا الحزن على طفل؟ خصوصـــا أن زوجي لا يقبلني معه. أمامي متســـع من الوقت لأحبل وألد ثـــم أحبل وأنجب. صحيح أنـــه كان طفلـــي البكر وما كان عليّ أن أفعـــل الذي فعلته، ولكن فات الآن كل شـــيء. وما عاد في التفكير فائدة. لم أكن قاســـية إلى درجة أن أفعل هذا من نفســـي. زوجي هو الذي أصر. وكان على حق، يقول إنه لايريد أن يرى فضلات فحل حمار آخر على مائدته. أنا نفســـي حينما أحكّم إنصافي أعطيه الحق. هل كنتُ مستعدة أن أحب أطفال زوجي مثل أطفالي؟ ولا أراهم عالة على حياتي؟ ولا أعتبرهـــم زائدين على مائدة زوجي؟ هو أيضا يفكر هكذا. هو أيضا من حقه ألا يســـتطيع رؤية ابني، وليس ابني بل ابن فحل حمار آخر كما يقـــول على مائدته. في اليومين اللذين انقضيا على مجيئي إلى بيته لم يكن لنا كلام ســـوى هذا الطفل. تحدثنا كثيرا في الليلة الأخيرة. ولم نتحدث طبعا، بل تحدث هو عن الطفل واســـتمعت أنا. وقلت له أخيرا: «حسنا، ماذا أفعل؟» لم يقل شـــيئا. فكّر قليلا ثم قال: «لا أدري ما تفعلين، افعلي كل ما ترينه صحيحا. أنـــا لا اريد أن أرى فضلات فحل حمار آخر على مائدتـــي». لم يضع حلا أمامي، ولم يأت ليلتها إلى جانبي، كان غاضبا مني كما يبدو. كانت الليلة الثالثة من ليالي عيشـــنا

المشـــترك. لكنه زعل مني. كنتُ أدري أنه يريد أن يغيضني لأنهي أمـــر الطفل بســـرعة. وفي الصباح حينما خـــرج من البيت قال «إذا عُدتُ ظهرا لا أريـــد أن أرى الطفل» وهكذا فهمت ما يجب علـــي فعلـــه. والآن كلما فكّرت لا أفهم كيف اســـتطعت أن أفعل الـــذي فعلته؟! لكـــن الأمر كان قد خرج من يدي. ألقيت شـــادر صلاتي على رأســـي وأخذت يد طفلي وخرجت من البيت بعدما خرج زوجي. كان لطفلي ثلاث ســـنوات. يســـتطيع أن يمشي بلا مساعدة. السيئ هو أنني بذلتُ ثلاث سنوات من عمري لأجله.

كان هـــذا أتعس ما فـــي الأمر. انتهت كل مشـــكلاته وكل ما يحتاجه من ســـهر ومعاناة وتعب وها هي أول الراحة معه. لكنني كنت مضطرة لفعلتي. مشيت معه إلى موقف السيارات. كنتُ قد ألبسته حذاءه وملابسه الجيدة. سترة وبنطلون زرقاوان صغيران كان قد اشتراهما له زوجي السابق قبل فترة. قلت لنفسي حينما كنت ألبســـه ثيابه: «يا امرأة، ولماذا تلبســـينه ملابسه الجديدة؟» لكن قلبي لم يطاوعني. وماذا ســـأفعل بملابسه الجديدة؟ اللعنة على زوجي. عليه إذا ولدتُ له أطفالا أن يشتري لهم ثيابا جديدة. ألبسته ثيابه ومشطت شـــعره، أصبح جميلا جدا. أمسكت بيده ولففت بيدي الأخرى شـــادري حول خصري ورحت أتمشى على مهل. لم تكن هناك حاجة لأن أسبه وأشتمه كل دقيقة حتى يسرع في المشـــي. في المرة الأخيرة التي أمســـكت فيهـــا بيده وأخذته خارج البيت طلب مني في مكانين أو ثلاثة أن اشتري له «قاقا». قلت له: «لنصعد السيارة أولا ثم أشتري لك قاقا». أتذكر أنه كان يومها يكثر من الأســـئلة كعادته. كان هنالك حصان حبســـت يده

داخل ساقية الماء طرف الشارع واجتمع الناس حوله. ألحّ علي أن أحمله حتى يرى ما الخبر. حملته فرأى الحصان قد جرحت يده وسال منها الدم. حينما وضعته أرضا قال «أمّو، يدّو صارت أوخ» قلت له «نعم حبيبي لم يسمع كلام أمّه، فصار أوخ». تمشيت على مهل حتى موقف السيارات. كان الوقت لايزال مبكرا والسيارات مزدحمة، بقيت حوالي نصف الساعة في الموقف إلى أن صعدنا السيارة. الطفل كان يتململ دائما وأنا أكاد أتعب، ضايقني جدا بأسئلته. قال مرتين أو ثلاثا: «هاها أمّو، لم تأتو ثيّارة. هيّا اشتلي لي قاقا» فقلت له مرة أخرى إنها ستأتي الآن. وإذا جاءت السيارة فسأشتري لك قاقا. وأخيرا صعدت الباص رقم ٧١ وبقي الطفل يتكلم ويسأل إلى أن نزلنا في ساحة الشاه. أتذكّر أنه سألني مرة «أمّو، أين نذهب؟» لا أدري لماذا قلت له بسرعة «نذهب إلى بابا». نظر الطفل لوجهي قليلا ثم سأل: «أمّو، أيّ بابا؟» فاض الكيل بي فقلت له: «كم تتكلم، لن أشتري لك قاقا إذا تكلمت» وكم يعتصرني الألم الآن لردي عليه هكذا. هذه الأمور تقطّع نياط القلب أكثر. لماذا حطمت قلب صغيري في تلك الساعة الأخيرة هكذا؟ حينما خرجنا من البيت عاهدت نفسي ألا أغضب أبدا ولا أضربه ولا أسبه، وأعامله بمحبة. ولكن كم يعتصرني الألم الآن! لِمَ أسكتُّهُ بتلك الطريقة؟ سكت الطفل بعدها ولم يقل شيئا. وظل ينظر ويضحك لمساعد السائق الذي راح يغيّر له شكله ويسلّيه. لكنني لم أبالِ له ولا لطفلي الذي كان ينظر إلي بين الحين والآخر. قلت للسائق يقف في ساحة الشاه. وحينما نزلنا كان طفلي لايزال يضحك. كانت الساحة مزدحمة

والباصـــات كثيرة، وأنا لا أزال خائفة من فعل ما أريد . تمشـــيت بعض الوقت. ربما نصف ســـاعة. قـــل عدد الباصات. جئت إلى جانب من جوانب الســـاحة أخرجت عشرة شـــاهيات وأعطيتها لطفلي. ظـــل حائرا ينظر إلي. لم يكن قد تعلم اخذ النقود بعد. لـــم اكن ادري كيـــف أفهمه. في الطرف الآخر من الشـــارع بائع حب ومكرزات ينادي. اشـــرت اليـــه باصبعي وقلت: «خذ، إذهب واشتري قاقا. أرني هل تعرف شراء القاقا بنفسك» نظر الطفل إلـــى النقود ثم إلـــيّ وقال «أمّو، تآلي أنت معـــي» قلت له «لا أنا واقفـــة هنا أراقبك. اذهب لأرى هل تعرف كيف تشـــتري؟» نظر مرة أخرى إلى النقود.

كأنه كان حائرا، ولايدري كيف يجب أن يشـــتري شـــيئا. لم أعلمـــه هذا من قبل. ظل محدّقا فيّ. يا لها من نظرة! انقبض قلبي في تلك اللحظة واســـتاءت حالتي. استاءت حالتي جدا. كدت أتراجع عـــن فعلتي. بعد ذلك حينما ذهب طفلي وهربت وإلى الآن، وحتى عصر ذلـــك اليوم حينما انفجرت باكية امام الجيـــران، لم ينقبض قلبي هكـــذا ولم تتـــردَّ حالتي إلى هذه الدرجة. كادت طاقتي تنفد. يالها من نظرة عجيبة! ظل طفلي حائرا كأنه لايزال يريد أن يسألني شيئا. لا أدري كيف سيطرت على نفســـي. أشـــرت عليه إلى بائع البذر مـــرة أخرى وقلت: «اذهـــب يا حبيبـــي، أعطه هذه النقود، وقل لـــه أعطني بذرا، هـــذا فقط، اذهب بارك الله» نظر طفلـــي إلى بائع البذور، ثم قال كما يقول حينما يتململ ويتحس: «أمّو، لا أليدُ بدلا، أليدُ تبيبا» ها قد هبطت المسكنة على رأسي من كل صوب، لو تأخر

لحظـــات أخرى، ولو كان قد بكـــى قليلا، لتراجعت يقينا. لكنه لم يبكِ. تملكني الغضب، وطفح بي الكيل. صرخت فيه «عنده زبيب أيضا اذهب واشتر ما شئت، هيا اذهب». ثم حملته لأعبر به ساقية الشارع وأضعه على الأسفلت وسط الشارع. وضعت يـــدي على ظهره ودفعته إلى الأمام بهـــدوء وقلت «هيا اذهب، ســـنتأخر» كان الشارع فارغا، لم يكن فيه باص أو عربة تسحق طفلي. تقدم خطوتين أو ثلاثا وقال: «أمّو، عندو تبيب؟» قلت له «نعم يا حبيبي، قل له أعطني زبيبا بعشـــرة شاهيات». وذهب. وصل إلى وسط الشارع وإذا بسيارة يتعالى بوقها فارتعدت من الفزع. رميت بنفسي وســـط الشارع من دون أن أفهم ما الذي أفعله، احتضنت طفلي وأســـرعت به إلـــى الرصيف واختبأت وســـط الناس. كنت أتصبب عرقا وألتقف أنفاســـي بصعوبة. قال الطفل «أمّو، مادا تال؟» قلتُ له: «لا شـــيء ياحبيبي. يجب أن تعبر الشارع بسرعة. وأنت كنت تعبره ببطء، كادت السيارة تســـحقك» كدت أجهـــش بالبكاء وأنا أقول هـــذا. قال وهو لا يزال في احضاني «حســـنا أمّو خلّيني علـــى الأرت، ألوح هذه الملّة» لو لم يتفوّه بهذه الكلمات ربما كنتُ قد نســـيت لماذا جئتُ بـــه إلى هنـــا. لكن كلامه دفعني إلى الصلافـــة مرة أخرى. لم أكن قد مســـحت دموعي بعد حينما تذكرت الشيء الذي جئت من أجله. وتذكـــرت زوجي وغضبه. قبّلـــت طفلي. كانت آخر قبلـــة أطبعها على خدّه. قبلته ووضعته على الأرض وهمســـتُ في أذنه: «أركض بســـرعة، ستأتي السيارة». كان الشارع خاليا أيضا، وقد أسرع طفلي في المشي. كان يقطع خطواته بسرعة

وخفــت مرتــين أو ثلاثا من أن تلتوي أرجله ببعضها ويســقط أرضا. حينما وصل إلى تلك الجهة من الشارع عاد ونظر إلي.

كنتُ قد جمعت أطراف شــادري تحت إبطي وتهيأت للفرار. ولكن ما إن اســتدار ونظر إلي حتى تجمدت في مكاني. صحيح أننــي لــم أكن أرغب في أن يفهــم أنني أريد الهــرب، لكنني لم أتجمد في مكاني لهذا. كنت أشــبه بســارق ألقوا القبض عليه. تخشبت في مكاني وبقيت يداي تحت إبطيّ. بالضبط كتلك المرة التي مددت فيها يدي إلى جيب زوجي أعني زوجي السابق ورآني على حين غرة. تسمّرت مثل تلك المرة. تصببت عرقا مرّة أخرى. نكّست رأســي أرضا وحينما رفعته بألف ألف مشقة كان طفلي قد سار ثانية ولم يبق شيء لوصوله إلى بائع الحب. كانت مهمتي قد انتهت. وصل طفلي ســالما إلى الجهة الأخرى من الشــارع. ومنــذ تلك اللحظة كأنما لم يكن لي طفل. آخر مرة نظرت فيها إليــه كنت كمن ينظر إلى ابن الناس. نظرت اليه كأنه ابن الناس وهو بكامل حيويته وبهجته. واستمتعت برؤيته تماما كما أستمتع برؤية أبناء الآخرين. دسستُ نفسي بسرعة وسط جموع الماشين على الرصيــف. وانتابني الرعب فجــأة. كادت أقدامي تتحجرّ وأتجمد في مكانــي خوفا من أن يكون أحدهم قد راقبني طوال هذه المدة. انتصب كل شــعر جسدي لهذا الهاجس فأسرعت في المشــي. بعد زقاقين أردت أن أنعطف فــي أحد الأزقة وأهرب. وصلتُ بصعوبة إلى رأس الزقاق وإذ بســيارة أجرة تتوقف ورائي في الشــارع. كأنما ســيلقون القبض عليّ الآن. تسربت الرعشة إلــى داخل عظامي. تخيلت أن شــرطي التقاطــع راقبني وقفز

في التاكسي ونزل الآن يتعقبني وسيقبض عليّ الآن. لا أدري كيف عدت ونظرت ورائي، فعاودني شيء من الاطمئنان. ركاب التاكسي دفعوا أجرتهم وانصرفوا. تنفست الصعداء وخطرت ببالي فكرة أخرى. من دون أن أفهم شيئا أو أنظر إلى مكان ما، قفزت داخل التاكسي وأغلقت الباب بقوة، تململ السائق وانطلق. بقي طرف شادري في الباب. حينما ابتعدنا وشعرت بالاطمئنان أكثر فتحت الباب بهدوء، أخرجت شادري منها وأغلقتها ثانية. اتكأتُ على الكرسي وتنفست بعمق. ومساء لم أستطع أن أنتزع من زوجي أجرة التاكسي.

نادر إبراهيمي
Nader Ebrahimi

لهذا الكاتب إسهامه طوال خمسة عقود من الحياة الأدبية في إيـران. كتب حتـى الآن الكثير من القصـص القصيرة والروايات والبحـوث والسـيناريوهات. وربمـا تجاوزت أعمالـه رواية «نار بلا دخان» في عدة مجلدات أنتجت قبل سـنوات كمسلسل تلفزيوني ناجـح. من عناوين إصداراته الأخرى: بيت على الظلام، الأماكن العامـة، المدينة التـي أحببتها مرة أخرى، تناقضات الداخل. كما صدرت له العديد من قصص الأطفال.



حديث آخر عن القفص

يا صديقي!

هل فكرت يوما في أوجاع القفص؟

الطائر أو القفص.

هل سألت نفسكَ يوما أيهما أشد تعاسة وبؤسا؟

فكّر في أسلاكِ القفص المتشابكة.

وبوجه القفص المنقبض.

ولكـــن تذكر أن التاريخ كله غاصٌّ بمديـــح طيور تذوقت طعم الأسار.

وما من كلمة واحدة عن آلام القفص.

لم أر إلا أناسا عاديين في الأزقة والشوارع.

يقفون أحيانا بقرب أقفاص الطيور، ويقولون بكل عواطفهم:

ياللقفص المسكين! يا للقفص المسكين!

منذ أعوام وهو صابر على الأذى!

وهذا الطائر!

كيف رفعه حبسُهُ بضعة أيام إلى أعلى عليين!

لا تقل لي إن الألم جزاؤه الحق.

لأنك قد نسيت الآسرين.

نحن يا رفيقي!

صببنا لعناتنا على القفص.

طوال سنوات الطغيان.

وطوال سنوات الهياج الناعسة.

«وتصور أن القفص كشك مفاخرنا».
واصطنعنا كل أناشيدنا مديحا للطيور.
وألقينا الطائر في كبد مفخرة.
لايمكن تلافيها.
ثم بعد ذلك.
حينما ألفينا أنفسنا أيضا في القفص.
وتذوقنا الطعم العذب للاستشهاد الورقية.
وعلمنا أيّ متسكع تافه هذه المفخرة.
قعدنا للتحاور من جانبي القفص:
والآن يا رفيقي، انظر للقفص!
وفكّر في أسار القفص ولو ليوم واحد.
واقلع عن مديح الطائر.
أنت تعلم جيدا أن ثمة أملا للطائر.
وغابة في خاطره.
كل نباتاتها مفاخر: النزول ضيفا على القفص ليومين أو ثلاثة؛
ولكن لا شيء للقفص إطلاقا.
فذهن القفص أسير الأسار إلى الأبد.
أنت يا صاحِ خير من يدري.
أن أعظم شهداء التاريخ طيور ماتت في الأقفاص.
وكانت اللعنات على الأقفاص دائما.
سمعت أن الرجل،رفيق الأمس، ركض في الشارع وهو يصرخ
ويقول:
«انظروا اليه، ها قد أنشد أغنية في مدح الأقفاص!

نسيان الطائر خاتمة الرواية.
ها قد نزل إلى الساحة لصالح القفص
وسيكون له أجر دنيوي عظيم...».
قلتُ: يا صديقي، أي نافذة ستفتحها الفريّةُ في جوانب القفص الستة؟
إذا لُذتَ بأحقرِ الوسائل،
وتظاهرت بالاستشهاد الحقيقي،
أيها المفتري، ما الفرق بين فمك وفم بالوعات العَذَرة؟
اسمعني،
وتمهّل معي،
لم أطلب منك شيئا لصالح القفص أبدا.
لقد عوّدنا الطيورَ على أفيون المفاخر.
ونثرنا حبات الإدمانِ على أرض الأقفاص.
يا أخي، ألا تريد الرفعة والعظمة؟
ألست من زبائن بضاعة الفخر الزهيدة؟
والآن، القفص!
ولكن، لاتنس أن خلف الستائر المزوّقة لمثل هذه المفاخر، لايوجد شيء أبدا.
لاريب أن الطائر يعرف أنه سيكون صاحب سيرة شامخة في التاريخ.
ويدري كل طائر انه لولا القفص، فإنه سيضطر للبحث عن قفص آخر.
كل طائر يدري أن القفص هو المبرر الوحيد للعودة من وسط الطريق بأيد مملوءة.

أنا أسألك:
الى فتح أي القمم يسير القفص؟
أي هواء يتنفسه القفص براحة و دعة؟
أي لقب سيُفاخِر به القفص؟
لا تنسَ أنني لا أدعوك للشفقة على القفص.
أقول لك فقط: أطلق سراح القفص.
لتتبدد هذه المفاخر الزائفة.
ونحرم عشاق الاستشهاد الورقي من نعمة الخلود الباطل.
يوم تحطّمُ القفص، ستعرف الأسلاك معنى الحرية.
وتتسامى روح القفص وسط هذا التغيير؛
لكن الطائر المدمن، بلا مفاخرِ الأسر المُحبّب،
لن يرى من الفخر أن يكون واحدا كالآخرين.
سمعتُ أن الرجل ركض في الشارع يموءُ ويقول:
«وامصيبتاه، انظروا إليه!
ها هو يمد يدا لإنقاذ القفص.
ارجموه!»
وأنا قلت: «حرية القفص،بداية حرية الطائر... الحقيقية».
بقينا غرباء،
لأننا تحدثنا بكل ماعندنا،
طُرِدنا،
لأننـــا قلنا شـــيئا لم يرق للإنســـان الذي يروقه الاستشـــهاد الورقي.

محبوبة ميرقديري
Mahbobe Mirghadiri

ولدت عام ١٩٥٨ في مدينة اراك بالمحافظة المركزية، واشتغلت بالتعليم منذ ١٩٨٠ في قرى تلك المنطقة. شرعت منذ ١٩٨٧ بنشر قصصها في الصحف. ولها فضلا عن مجموعتها القصصية «القريب» رواية تحت الطبع.

الأمهات

ضياء الثريات الكريستالية الأصفر يحطّ على ريش المروحة السقفية، وبدوران الريش تتناثر شظايا الأضواء على المرايا. مرايا صغيرة ثلاثية الزوايا. بحجم كف اليد أو أصغر.

ألا تنهضين يا صفية؟

أشارت صفية برأسها:

كلا التقطت إحدى المرايا شكلها وأعادته عشرات المرايا الأخرى. نظرة حمراء متورمة.

اذهبي أنت، أنا جالسة هنا.

ذهبت المرأة خطوتين ثم عادت:

ابقي هنا إذن حتى نعود إليكِ. لا تذهبي من هنا.

هزت صفية رأسها. واهتز رأسها في المرايا: حسنا.

قطعت المرأة خطواتها واسعة. اجتازت النسوةَ المتراصات إلى جانب بعضهن البعض على الأرض، وحينما وصلت إلى الباب عادت تنظر اليها، كانت قد أسندت رأسها إلى أحد الأعمدة. اطمأن بالها. عادت. وضعت يدها على صدرها وانحنت إجلالا أمام الضريح، أزاحت ستار القديفة الثقيل برأسها وكتفيها، وانحنت للإجلال تارة أخرى.

كان الحرم مزدحما، أشد ازدحاما من الأيام السابقة. النسوة يأتين ويذهبن. كلهن سوداوات منقبضات ثقيلات كأن كل واحدة منهن عقدة. «يأتين هنا ليحللن عقد قلوبهن».

إحداهن كانت تصلي بالقرب مـــن صفية. كان المكان ضيقا. والمرأة تفتحه عنوة عند الســجود، وكذلك تربتُها؟ «لا تســحقها الأقدام؟»

كانـــت تأخذ التربة بيدها. كانت تصلي بســـرعة. «أي صلاة هذه؟ إنها تعوّض عما فات؟» انفصلت امرأة عربية عن الضريح. تقدمـــت للأمام خطوة خطـــوة حتى اقتربت منهـــا. «تبحث عن مـــكان» كانت تبحث عن مكان. ألصقت صفية نفســـها بالعمود. وقفـــت المرأة العربية إلى قربها. طويلة ســـوداء. انتظرت صفية بضع لحظات «ســـتذهب الآن». لم تذهب. أمسكت صفية بأذيال عباءتها السوداء وجرّتها:

سيدتي، سيدتي المحترمة، تحركي من هنا.

أرادت أن يكون وجـهها أمام الضريح. جـاءت بهذه النية منذ البداية. أن تـــأتي صبـــاح وعصـــر كـــل يوم إلى الحـــرم وتجلس أمـــام الضريح. تمسح دخـــان قلبها. أعطـــت كـــل مـــالها لمرضـــية زوجة أخيـــهـــا: «لكـــل واحـــد قطـــعة حســـب ذوقـــك، للتبـــرك.» ومنذ اليوم الأول جاءت وجلســـت هنا. ظهرهـــا للعمود ووجهها للضريح.

آهوووو، تحرّكي من هنا.

كانت المرأة أشـــبه بجذع شجرة سوداء يابسة. طويلة راسخة لاتبالي لها أبدا «لا تفهم ما أقول! كيف أفهمها؟»

رفعت رأســـها وعلّت صوتها. كانت همهمة النســـاء أعلى من صوتها.

سيدتي المحترمة، إنني أكلمِك أنتِ.

ســاح صوتٌ في الحرم. ارتجفت المرايـا. «لا إله...». جاءوا بجنازة يطوفونها فـي الحرم. في تلك الجهة. في جهة الرجال. أطلت أنظار النسوة عبر الجدار الزجاجي وجالت خلف التابوت. قالت المرأة العربية شـيئا في نفسها ربما وجلست نصف جلسة. قالت صفية:

أوووهاي!

ثـم تراجعت إلى الـوراء. التصقت بالعمـود وتأفأفت. كانت عظامها متخشبة، متخشبة وخاوية.

جلست المرأة العربية جلسة كاملة على الأرض:

يا الله.

ثم أثنت ركبتيها على مهل:

أوف...

أدارت النساء حواليها الرؤوس:

ليس هناك مكان!

قالت إحداهن شيئا بالتركية وتململت وزمجرت صفية بصوت مكبوت:

لا تبالي لشيء أبدا!

رأت زوجا من النجوم الزرقاء وشمت على طرف العينين ونتوء الخدين. كانت امراة عجوزا، ليست عجوزا جدا، ولكن «في سنّها هي؟ نعم، لا؟ نعم».

أزيح سـتار القديفة بحركة عنيفـة. دوّى ضجيج في الحرم. كانت امرأة شابة. سوداء ومعها امرأتان أو ثلاث. تسمرت الأعين على المرأة الشابة. شعرها المجعد الأسود تحت الشال البرتقالي

أشـــبه بوكر غراب. وهـــي تخمش خديها بأظافرهـــا باحثة بين الجموع عن طريق لها إلى الضريح. وشـــيئا فشـــيئا قبضت على الدوائـــر الصفراء والتصقت بها. خفّ ضجيجها بعض الشـــيء. تأوهت صفية وأخرجت سبحة فخارية من جيبها. شمتها وراحت تسبح «دورة من الذكر».

كانت مشـــتتة الخاطـــر. المرأة العربية جالســـة أمامها مُولية ظهرها للضريح. ركبتاهما ملتصقتان ببعضهما البعض... وهذا غير ممكن، كانت تعاني من ألم في الأقدام ولا تستطيع الحراك «وهل المكان قحط؟».

نظرت حواليها. لايوجد فراغ حتى لفرخ دجاجة. وما تريدُ منهـــا أصلا؟ كأنما لم يحصل أي شـــيء تقرأ أذكارها مثل كل يوم. واحـــدا واحدا، بعدها يحين أذان الظهر فتصلي صلاتها وتكون مرضية إلى ذلك الحين قد عادت. تنتظرها حتى تصلي هي أيضا وتذهبان إلى الفندق. و ســـيكون غداؤهما حاضرا. عسى ألا تكون مرضية قد نسيت. طلبت منها أن تأخذ اثنتين أخريين مـــن تلك الحجابات، وثلاث سُـــفُر، وزوج نعال لليلى، زوج نعال جميلة. قالت هي نفســـها: «لتكن فيهما حبّات لماعة يا جدتي».

أقرباؤها كثيرون. وهناك الجيـــران والأصدقـــاء والمعـــارف. لو أرادت أن تعطي لكل واحد منهم قطعة لكان المجموع كبيرا!

دوّت صرخـــة قصيرة في الحـــرم. ارتجت المرايـــا، واهتزت الثريـــات. غابت المرأة الســـوداء عن الوعـــي! تكوّمت عند أحد أعمدة الضريح. امرأة صغيرة العينين كانت تلطم صدرها وتقرأ

بلغة غريبة! أدارت المرأة السوداء رأسها، نظرت بسرعة وعادت تقابلها بوجهها. بياض عينيها كان أصفر بعروق دموية حمراء و... النجوم! «كانت شجاعة بما يكفي! لم تخف أن تغرس الإبرة في عينها؟ وأي جمال في هذا؟»

فتحت المرأة العربية كفيها مقابل السقف ونظرت إلى الأعلى: الله.

كان صوتها متهدجا،وشاهدت صفية النجوم ترتجف وناجت المرأة العربية نفسها، لابد أنه دعاء. «من أين كانت؟»

ارتفع قرعُ الساعة الجدارية، لا واحدة ولا اثنتان. انشَدَّهَ بال صفية وضغطت على المسبحة في قبضتها. قرأت سورة الفاتحة ولم تكملها «لا يطاوعني قلبي على قراءة الفاتحة» قطبت حاجبيها فجأة وندّ عنها أنين:

أي ي ي ي...

أعادوا المرأة السوداء إلى وعيها وأجلسوها جانبا. إنها تبكي الآن، ونسوة هنديات «هل كن هنديات؟ قراءتهن تشبه الهنود. وعليهن وشم بين الحواجب، وشم كبير أسود وأحمر» اجتمعن حول بعضهن ورحن يقرأن شيئا، ربما كان شعرا. يؤرجِحنَ الأيادي مع بعضها ويحركن الرؤوس. نظرت المرأة العربية إليهن. كانت نظرتها باردة باهتة! «هل تستطيع أن ترى؟ نعم، عيناها سالمتان».

«من أين كانت؟»

«عربية على كل حال. واضح هذا من عباءتها السوداء، ووجها أسود أيضا».

أظلم الحرم. انقطع الكهرباء. رفعت رأسها، الثريات انطفأت وتوقفت ريش المروحات عن الحركة. المرايا يعلوها الغبار ويجعلها ضبابية. ارتفع صوت رجل من الجانب الآخر يقرأ الزيارة عاليا. «هذا جيد» ركزت سمعها وكررت:

... السـلامُ عليكِ يـا أم المصائب يا زينـب... أيتها البعيدة عن الأوطـان... يا ممتحنة في تحمل المصائب... الأسـيرة في البلدان...

قـرأت الزيارة متقطعة متكسـرة إلى آخرهـا. قرأت ونقلت أنظارها عـن رأس وأكتاف المرأة العربية التي تراقبها بدهشـة احيانا، إلى الضريح. عـاد الكهرباء، واضاءت الثريات وتحركت ريش المروحات. انتثر الضياء على المرآيا وعلى الوجوه السـوداء للنساء. النساء كن موزعات في المرآيا الثلاثية. قطعة قطعة وكل قطعة مكررة. مرتين،ثلاث مرات، عشـر مرات. بسطت المسبحة «لأردد الصلوات».

رددت الصلـوات وقبـل أن تبلغ الحبّة الأخيرة جاءت شـابة بعباءة سوداء براقة. خطواتها سريعة ووجهها طازج طري. كانت ممتلئة بالنشاط. يبدو عليها أنها لاتزال عازبة. انحنت ووضعت يدها على كتف المرأة العربية. قالت شـيئا بالعربية ورفعت المرأة رأسـها. قامت عدة نساء بالقرب منها، فتنفست صفية بارتياح، واستعدلت في جلستها، جلست الفتاة أيضا. كانت تتكلم مع المرأة بسـرعة. نظرتها ضاحكة. أخرجت من حقيبتها قماشا عرضته على المرأة. مسـحت المرأة يدها على القمـاش، أخرجت الفتاة الايشارب (الوشاح) وعدة جوارب من حقيبتها. فتحت الايشارب.

ثلاثي الرؤوس وضعته على رأسها. ضحكت المرأة، وعقدت الفتاة طرفي الحجاب.

إنها جميلة، مبروك عليكِ.

نظرت العجائز والشابات إلى صفية، وأعادت صفية كلامها. مسحت يدا على الإيشارب وقالت بأناة:

مبروك، جميلة.

وتوجهت نحو المرأة:

ابنتكِ؟

لم تقل المرأة شـــيئا وخلعت الفتاة الإيشارب عن رأسها. قالت كلمات بالعربية وأشارت إلى المرأة:

أمّي ووضعت يدا على صدرها وطوت الإيشارب ثم دسته في حقيبتها. كانت تسترق نظراتها من صفية. انزلقت صفية للامام وأشارت إلى المرأة:

أمكِ؟ حفظها الله.

قالت الفتاة:

خُدا، الله.

عادت صفية لتقول:

أولادها؟ أولاد؟

هزت الفتاة رأسها:

أولاد.

وأشارت إلى المرأة:

أمّي.

كررت صفية:

أمّي. وابتسمت:

أنا أيضا لي ابنتان.

وأشارت بأصابعها:

أولاد، بنت، اثنتان.

كانــت المرأة قد أدارت وجهها. تســمرت نظرتهاعلى الجدار الزجاجي وعلى الظلال البادية من الجانب الآخر. واحدا واحدا. قالت الفتاة شيئا فتململت المرأة. توجهت صفية تارة أخرى للفتاة:

أنتم من أهل سورية؟

قطبت الفتاة حاجبيها. سألت صفية مرة أخرى:

أنتم سوريون، سورية؟

قالت الفتاة:

لا.

وضحكت. كانت ضحكتها تشي بالتبرم. كانت تسرق نظراتها من نظرات صفيــة والأخيرة لاتدعها لحالهــا، خصوصا بعدما رأت امرأة تعتمر العباءة تشــير إليهما برأســها ويدها من جانب الســتار أمام الباب. تقول شيئا ولايصل صوتها وسط الضجيج. أمسكت صفية بيد الفتاة:

هناك، انظري هناك.

أشــارت بيدها فنهضت الفتاة. مشــت وأمسكت بيد طفل كان مع المــرأة أمام الباب ثم عــادت. كان الطفل ولدا عمره سبعة أو ثمانية اعوام. أجلســته الفتاة على رجليها، وانحنت المرأة فقبلت جبهته. يبدو أنه كان مريضا. نأى بنفسه وما إن أرادت صفية أن تلمس شــعره المجعد حتى علا صوت بكائه.

قالت له الفتاة أشـــياء بلهجة ود ربما كانت تلاطفه وضغطت هي رأســـها على صدره. فنظرت العجوز لصفية نظرة باهتة ناعسة، شــعرت صفية بحدةِ النظرةِ كأنها السيف فانهارت! تراجعـــت، ورفع الطفـــل من صوت بكائه وهـــو يجذب اذيال عباءة الفتـــاة. بحثت الفتاة في حقيبتها. «تبحث عن طعام أو شـــيء من هذا القبيل» أخرجت صفية شـــوكولاته من جيبها وأمسكتها أمام الطفل:

هاك يا حبيبي، لا تبكِ.

أخذ الطفل الشوكولاته. حدجت المرأةُ الفتاة بنظرتها وهمست شـــيئا في أذنها تحذير انتزعت الفتاة الشوكولاته من يد الطفل، فتحت غلافها، صرخ الطفل وقبض على ياقة الفتاة. شمت الفتاة الشوكولاته، قطعت جزءا صغيرا بأسنانها فمضغته وقالت شيئا للمرأة. نظرتها كانت مســـمرة على نظرة صفية، وصفية ذاهلة! أي بشر هؤلاء؟ ربتت على كتف الطفل:

أولاد

وضربت على صدرها:

أولاد

تفكرت:

أولادِ الأولاد. ليلى، سيدتي الجميلة.

وأشارت بيدها إلى طولها:

ليلى، اسمها ليلى، أولاد الأولاد.

رفعت الفتاة حاجبيها:

ها... ليلى، ليلى.

وأشارت إلى الطفل:

عِباد، أولاد الأولاد.

وأشارت إلى المرأة وضحكت. وضحكت المرأة أيضا:

عباد.

التمعت النجوم للحظة. دست صفية يدها مرة أخرى في جيبها وأخرجت عدة قطع من الشوكولاته والمكسرات وقدمتها كلها للمرأة:

تفضلي. حلّي فمكِ.

قلّصت المرأة فمها. انطفأت النجوم.

لا، لا.

قالت صفية:

ضعيها في فمكِ، لن تكوني مدينة لنا.

أخذت الفتاة شوكولاته ودفعت يد صفية إلى الوراء:

ممنون.

زمّت صفية شفتيها وسحبت يدها. «يالهم من صلفين، من أين أنتم؟»

سألت. وضعت يدها أولا على صدرها:

إيران، إيراني.

ثم مدت يدها نحوهم:

من أين أنتم؟ مكة؟ المدينة؟

ضحكت المرأة بمرارة، وقالت الفتاة بحزم:

بغداد، العراق.

تثلجت يد صفية! أرجلها وكل جسمها تجمّد، وتساقطت

شفتاها ثيلتين على بعضهما البعض. «عراق، عراقيون؟» تحركت «هل تنهض لتذهب؟»

«ابقـــي هنا إذن حتى نعود إليك. لا تذهبي من هنا». لا تعرف مكانا هنا، إذا خرجت فسوف تضيع الطريق. وإذا بقيت..

نظـــرت إليهما. كان الطفل منشـــغلا بالشـــوكولاته. يمضغها دون أن يبالي بشيء، والفتاة سمّرت عينيها على الأرض. لا على الأرض فلم يكن شيء من الأرض قد ظهر. كانت تنظر إلى أرجل صفية. إلى ركبتيها. اهتزت صفية. كذلك الفتاة. أدارت رأســـها بسرعة وقالت شيئا للمرأة وردت عليها المرأة بانزعاج ثم توجهت إلى صفية. وجهها كان منقبضا والشـــعيرات الدموية في بياض عينيها متضخمة أحواض من الدم استنشقت صفية نفسا عميقا. من كان يتصور أنها ستواجه هؤلاء العراقيات هنا، هنا في المكان الـــذي لطالما تمنت زيارته ورؤيته؟! نظرت إلى الضريح بتوســـل «من بين كل هؤلاء البشر...؟!» سحبت شادرها إلى الأمام:

أي ي ي ي...

وارتجف كتفاها. مســـحت دخان قلبها وأزاحت الشادر لتنظر إلـــى المرأتـــين والطفل فتراهـــم يحدقون فيها. «هـــل تخبرهم؟ نعم،الأفضـــل أن تخبرهم. ســـيفهمون. هذه والدة على كل حال. ولها أحفادها. وقد جاءت للزيارة، لزيارة السيدة زينب. إذن لابد أنها ستفهم، سوف أفهمها...».

مدت يدها تحت شادرها. أخرجت حقيبة جلدية صغيرة من داخل كيس من قماش. فتحت الحقيبة ونظرت داخلها وأمسكت بها أمام عيني الفتاة، واشرأبت المرأة أيضا، أرتهما صفية صورة:

أولاد، أولادي، والد ليلى، حرب، حرب، شهيد.

هزت الفتاة رأسها بهدوء:

حرب، شهيد.

وتحدثت مع المرأة بالعربية. نظرة الفتاة كانت مغمومة، ونظرة المرأة مليئة بالمـــرارة. مدت يديها إلى أزرار بلوزتها عند الصدر. فتحتها وأخرجت سلســـلة وإطارا فضيا. كان الإطار مستطيلا. فتحت المرأة باب الإطار ومدّته أمام صفية:

أولاد، حرب، شهيد.

وأشارت إلى الطفل:

وَلدي.

بكى الطفل، التصق بالفتاة فقبلت رأســـه. أغلقت المرأة باب الإطار. أعادته إلى صدرها وأغلقت أزرار بلوزتها. النجوم أطراف عينيها كانت مبللة مرتجفة وعلى قلب صفية دخان لا ينقشع.

المترجم في سطور

أ. موسى بيدج

- شاعر ومترجم إيراني مواليد ١٩٥٦.
- ليسانس أدب عربي وماجستير في الأدب الفارسي.
- لـه أربع مجموعات شـعرية، واحدة بالعربية صدرت فـي بيروت وثلاث بالفارسية صدرت في طهران.
- أصـدر أكثر مـن ثلاثين كتابا فـي الترجمة مـن الأدب العربي الحديث إلى الفارسية (شـعرا ونثرا) منها مجموعات شعرية لنزار قباني، وأدونيس، ومحمد الماغوط، ومحمود درويش وسعاد الصباح.

يرأس تحرير فصلية شيراز «نافذة على الأدب الإيراني بالعربية».

المراجع في سطور

أ. سمير أرشدي

- من مواليد ١٩٥٧.
- حاصـل على بكالوريـوس علوم الترجمة من الجامعـة الوطنية الإيرانية ـ طهران، وماجسـتير في كلية الآداب من الجامعة اللبنانية، ويحضّر لمناقشـة أطروحة الدكتوراه في الجامعة اللبنانية.
- عضو اتحاد الكتاب والأدباء العرب.
- عضو مشارك في هيئة الموسوعة العربية الكبرى بدمشق.
- مترجم معتمد لدى منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.
- المترجم القانوني لوزارة العدل بإيران.
- كتب عشـرات المقالات والبحوث الأدبية والدراسات الفكرية في الصحف والمجلات المحكمة في الوطن العربي.
- قـام بترجمة وتعريب العديد من الأعمال الأدبية من بينها: «سـبع نسـاء سبع قصص» الصادرة عن سلسلة «إبداعات عالمية» التابعة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الإصدار القادم

حكايات حكماء أفريقيا.. وأسطورة نجدو ديوال

تأليف: أمادو همباطي با

ترجمة: محمد بنعبود

مراجعة: عبود كاسوحة

ترجمت عن الفرنسية

ما صدر من هذه السلسلة

318	لون والقلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخاركامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	البيروج	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1)	تأليف: سليمان جيفو ديوب
	الطفل الملك	
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيفو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري بروتل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولندا)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سواڤومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: روبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمراة وحيدة، فروغ فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

الفهرس



أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة

تألقت القصة الإيرانية في عقد الستينيات ببريق أكبر، ونزل قاصون جدد إلى ساحتها؛ حيث كان من أغنى عقود الكتابة القصصية في إيران. ولذلك فقد ظهر العديد من كتّاب القصة الذين ساهموا في اكتمال بانوراما الأدب القصصي الإيراني. ويمكن القول إن القصة الإيرانية كانت ومازالت تواكب أحداث المجتمع، وهي العين الناظرة والعقل البصير والتاريخ الحقيقي لآمال وآلام المجتمع الإيراني المعاصر.

لقد تطرقت بانوراما الأدب القصصي الإيراني الحديث إلى عدة كتاب إيرانيين مهمين ولهم آثار جلية وواضحة في تشكيل التاريخ الإيراني منذ أوائل القرن الماضي. ونذكر بعضا منهم على سبيل المثال لا الحصر: الكاتب جمال زادة وصادق هدايت وصادق جوبك وجلال آل أحمد وتقي مدرسي وجمال مير صادقي وغلام حسين ساعدي (المولود في أذربيجان)، وبهرام صادقي وعلي محمد أفغاني وهوشنك كلشيري ومحمود دولت آبادي وأحمد محمود ونادر إبراهيم والسيدة سيمين دانشور وإسماعيل فصيح، والكاتب في أدب الأطفال صمد بهرنكي.

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٧٠
ردمك: ٦-٣٨٦-٠-٩٩٩٠٦